دفاع عن القرآن الكريم

في وجه الملاحدة والمغرضين

دكتور

محمود سعد

أستاذ الدراسات الاسلامية المساعد

كلية الآداب ـ جامعة بنها

١٩٩٢

الناشر

دار المعرفة الجامعية

قال الله تعالى :

(أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا)[1] .

— عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه »[2] .

وفى لفظ عن مصعب بن سعد عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه ، وأخذ بيدى فأقعدنى فى مجلس أقرأكم »[3] .

— وقال ﷺ :

« من قرأ القرآن باعراب فله أجر شهيد »[4] .

— « من قرأ القرآن منثبتنا ، أو باعراب كان له بكل حرف فضل أربعين حسنة »[5] .

---

(١) النساء/٨٢ .

(٢) أخرجه أحمد فى المسند جـ١/١٥٣ ، والدارمى جـ٢/٤٣٧ ، والترمذى جـ٤/٢٤٧ وقال : هذا حديث غريب لا تعرفه الا من حديث عبد الرحمن بن اسحاق .

(٣) ابن ماجه جـ١/٧٧ والدارمى جـ٢/٤٣٧ .

(٤) اخرجه أحمد بن حنبل فى مسنده جـ١/٣٨٠ فى مسند عبد الله ابن مسعود .

(٥) كنز العمال جـ١/٥٣٣ — باب فضائل القرآن عن ابن عمر بلفظ : من أعرب القرآن كله كان له بكل حرف أربعون حسنة .





ان الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبد الله ورسوله ، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بخير واحسان الى يوم الدين .

وبعد :

فان القرآن الكريم هو كلام الله المنزل بواسطة الروح الامين على قلب عبده ورسوله محمد ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين ، لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين ، وليخرج به الناس من الظلمات الى النور باذن ربهم الى صراط العزيز الحميد .

ولن يتقرب متقرب الى المولى جل ثنـــاؤه بأحب اليه من تلاوة القرآن ، وتدبره ومدارسته ، ثم تعليم ذلك لغيره ، وتعلم القرآن يدخل فيه حفظه وتجويده واقامة حروفه واعرابها ، ويدخل فيه كذلك مدارسته ونفهم معانيه وتدبر آياته ومعرفة المقاصد الاساسية التى نزل من أجلها ، ومعرفة أحكامه ، وحلاله ، وحرامه ... الخ .

والقرآن الكريم هو الكتاب السماوى الخالد الذى حفظه المولى عز وجل — وتعهد بحفظه — من التغيير والتحريف والتبديل ، وبقيت

نصوصه منضبطة واضحة • قال الله تعالى ذكره (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون)[6] • وييسره سبحانه لمن أراد أن يقرأه ويتدبره ، فقال جل ثناؤه (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مذكر)[7] •

وكلام الله عز وجل منزه عن الاختلاف ، كما قال تعالى (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا)[8] •

وقد تناول كتاب الله تعالى بالطعن ملحدون ولغوا فيه ، وأكثروا كليلة – ضعيفة – وعقول عليلة – مريضة – ونظر سقيم ، فحرفوا الكلام عن مواضعه ، وعدلوه عن طرقه ، ثم قضوا عليه بالتناقض وفساد النظم والاختلاف ، وأدلوا فى ذلك بعلل ربما أثرت فى الضعيف الغمر – الذى لم يجرب – والحدث الغر – الصغير – واعترضت بالشبه فى القلوب وقدحت بالشكوك فى الصدور فأحببت أن أدافع عن كتاب الله ، وأرمى من ورائه بالحجج النيرة والبراهين القاطعة التى تقضى على شبه هؤلاء الملحدين وتكشف للناس ما يلبسون[10] • وأن هذه الشبهات ليست وليدة عقولهم وأفكارهم ، وانما استقوها من اجتهادات المفسرين واثارتهم للشبه والرد عليها ، فأخذوا منها ما يفيد أهواءهم وبعدوا عما يردهم الى الصواب ، لأنهم يريدون أن يلبسوا الحق بالباطل ، لذلك كان قصدى من هذا البحث كشف ما يزعمون ، وبيان الحقيقة واضحة جلية مستنبطا ذلك من مراجع كتب التفسير واللغة •

وقسمت الكتاب الى بابين :

الاول منهما : يتناول ادعاء اللحن فى القرآن الكريم ، والرد على ذلك •

---

(٦) الحجر/٩ •

(٧) القمر/١٧ •

(٨) النساء/٨٢ •

(٩) آل عمران/٧ •

(١٠) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص١٧ بتصرف •

وتناول الثانى منهما : ادعاء التناقض فى القرآن الكريم ، والرد على ذلك ، ثم جاءت خاتمة الكتاب .

ونحن نشكر مقدما أخا كريما اطلع على عيب فأفادنا به ، أو على خلل فأصلحه وهذبه وقومه فأفادنا به فتداركناه فى طبعة قادمة ان شاء الله .

والله أسأل أن يحفظنا من الخطأ والزلل الذى لا يأمن منهما أحد من البشر ، ومهما يكن فقد بذلت الجهد ما وسعنى ، فان أكن قد وفقت فهذا فضل الله يؤتيه من يشاء ، وأحمده سبحانه وتعالى على ذلك ، وان كانت الاخرى ، فحسبى أنى اجتهدت وتوخيت طريق العلماء وأضرع اليه جل ثناؤه ألا أحرم أجر المجتهدين .

وما توفيقى الا بالله عليه أتوكل واليه أنيب .

محمود عبد النبى حسين سعد

الباب الأول

مزاعم الملاحدة حول تغيير القرآن الكريم وتبديله

تمهيد ...

زعم بعض الملحدين أن القرآن الكريم قد غير وبدل ، وقالوا ، ان الدليل على ذلك ما نجده من اللحن الفاحش ، وذلك مثل :

١ ـ قول الله تعالى : (قالوا ان هذان لساحران)[١] .

٢ ـ قوله عز شأنه (ان الذين آمنوا والذين هادوا والصائبون والنصارى)[٢] .

٣ ـ قوله جل ثناؤه (لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة)[٣] .

٤ ـ قوله تعالى (والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين)[٤] .

٥ ـ قوله تبارك وتعالى (فأصدق وأكن من الصالحين)[٥] .

٦ ـ قوله عز وجل (يبين الله لكم أن تضلوا)[٦] .

٧ ـ قوله جل ثناؤه (ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون)[٧] .

٨ ـ قوله عز شأنه (وأسروا النجوى الذين ظلموا)[٨] .

٩ ـ قوله تبارك وتعالى (ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه)[٩] .

١٠ ـ قوله عز وجل (تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وانك لمن المرسلين)[١٠] .

---

(١) طه/٦٣ .
(٢) المائدة/٦٩ .
(٣) النساء/١٦٢ .
(٤) البقرة/١٧٧ .
(٥) المنافقون/١٠ .
(٦) النساء/١٧٦ .
(٧) آل عمران/٥٩ .
(٨) الانبياء/٣ .
(٩) البقرة ١ ـ ٢ .
(١٠) البقرة/٢٥٢ .

١١ ـــ قوله تعالى ذكره (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض)[١١] .

١٢ ـــ قوله جل ثناؤه (للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر فان فاءوا فان الله غفور رحيم)[١٢] .

١٣ ـــ قوله تبارك وتعالى (والمطلقات يتربصن بأنفسهم ثلاثة قروء ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن ان كن يؤمن بالله واليوم الآخر)[١٢] .

١٤ ـــ قوله تعالى (انما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون)[١٣] .

١٥ ـــ قوله عز وجل (ان المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضا حسنا)[١٤] .

١٦ ـــ قوله تبارك وتعالى (وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أءنا لمبعوثون)[١٥] .

١٧ ـــ قوله جل ثناؤه (وقطعناهم اثنتى عشرة أسباطا أمما)[١٦] .

١٨ ـــ قوله عز وجل (فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك فاذا أمنتم فمن تمتع بالعمرة الى الحج فما استيسر من الهدى فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة اذا رجعتم تلك عشرة كاملة)[١٧] .

١٩ ـــ قوله تعالى (ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا)[١٨] .

---

(١١) البقرة/٢٣٦ .
(١٢) البقرة/٢٢٦ ، ٢٢٨ .
(١٣) النحل/١٠٥ .
(١٤) الحديد/١٨ .
(١٥) المؤمنون/٢٣ .
(١٦) الاعراف/١٦٠ .
(١٧) البقرة/١٩٦ .
(١٨) البقرة/٢٢١ .

٢٠ ـ قوله تعالى (يسألونك ماذا ينفقون)[١٩] (يسألونك عن الشهر الحرام)[٢٠] (ويسألونك عن الخمر والميسر)[٢١] وقوله (ويسألونك ماذا ينفقون)[٢٢] (ويسألونك عن اليتامى) [٢٣] (ويسألونك عن المحيض)[٢٤] .

٢١ ـ قوله عز شأنه (ولقد صدقكم الله وعده اذ تحسونهم باذنه حتى اذا فشلتم وتنازعتم فى الامر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين)[٢٥] .

٢٢ ـ قوله تبارك وتعالى (ياأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لاخوانهم اذا ضربوا فى الارض أو كانوا غزى ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم والله يحيى ويميت والله بما تعملون بصير)[٢٦] .

٢٣ ـ قوله تعالى (أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى)[٢٧] .

٢٤ ـ قوله عز شأنه (اذا أخرج يده لم يكد يراها)[٢٨] .

٢٥ ـ قوله جل ثناؤه (غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول لا اله الا هو اليه المصير)[٢٩] .

٢٦ ـ قوله تعالى (وان يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم)[٣٠] .

٢٧ ـ قوله عز شأنه (الله الذى جعل لكم الانعام لتركبوا منها

---

(١٩) البقرة/٢١٥ .

(٢٠) البقرة/٢١٧ .

(٢١) البقرة/٢١٧ .

(٢٢) البقرة/٢١٩ .

(٢٣) البقرة/٢٢٠ .

(٢٤) البقرة/٢٢٢ .

(٢٥) آل عمران/١٥٢ .

(٢٦) آل عمران/١٥٦ .

(٢٧) طه/١٥ .

(٢٨) النور/٤٠ .

(٢٩) غافر/٣ .

(٣٠) غافر/٢٨ .

ومنها تأكلون ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة فى صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون ويريكم آياته فأى آيات الله تنكرون)[٣١] .

٢٨ — قوله تعالى (لا يسمعون فيها لغوا الا سلاما ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا)[٣٢] .

٢٩ — قوله عز وجل (وما نتنزل الا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيا ، رب السموات والارض وما بينهما ...)[٣٣] .

٣٠ — قوله عز وجل (واذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم اذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ...)[٣٤] .

٣١ — قوله تعالى (ثم أنشأنا من بعدهم قرنا آخرين ، فأرسلنا فيهم رسولا منهم أن اعبدوا الله ما لكم من اله غيره أفلا تتقون)[٣٥] .

٣٢ — قوله جل ثناؤه (فاذا مس الانسان ضر دعانا ثم اذا خولناه نعمة منا قال انما أوتيته على علم بل هى فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون)[٣٦] .

٣٣ — قوله تعالى (وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت احداهما على الاخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء الى أمر الله)[٣٧] .

٣٤ — قوله عز وجل (الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور)[٣٨] .

---

(٣١) غافر/٧٩ — ٨١ .
(٣٢) مريم/٦٢ .
(٣٣) مريم/٦٤ .
(٣٤) ابراهيم/٦ .
(٣٥) المؤمنون/٣١ — ٣٢ .
(٣٦) الزمر/٤٩ .
(٣٧) الحجرات/٩ .
(٣٨) البقرة/٢٥٧ .

٣٥ ــ قوله تعالى (أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الانهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها اعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون)(٣٩) •

٣٦ ــ قوله تبارك وتعالى (وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فان الله يعلمه)(٤٠) •

٣٧ ــ قوله تعالى (عوان بين ذلك)(٤١) •

٣٨ ــ قوله تعالى (لا نفرق بين أحد من رسله) (٤٢) •

وهذا ما سنتناوله فيما يلى ان شاء الله تعالى •

ما ادعى على القرآن من اللحن

زعم بعض الملحدين أن القرآن الكريم قد حرف وغير وبدل ، وقالوا : ان الدليل على ذلك ما نجده من اللحن الفاحش الذى لا يجوز على الله تعالى ولا على الرسول ﷺ • واستدلوا بما يأتى :

(١) روى عن عكرمة أنه قال : لما كتبت المصاحف عرضت على عثمان ، فوجد فيها حروفا من اللحن ، فقال : لا تغيروها ، فان العرب ستغيرها ، أو قال : ستقرؤها بألسنتها(٤٤) • ولو كان الكاتب من ثقيف والملى من هذيل لم توجد فيه هذه الحروف(٤٥) •

---

(٣٩) البقرة/٢٦٦ •

(٤٠) البقرة/٢٧٠ •

(٤١) البقرة/٦٨ •

(٤٢) البقرة/٢٨٥ •

(٤٣) التفسير الكبير للرازى جـ٢٢/٧٤ وتأويل مشكل القرآن لابن قتيبة تحقيق الاستاذ السيد صقر ص٣٦ •

(٤٤) روح المعانى للألوسى جـ١٦/٢٢٤ والتفسير الكبير للرازى جـ٢٢/٧٤ •

(٤٥) الاتقان فى علوم القرآن للسيوطى جـ٣/٢٦٩ ــ ٢٧٠ تحقيق محمد أبو الفضل •

(٢) وأخرج ابن الانبارى من طريق أبى بشر ، عن سعيد بن جبير، أنه كان يقرأ (والمقيمين الصلاة)[٤٦] • ويقول هو لحن من الكاتب[٤٧] .

(٣) روى عن عثمان رضى الله عنه أنه نظر فى المصحف فقال : أرى فيه لحنا وستقيمه العرب بألسنتها[٤٨] .

(٤) روى هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها أنها سئلت عن قوله تعالى (ان هذان لساحران)[٤٩] وعن قوله عز وجل : (ان الذين آمنوا والذين هادوا والصائبون والنصارى)[٥٠] وعن قوله جل ثناؤه (لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة)[٥١] فقالت : يا ابن أخى هذا خطأ من الكاتب[٥٢] .

(٥) وعن أبى ، وابن عباس ، وسعيد بن جبير أن قوله تعالى : (لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها)[٥٣] أصلها : (حتى تستأذنوا ، ولكن وقع خطأ أو وهم من الكاتب)[٥٤] .

(٦) روى أن أبا خالف مولى بنى جمح دخل ، مع عبيد بن عمير على عائشة رضى الله عنها ، فقال : جئت أسألك عن آية فى كتاب الله تعالى ، كيف كان رسول الله ﷺ يقرؤها ؟ قالت : أية آية ؟ قال :

---

(٤٦) النساء/١٦٢ .

(٤٧) الاتقان فى علوم القرآن جـ٣/٢٧٠ .

(٤٨) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص٣٦ والتفسير الكبير جـ٢٢/٧٤ .

(٤٩) طه/٦٣ .

(٥٠) المائدة/٩٤ .

(٥١) النساء/١٦٢ .

(٥٢) مفاتيح الغيب للرازى جـ٢٢/٧٤ ومعانى القرآن للفراء جـ١/١٠٦ .

(٥٣) النور/٢٧ .

(٥٤) جامع البيان جـ٢/٢١٣ — ٢١٤ والاتقان فى علوم القرآن للسيوطى جـ٢/٢٧٥ تحقيق محمد أبو الفضل .

(والذين يأتون ما أتوا) أو (الذين يؤتون ماءاتوا)[٥٥] وقالت : أيتهما أحب اليك ؟ قال : والذى نفسى بيده ، لأحداهما أحب من الدنيا جميعا . قالت : أيهما . قال : الذين يأتون ماأتوا . فقالت : أشهد أن رسول الله ﷺ كذلك كان يقرؤها وكذلك أنزلت ولكن الهجاء حرف[٥٦] .

(٧) وما أخرجه ابن الانبارى من طريق عكرمة ، عن ابن عباس أنه قرأ : (أفلم يتبين الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا) فقيل له : انها فى المصحف : (أفلم ييأس)[٥٧] ، فقال أظن الكاتب كتبها وهو ناعس[٥٨] . أى زاد بعض الحروف حتى صار ييئس[٥٩] .

(٨) وما أخرجه سعيد بن منصور ، من طريق سعيد بن جبير ، عن ابن عباس أنه كان يقول فى قوله تعالى (وقضى ربك)[٦٠] انما هى (ووصى ربك) التزقت الواو بالصاد .

وأخرجه ابن أشته ، بلفظ (استمد مدادا كثيرا فالتزقت الواو بالصاد)[٦١] .

(٩) قال ابن أشته : حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب حدثنا أبو داود ، حدثنا ابن الاسدد ، حدثنا يحيى بن آدم ، عن عبد الرحمن

---

(٥٥) المؤمنون/٦٠ .

(٥٦) الاتقان فى علوم القرآن للسيوطى ج٢/٢٧٥ تحقيق محمد أبو الفضل والتفسير الكبير للرازى ج١٩/٥٣ .

(٥٧) الرعد/٣١ .

(٥٨) الاتقان فى علوم القرآن للسيوطى ج٢/٢٧٥ تحقيق محمد أبو الفضل .

(٥٩) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ج٩/٣٢٠ .

(٦٠) الاسراء/٢٣ .

(٦١) الاتقان فى علوم القرآن تحقيق محمد أبو الفضل ج٢/٢٧٥ وينظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ج ١٠/٢٣٧ .

ابن أبى الزناد ، عن أبيــه ، عن خارجة بن زيد ، قال : قالوا ليزد : يا أبا سعيد ، أوهمت انما هى (ثمانية أزواج من الضأن اثنين اثنين ومن المعز اثنين اثنين ومن الابل اثنين اثنين ومن البقر اثنين اثنين)[٦٢] فقال : لأن الله تعالى يقول: (فجعل منه الزوجين الذكر والانثى)[٦٣] فهما زوجان ، كل واحد منهما زوج : الذكر زوج ، والانثى زوج[٦٤] .

(١٠) وما أخرجه ابن أشته وابن أبى حاتم من طريق عطاء ، عن ابن عباس فى قوله تعالى (مثل نوره كمشكاة)[٦٥] قال : هى خطأ من الكاتب هو أعظم من أن يكون نوره مثل نور المشكاة ، انما هى (مثل نور المؤمن كمشكاة)[٦٦] .

(١١) روى عكرمة عن ابن عباس أنه كان يقرأ (ضياة) بغير واو فى قوله تعالى (ولقد ءاتينا موسى وهارون الفرقان وضياء)[٦٧] ويقول : خذوا هذه الواو واجعلوها هنا (و) (الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم)[٦٨] .

---

(٦٢) النص فى المصحف العثمانى فى سورة الانعام ١٤٣ — ١٤٤ هكذا: (ثمانية أزواج من الضأن اثنين ، ومن المعز اثنين ، قل : آلذكرين حرم أم الانثيين أما اشتملت عليه أرحام الانثيين نبئونى بعلم ان كنتم صادقين ، ومن الابل اثنين ومن البقر اثنين قل ءالذكرين حرم أم الانثيين أما اشتملت عليه أرحام الانثيين ، أم كنتم شهداء اذ وصكم الله بهذا) .

(٦٣) القيامة/٣٩ .

(٦٤) الاتقان فى علوم القرآن تحقيق محمد أبو الفضل جـ٢/٢٧٧ والجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ٧/١١٢ .

(٦٥) النور/٣٥ .

(٦٦) الاتقان : تحقيق محمد أبو الفضل جـ٢/٢٧٦ .

(٦٧) الانبياء/٤٨ .

(٦٨) آل عمران/١٧٣ وفى المصحف العثمانى من غير واو .

وفى رواية كان ابن عباس يقول : انزعوا هذه الواو فاجعلوها فى : (الذين يحملون العرش ومن حوله)[٦٩] .

تفنيد الآثار السابقة :

وهذه الآثار مشكلة جدا ، وكيف يظن بالصحابة أولا أنهم يلحنون فى الكلام فضلا عن القرآن ، وهم الفصحاء اللذ ! .

ثم كيف يظن بهم ثانيا فى القرآن الذى تلقوه من النبى ﷺ كما أنزل ، وحفظوه وضبطوه وأتقنوه .

ثم كيف يظن بهم ثالثا اجتماعهم كلهم على الخطأ وكتابته ! .

ثم كيف يظن بهم رابعا عدم تنبههم ورجوعهم عنه ! .

ثم كيف يظن بعثمان أن ينهى عن تغييره .

ثم كيف يظن أن القراءة استمرت على مقتضى ذلك الخطأ ، وهو مروى بالتواتر خلفا عن سلف . هذا مما يستحيل عقلا وشرعا وعادة .

وقد أجاب العلماء عن ذلك بعدة أوجه :

احدهـــا :

ان ذلك لا يصح عن عثمان ، فاسناده ضعيف مضطرب منقطع ، ولأن عثمان جعل للناس اماما يقتدون به ، فكيف يرى فيه لحنا ويتركه لتقيمه العرب بألسنتها . فاذا كان الذين تولوا جمعه فى كتـــابته لم يقيموا ذلك وهم الخيار ، فكيف يقيمه غيرهم .

وأيضا فانه لم يكتب مصحفا واحدا ، بل كتب عدة مصاحف ، فان قيل : ان اللحن وقع فى جميعها ، فبعيد اتفاقها على ذلك ، أو فى بعضها فهو اعتراف بصحة البعض ، ولم يذكر أحد من الناس أن اللحن كان فى مصحف دون مصحف ، ولم تأت المصاحف قط مختلفة الا فيما هو من وجوه القراءة ، وليس ذلك بلحن[٧٠] .

---

(٦٩) غافر/٧ والسيوطى جـ٢/٢٧٦ والقرطبى جـ١١/٢٩٥ ، والتفسير الكبير جـ١٢/١٧٨ .

(٧٠) الاتقان فى علوم القرآن ـــ تحقيق محمد أبو الفضل جـ٢/٢٧٠ .

ثانيـــا :

ما زعموه من أنهم قد رووا عن عثمان أنه قد قال : ان فى المصحف لحنا وستقيمه العرب بألسنتها ، فهذا خبر باطل لا يصح من وجوه :

(أ) أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يتسارعون الى انكار أدنى المنكرات فكيف يقرون اللحن فى القرآن الكريم ، مع أنه لا كلفة عليهم فى ازالته .

(ب) أن العرب كانت تستقبح اللحن غاية الاستقباح فى الكلام ، فكيف لا يستقبحون بقاءه فى المصحف .

(جـ) أن الاحتجاج بأن العرب ستقيمه بألسنتها غير مستقيم ، لأن القرآن الكريم يقف عليه العربى والعجمى .

(د) أنه قد ثبت فى الصحيح أن زيد بن ثابت رضى الله عنه أراد أن يكتب (التابوت)[71] بالهاء على لغة الانصار فمنعوه من ذلك ، ورفعوه الى عثمان رضى الله عنه ، وأمرهم أن يكتبوه بالتاء على لغة قريش[72] .

(هـ) ولما بلغ عمر رضى الله عنه أن ابن مسعود رضى الله عنه قرأ (حتى حين)[73] على لغة هذيل أنكر ذلك وقال : أقرىء الناس بلغة قريش فان الله تبارك وتعالى انما أنزله بلغتهم ، ولم ينزله بلغة هذيل .

ثالثـــا :

الحديث عن عثمان — رضى الله عنه — انما رواه قتادة مرسلا ، ولعل من أرسله ممن لا يقبل خبره ولا يلتفت اليه ، ولو كان الخبر صحيحا وسلم من الاضطراب الذى هو ثابت فيه لم يجب القطع به والعمل عليه .

---

(٧١) البقرة/٢٤٨ .

(٧٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ١١/٢١٦ .

(٧٣) يوسف/٣٥ .

والرواية المسندة عن قتادة فى هذا عن نصر بن عاصم عن عبد الله ابن فطيمة عن يحيى بن عمر قال عثمان : فى القرآن لحن تقيمه العرب بألسنتها « وهو فى غاية الاضطراب والضعف ، وابن فطيمة هذا مجهول خامل الذكر لا يقبل خبره »(٧٤) .

رابعـــا :

يحتمل أن يكون قصد بقوله : ان فيه لحنا عند من توهم ذلك وخفى عليه وجه اعرابه وأراد : « ولتقيمه العرب بألسنتها » بمحتجين عليه ولتظهر به .

والذى يعتمد عليه فى قول عثمـــان رضى الله عنه أن القصـــد به ما وجد فيه من حذف الكاتب واختصاره فى مواضع ، وزيادته فى مواضع، وأن الكاتب لو كتبه على صورة اللفظ ومخرجه لكان أولى وأنفى للشبهة مثل كتبهم : الصلاة والزكاة (الصلوة والزكوة) بالواو ، وكان الاولى أن تكتب على اللفظ مثل (ابراهيم واسماعيل) وما أشبه ذلك مما حذف فيه الالف وهو ثابت فى اللفظ ، ونحو الحاقهم فى آخر الكلمة فى قالوا وقاموا ألفا ، وهو غير بين فى اللفظ .

ويدل على صحة هذا التأويل أن عكرمة قال : لما كتبت المصحف عرضت على عثمان فوجد فيه حروفا من اللحن فقال : لا تغيروها فان العرب ستقيمها بألسنتها ، فلو كان الكاتب من ثقيف والملى من هذيل لم توجد فيه هذه الحروف ، وانما قصد بذلك أن ثقيفا كانت أبصر بالهجاء ، ولأن هذيلا تظهر الهمز فى ألفاظها والهمزة اذا ظهرت فى لفظ الملى كتبها الكاتب على مخرج اللفظ ولذلك قال عثمان رضى الله عنه : لا تمكن مصاحفنا ولا يكتبها الا غلمان قريش(٧٥) .

---

(٧٤) نكت الانتصار لنقل القرآن للباقلانى ص١٢٧ وتأويل مشـــكل القرآن لابن قتيبة ص٤١ .

(٧٥) روح المعانى للألوسى ج١٧/٢٢٤ .

وهذا أيضا لا يصح عن عثمان رضى الله عنه ، واسناده ضعيف مضطرب منقطع . وقد يقال : انه أراد باللحن اللغة ، كما قال ذلك ابن اشته فى قول ابن جبير المروى عنه بطرق فى (والمقيمين الصلاة) فهو لحن من الكاتب ، أو يقال : أراد به اللحن بحسب بادى الرأى[٧٦] .

وعلى ضوء ما سبق يمكن أن نقول ان ما روى عن عثمان رضى الله عنه مؤول على أشياء خالف لفظها رسمها ، كما كتبوا « لا أوضعوا »[٧٧] و (لا أذبحنه)[٧٨] بألف بعد لا . و (جزاؤا الظالمين)[٧٩] بواو وألف و (بأييد)[٨٠] بيائين ، فلو قرى بظاهر الخط لكان لحنا .

خامســا :

قال ابن الانبارى فى كتاب « الرد على من خالف مصحف عثمان » فى الاحاديث المروية عن عثمان فى ذلك : لا تقوم بها حجة ، لأنها منقطعة غير متصلة ، وما يشهد عقل بأن عثمان وهو امام الامة الذى هو امام الناس فى وقته وقدوتهم ، يجمعهم على المصحف الذى هو الامام فيتبين فيه خللا ، ويشاهد فى خطه زللا فلا يصلحه . كلا والله ما يتوهم عليه هذا ذو انصاف وتمييز ، ولا يعتقد أنه أخر الخطأ فى الكتاب ليصلحه من بعده ، وسبيل الجائين البناء على رسمه والوقوف عند حكمه .

ومن زعم أن عثمان رضى الله عنه أراد بقوله : (أرى فيه لحنا) أرى فى خطه لحنا اذا أقمناه بألسنتنا كان لحن الخط غير مفسد ولا محرف من جهة تحريف الالفاظ وافساد الاعراب ، فقد أبطل ولم يغيب ، لأن الخط منبىء عن النطق ، فمن لحن فى كتبه فهو لاحن فى نطقه ، ولم يكن عثمان رضى الله عنه ليؤخر فسادا فى هجاء ألفاظ القرآن من جهة كتب

---

(٧٦) السابق : روح المعانى للألوسى ج١٧/٢٢٥ .

(٧٧) التوبة/٤٧ .

(٧٨) النمل/٢٧ .

(٧٩) المائدة/٢٩ .

(٨٠) البقرة/٢٠٩ .

ولا نطق ، ومعلوم أنه كان مواصلا لدرس القــرآن متقنا لألفاظه ، موافقا على ما رسم فى المصاحف المنفذة الى الامصار والنواحى .

ويؤيد ذلك ما أخرجه أبو عبيد قال : حدثنا عبد الرحمن بن مهدى، عن عبد الله بن مبارك ، حدثنا أبو وائل ، شيخ من أهل اليمن ، عن هانىء البربرى مولى عثمان ، قال : كنت عند عثمان ، وهم يعرضون المصاحف فأرسلنى بكتف شـــاة الى أبى بن كعب فيها (لم يتسن)[٨١] وفيها (لا تبديل للخلق الله)[٨٢] وفيها (فأمهل الكافرين)[٨٣] قال : فدعا بالدواة فمحا أحد اللامين ، فكتب (لخلق الله) ومحا (فأمهل) وكتب (نمهل) وكتب (لم يتسنه) ألحق فيها الهاء[٨٤] .

قال ابن الانبارى : فكيف يدعى عليه أنه رأى فسادا فأمضاه وهو يوقف على ما كتب ، ويرفع الخلاف اليه الواقع من الناسخين ليحكـم بالحق ، ويلزمهم اثبات الصواب وتخليده[٨٥] .

ويؤيد هذا أيضا ما روى عن ســوار بن شبيب ، قال : سألت بن الزبير عن المصاحف ، فقال : قام رجل الى عمر ، ، فقال : ياأمير المؤمنين ، ان الناس قد اختلفوا فى القرآن ، فكان عمر قد هم أن يجمع القرآن على قراءة واحدة ، فطعن طعنته التى مات بها ، فلما كان فى خلافة عثمان قاله ذلك الرجل ، فذكر له ، فجمع عثمان المصاحف ، ثم بعثنى الى عائشة فجئت بالصحف فعرضناها عليها حتى قومناها ، ثم أمر بسائرها فشققت ، فهذا يدل على أنهم ضبطوها وأتقنوها ، ولم يتركوا فيها ما يحتاج الى اصلاح ولا تقويم .

والذى أجنح اليه ــ والعاصم هو الله تعالى ــ تضعيف جميـع

---

(٨١) البقرة/٢٠٩ . (٨٢) الروم/٣٠ .

(٨٣) الطارق/١٧ .

(٨٤) الاتقان فى علوم القرآن ــ تحقيق محمد أبو الفضل جـ٢/٢٧١ .

(٨٥) السابق : الاتقان جـ٢/٢٧٢ .

ما ورد مما فيه طعن ولم يقبل تأويلا ينشرح له الصدر ، ويقبله الذوق. والطعن فى الرواة أهون بكثير من الطعن بالأئمة الذين تلقوا القرآن أو السنة المتواترة ، أو الاجماع القطعى ، أو صريح العقل حيث لا يقبل شيء من ذلك التأويل ، أو لم يحتمل سقوط شيء منه يزول به المحذور، فلو قال قائل بوضع تلك الأخبار لم يبعد والله تعالى أعلم .

وأما ما روى عن عائشة رضى الله عنها فى تلك الحروف أنها من غلط الكاتب ، فهو أيضا فى غاية الضعف والاضطراب ، ولو صح لكان خبرا واحدا ، لا يوجب العلم ، ولو صحت الرواية بذلك وتبينت فيكون عثمان رضى الله عنه انما أراد أن فى القرآن لحنا على لغة بعض العرب لا يتكلمون بتلك الكلمات ويعتقد أنها لحن ، وأنها لم تنزل كذلك .

ولا يجوز لذى دين ان يعتقد أن عائشة رضى الله عنها كانت تلحن الصحابة ، وتخطيء كتبة المصاحف ، والأشبه فيما روى عنها وغيرها ان صح وسلم سنده أن يكونوا قالوا : ان الوجه الظاهر المعروف فى هذه الحروف غير ما جاء به المصحف وان استعماله على ذلك الوجه غامض أو غلط عند كثير من الناس ، ولحن عند من لا يعرف الوجه فيه، فلم تضبط هذه الرواية عنهم ، ولم يسمعوا تمامه ، ولم يوردوه على وجهه لسواهم ، وأما أن يقطع عثمان وعائشة رضى الله عنهما أن فى القرآن لحنا وغلطا فذلك باطل[٨٦] .

وأما قول سعيد بن جبير : لحن من الكاتب ، فيعنى باللحن القراءه واللغة ، يعنى أنها لغة الذى كتبها وقراءته ، وفيها قراءة أخرى[٨٧] .
وفيما يلى نتناول بعونه تعـالى الآيات الكريمة التى زعم الملحدون والمعرضون أن فيها لحنا :

---

(٨٦) نكت الانتصار للباقلانى ص١٢٧ .

(٨٧) الاتقان فى علوم القرآن للسيوطى تحقيق محمـد أبو الفضل جـ٢/٢٧٣ .

١ — وأما قوله تعالى (قالوا ان هذان لسحران)[٨٨] فان من القراء من ترك هذه القراءة المشهورة وذكروا وجوها آخر :

أحدها : قرأ أبو عمرو وعيسى بن عمر (ان هذين لساحران) ، قالوا : هى قراءة عثمان وعائشة وابن الزبير وسعيد بن جبير ، والحسن رضى الله تعالى عنهم[٨٩] .

وهذه القراءة موافقة للاعراب مخالفة للمصحف فانه مكتــوب بالألف[٩٠] . وعن أبى عمرو أنه قال : انى لأستحى أن أقرأ (ان هذان لساحران) .

ثانيا : قرأ ابن كثير ، وعاصم فى رواية حفص عنه ، والزهرى والخليل ابن أحمد وابن محيصن : (ان هذان) بتخفيف (ان) وتشديد نون هذان . وابن كثير يشدد نون (هذان)[٩١] .

وهذه القراءة سلمت من مخالفة المصحف ومن فساد الاعراب ، ويكون معناها : ما هذان الا ساحران[٩٢] .

ثالثا : قرأ عبد الله بن مسعود (أن هذان ساحران) بفتح الألف وجزم نونه وساحران بغير لام[٩٣] .

وقال القرطبى : روى عن عبد الله بن مسعود أنه قرأ (ان هذان الا ساحران) .

وقال الكسائى : فى قراءة عبـــد الله : (ان هذان ســـاحران) بغير لام[٩٤] .

---

(٨٨) طه/٦٣ .
(٨٩) التفسير الكبير للرازى ج٢٢ .
(٩٠) فتح القدير للشوكانى ج٣/٣٧٣ .
(٩١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ج١٢/٢١٦ وفتح القدير للشوكانى ج٣/٣٧٣ .
(٩٢) التفسير الكبير ج٢٢/٧٤ .
(٩٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ج١٢/٢١٦ .
(٩٤) السابق : ج١٢/٢١٦ .

وقرأ المدنيون والكوفيون : (ان هذان) بتشديد (ان) (لساحران) فوافقوا المصحف وخالفوا الاعراب[٩٥] •

رابعا : قرأ الاخفش (ان هذان لساحران) خفيفـــة فى معنى ثقيلة ، وهى لغة قوم يرفعون بها ويدخلون اللام ليفرقوا بينها وبين التى فى معنى ما •

خامسا : روى عن أبى بن كعب (ما هذان الا ساحران) • وروى عنه أيضا (ان هذان لساحران)• وعن ابى أيضا (ان ذا لساحران)[٩٦]•

موقفنا من القراءة الشاذة السابقة لقوله تعالى (ان هذان لسحران) :

والذى تطمئن اليه النفس وينشرح له الصدر ما قاله الامام الرازى أن : (هذه القراءات لا يجوز تصحيحها ، لأنها منقولة بطريق الآحاد والقرآن يجب أن يكون منقولا بالتواتر ، اذ لو جوزنا اثبات زيادة فى القرآن بطريق الآحاد لما أمكننا القطع بأن هذا الذى هو عندنا كل القرآن، لأنه لما جاز فى هذه القراءات أنها مع كونها من القرآن ما نقلت بالتواتر جاز فى غيرها ذلك ، فثبت أن تجويز كون هذه القراءات من القرآن بطريق جواز الزيادة والنقصان والتغيير الى القرآن ، وذلك يخـــرج القرآن عن كونه حجة ، ولما كان ذلك باطلا ، فكذلك ما أدى اليه)[٩٧] •

وأما الطعن فى القراءة المشهورة فهو أسوأ دما تقدم من وجوه :

أحدها : أنه لما كان نقل هذه القراءة فى الشهرة كنقل القرآن ، فلو حكمنا ببطلانها جاز مثله فى جميع القرآن ، وذلك يفضى الى القدح فى التواتر ، والى القدح فى كل القرآن وأنه باطل •

واذا ثبت ذلك امتنع صيرورته معارضا بخبر الواحد المنقـــول عن بعض الصحابة •

(٩٥ ، ٩٦) التفسير الكبير للرازى ج٢٢/٧٥ .

(٩٧) التفسير الكبير للرازى ج٢٢/٧٥ .

وثانيها : أن المسلمين أجمعوا على أن ما بين الدفتين كلام الله تعالى ، وكلام الله تعالى لا يجوز أن يكون لحنا وغلطا فثبت فساد ما نقل عن عثمان وعائشة رضى الله تعالى عنهما أن فيه لحنا وغلطا .

وثالثها : أن الصحابة هم الأئمة والقدوة فلو وجدوا فى المصحف لحنا لما فوضوا اصلاحه الى غيرهم من بعدهم مع تحذيرهم من الابتداع وترغيبهم فى اتباع ، حتى قال بعضهم : اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم. فثبت أنه لابد من تصحيح القراءة المشهورة ، وهذا ما سنبينه فيما يلى ان شاء الله تعالى :

آراء العلماء فى القراءة المشهورة لقوله تعالى (أن هذان لساحران) :

اختلف النحويون فى تلك القراءة على عدة أقوال :

- أنها لغة بلحارث بن كعب ومراد وخثعم ... الخ .
- وقيل ان (ان) بمعنى نعم هاهنا .
- قال الفراء : (هذا) أصله ذا ... الخ .
- وقيل أن الهاء مقدرة أى (انه هذان لساحران) فالهاء ضمير الشأن .
- وقيل ان (ان) ملغاة وان كانت مشددة .

وفيما يلى بيان تلك الاقوال :

١ — القول الاول :

أنها لغة بلحارث بن كعب ، ونسبها الزجاج الى كنانه ، ونسبها قطرب الى بلحارث بن كعب ومراد وخثعم وبعض بنى عذرة ، ونسبها ابن جنى الى بعض بنى ربيعة أيضا[٩٨] . يجعلون رفع المثنى ونصبه وخفضـــه بالألف دائما ، يقولون : (جاء الزيدان ومررت بالزيدان ،

---

(٩٨) التفسير الكبير للرازى ج٢٢/٧٥ .

ومررت برجلان ، وقبضت منه درهمان ، وجلست بين يداه وركبت علاه) بمعنى يديه وعليه[99] .

ومنه قوله تعالى (ولا أدراكم به)[100] .

وأنشد الفراء لرجل من بنى أسد[101] قال : وما رأيت أفصح منه:

فأطرق اطراق الشجاع ولو يرى
مساغا لناباه الشجاع لصمما[102]

---

(٩٩) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ١١/٢١٧ والحجة لابن خالويه ص٩٦ ومعانى القرآن للفراء جـ٢/١٨٣ — ١٨٤ وهمع الهوامع جـ١/٤١ والبحر المحيط جـ٦/٢٥٥ والكشاف جـ٢/٣٠٦ .

(١٠٠) قرأ ابن عباس والحسن (ولا أدرأتكم به) بتحويل الياء ألفا ، قال أبو حاتم : يريد الحسن فيما أحسب (ولا أدرأتكم به) فأبدل من الياء ألفا على لغة بنى الحارث بن كعب ، يبدلون من الياء ألفا اذا انفتح ما قبلها ، مثل (ان هذان لسحران) .

قال الفراء : ولعل الحسن ذهب الى طبيعته وفصاحته فهمزها . لأنها تضارع ورأت الحد وشبهه . وربما غلطت العرب فى الحرف اذا ضارعه آخر من الهمز فيهمزون غير المهموز ، سمعت امرأة من طىء تقول : (رثأت زوجى بأبيات ويقولون : لبأت بالحج وحلأت السويق) فيغلطون ، لأن حلات قد يقال فى رفع العطاش من الابل ، ولبأت ذهبت اللبأ — أول اللبن عند الولادة — الذى يؤكل ، ورثأت زوجى ذهبت الى رثيئة اللبن وذلك اذا حلبت الحليب على الرائب (معانى القرآن للفراء جـ١/٤٥٩) .

وقرأ ابن كثير : (ولا أدراكم به) بغير ألف بين اللام والهمزة والمعنى : لو شاء الله لأعلمكم به من غير أن أتلوه عليكم ، فهى لام التأكيد دخلت على ألف أفعل .

ينظر الكشاف جـ٢/٢٢٩ وشواذ القراءات ص٥٦ ومعانى القرآن للفراء جـ١/٤٥٩ .

(١٠١) هو المتلمس كما فى اللسان .

(١٠٢) صمم الشجاع : فى عضته ، أى عض ونيب فلم يرسل ما عض. والشجاع : الذكر من الحيات . معانى القرآن للفراء جـ٢/١٨٤ .

وأنشد شاعرهم[١٠٣] :

تزود منا بين أذناه ضربة　　دعته الى هابى التراب[١٠٤] عقيم

أى موضع كثير التراب لا ينبت ، وأنشدوا :

أى قلوص راكب تراها　　طاروا علاهن فطر علاها

أى عليهن وعليها .

وقال آخر :

ان أباها وأبا أباها　　قد بلغا فى المجد غايتاها

أى ان أبا أبيها وغايتيها .

وقال قطرب : هؤلاء يقولون : (رأيت رجلان ، واشتريت ثوبان) .

قال رجل من بنى منبه جاهلى :

أعرف منها الجيد والعينانا　　ومنخرين أشبها ظبيانا

وقوله : (ومنخرين) على اللغة الفاشية ، وما وراء ذلك على لغة هؤلاء .

وقال آخر :

طاروا علاهن فطر علاها　　وأشدد بمثنى حقب حقواها

وقال آخر .

كأن صريف ناباه اذا ما　　أمرهما صرير والاخطبان[١٠٥]

قال بعضهم : الاخطبان : ذكر الصردان ، فصيرهما واحدا فبقى الاستدلال بقوله : صريف ناباه .

وقال بعض بنى الحرث :

---

(١٠٣) البيت لهوبر الحارثى كما فى اللسان ج ٦٤/١٠ و ج١٦٣/١٩ ، و ج ٢٢٦/٢٠ وفى كل هذه المواضع ورد بلفظ (بين أذنيه) .

(١٠٤) الهابى من التراب : ما ارتفع ورق .

(١٠٥) التفسير الكبير للرازى ج٧٥/٢٢ .

كأن يمينـــا سحبل ومصيفه   مراق دم لنا يبرح الدهر ثاويا

وقال ابن جنى روينا عن قطرب :

هنـــاك أن تبكـــى بشعشان   رحب الفؤاد طائل اليـــدان

قال الفراء : وذلك وان كان قليلا أقيس ، لأن ما قبل حرف التثنية مفتوح ، فينبغى أن يكون ما بعده ألفا ، ولو كان ما بعده ياء ينبغى أن تنقلب ألفا لانفتاح ما قبلها .

وذكر قطرب أنهم يفعلون ذلك فرارا الى الألف التى هى أخف حروف المد .

ويمكن أن يقال أيضا الألف فى هذا من جوهر الكلمة والحـــرف الذى يكون من جوهر الكلمة لا يجوز تغييره بسبب التثنية والجمع ، لأن ما بالذات ، لا يزول بالعرض ، فهذا الدليل يقتضى أن يجوز أن يقال : (ان هذين) فلما جوزتاه فلا أقل من أن يجوز معه أن يقال : ان هذان(١٠٦) .

وهذا الوجه أقوى الوجوه المذكورة فى الآية الكريمة ، وقد جاءت الآية الكريمة على لغة بلحارث بن كعب وكنانه وخثعم وزبيد ومراد وعذرة وبنى العنبر وبنى الهجيم الذين يلزمون المثنى الألف دائما(١٠٧) .

قال أبو جعفر النحاسى : وهذا القول من أحسن ما حملت عليه الآية ، اذ كانت هذه اللغة معروفة ، وقد حكاها من يرتضى بعلمه وأمانته منهم أبو زيد الانصارى ، وهو الذى يقول : اذا قال سيبويه حدثنى

---

(١٠٦) مفاتيح الغيب للرازى جـ٢٢/٧٦ معانى القرآن للفراء جـ٢/١٨٤ .

(١٠٧) الاشمونى جـ١/٥٩ ومشكل اعراب القرآن جـ٢/٦٩ والقرطبى جـ١١/٢١٦ وتفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ٣/١٥٧ .

من أثق به فانما يعنينى ، وأبو الخطاب الاخفس ، وهو رئيس من رؤساء اللغة ، والكسائى والفراء ، كلهم قالوا : هذا على لغة بنى الحارث بن كعب .

قال النحاس : ومن أبين ما فى هذا قول سيبويه : واعلم انك اذا ثنيت الواحد زدت عليه زائدين : الاولى منهما حرف مسدولين وهو حرف الاعراب ، قال أبو جعفر فقول سيبويه : وهو حرف الاعراب ، يوجب أن الاصل ألا يتغير ، فيكون ، (ان هذان) جاء على أصله ليعلم ذلك ، وقد قال الله تعالى (استحوذ عليهم الشيطان)(١٠٨) ولم يقل استحاذ ، فجاء هذا ليدل على الاصل ، وكذلك (ان هذان) ولا يفكر فى انكار من أنكر هذه اللغة ، اذ كان الأئمة قد رووها(١٠٩) .

٢ ـ القول الثانى :

أن تكون (ان) بمعنى نعم ، كما حكى الكسائى عن عاصم قال : العرب تأتى بـ (ان) بمعنى نعم . مثلها فيما حكى أن رجلا سأل ابن الزبير شيئا فلم يعطه ، فقال (لعن الله ناقة حملتنى اليك) فقال : (ان وراكبها) أى نعم ، ولعن الله راكبها(١١٠) .

وان التى بمعنى (نعم) لا تعمل شيئا ، كما أن (نعم) كذلك ، و (هذان) : مبتدأ مرفوع بالألف . و (ساحران) خبر لمبتدأ محذوف أى بهما ساحران ، والجملة خبر (هذان) ، ولا يكون (الساحران) خبر (هذان) ، لأن لام الابتداء لا تدخل على خبر المبتدأ .

وحكى سيبويه أن (ان) تأتى بمعنى (أجل) ، والى هذا القول كان محمد بن يزيد ، واسماعيل بن اسحاق القاضى يذهبان .

---

(١٠٨) المجادلة/١٩ .

(١٠٩) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ج١١/٢١٧ ـ ٢١٨ .

(١١٠) روح المعانى للألوسى ج٢٢٢/١٦ وفتح القدير للشوكانى ج٣٧٣/٣ .

قال النحاس : ورأيت أبا اسحق الزجاج وعلى بن سليمان يذهبان اليه .

يقول القرطبى : حدثنا على بن سليمان ، قال : حدثنا عبد الله ابن أحمد بن أحمد بن عبد السلام النيسابورى ، ثم لقيت عبد الله بن أحمد هذا فحدثنى قال : حدثنى عمير بن المتوكل ، قال حدثنا محمد ابن موسى النوفلى من ولد حرث بن عبد المطلب ، قال حدثنا عمر بن جميع الكوفى عن جعفر بن محمد عن أبيه عن على -- وهو ابن الحسين -- عن أبيه على بن أبى طالب رضوان الله عليهم أجمعين ، قال : (لا أحصى كم سمعت رسول الله ﷺ يقـول على منبره : « ان الحمد لله نحمده ونستعينه » ثم يقول « أنا أفصح قريش كلها وأفصحها بعدى ابان بن سعيد ابن العاص » .

قال أبو محمد الخفاف قال عمير : اعرابه عند أهل العربية والنحو :

(ان الحمد لله) بالنصب ، الا أن العرب تجعل (ان) فى معنى (نعم) ، كأنه أراد ﷺ : نعم الحمد لله ، وذلك أن خطباء الجاهلية كانت تفتتح فى خطبها بنعم .

وقال الشاعر فى معنى (نعم) :

قالوا غدرت فقلت ان وربمـا   نال العلا وشفى الغليل الغادر

وقال عبد الله بن قيس الرقيات :

بكـر العواذل فى الصـبا   ح يلمننـى وألومهنـه

ويقـلن شـيب قـد عـلا   ك وقـد كبـرت فقلت انه

أى فقلت : نعم ، فالهاء فى (انه) هاء السكت ، كما فى قوله تعـالى : (هلك عنى سلطانيه)[111] .

---

(١١١) سورة الحاقة/٢٩ .

وعلى هذا فانه يجوز أن يكـون قول الله عز وجل (ان هذان لساحران) بمعنى نعم ، ولا تنصب[112] .

قال النحاس : أنشدنى داود بن الهيثم ، قال أنشدنى ثعلب :

ليت شعرى هل للمحب شفاء ... من جوى حبهن ان اللقاء[113]

وقال أبو ذؤيب :

شـدب المفـارق ان من البلى ... شيب القذال مع العذار الواصل

أى نعم ان من البلى .

وأورد على ذلك أن (الـلام) لا تدخـل على الخبـر — على الاستحسان — الا اذا كانت داخلة فى المبتدأ ، فأما اذا لم تدخل ان على المبتدأ فمحل اللام المبتدأ ، اذ يقال : « لزيد أعلم من عمرو » .

وأجيب عن هذا الاعتراض بوجهين :

الوجه الاول :

لا نسلم أن اللام لا يحسن دخولها على الخبر والدليل عليه قول الشاعر :

أم الحليس لعجـوز شهربة ... ترضى من اللحم بعظـم البقرة

أى لخالى ولأم الحليس .

وقال الزجاج والمعنى فى الآية : ان هذان لهما ساحران ثم حذف المبتدأ .

وقال آخر :

خالـى لأنت ومن جريـر خاله ... نيـل العلاء ويكـرم الاخوالا

---

(١١٢) روح المعانى للألوسى ج١٦/٢٢٢ .

(١١٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ج١١/٢١٨ والبحر المحيـط ج٢/٢٥٥ .

وأنشد قطرب :

ألم تكن حلفت بالله العلى أن عطاياك لمن خير العطايا

وأيضا فقد دخلت اللام فى خبر أمسى ، قال ابن جنى أنشدنا أبو على :

مروا عجالى فقالوا : كيف صاحبكم

فقال من سئلوا أمسى لمجهود

وقال قطرب : سمعنا بعض العرب يقول :

(أراك المسالى وانى رأيته لشيخا ، وزيد — والله — لواثق بك) .

وقال كثير :

ومازلت من ليلى لدن أن عرفتها لكالهائم المقصى بكل بلاد

وقال آخر :

ولكننى من حبها لعمير(١١٤)

وأورد على ذلك أن هذه الاشعار (من الشواذ وانما جاءت كذا لضرورة الشعر ، وجل كلام الله تعالى عن الضرورة) .

وانما تقرر هذا الكلام اذا بينا أن المبتدأ اذا لم يدخل عليه ان وجل ادخال اللام عليه ، لا على الخبر . وتحقيقه أن اللام تفيد تأكيد موصوفية المبتدأ بالخبر ، واللام تدل على حالة من حالات المبتدأ وصفة من صفاته ، فوجب دخولها على المبتدأ ، لأن العلة الموجبة لحكم فى محل لابد ، وأن تكون مختصة بذلك المحل .

لا يقال هذا مشكل بما اذا دخلت ان على المبتدأ ، فان هاهنا يجب ادخال اللام على الخبر مع أن ما ذكرتموه حاصل فيه ، لأنا نقول : ذلك لأجل الضرورة ، وذلك لأن كلمة ان للتأكيد واللام للتأكيد ، فلو قلنا:

---

(١١٤) التفسير الكبير للرازى جـ٢٢/٧٦ — ٧٧ .

(ان لزيدا قائم) فكأننا قد أدخلنا حرف التأكيد على حرف التأكيد وذلك ممتنع ، فلما تعذر ادخالها على المبتدأ لا جرم ادخلناها على الخبر لهذه الضرورة .

وأما اذا لم يدخل حرف (ان) على المبتدأ كانت هذه الضرورة زائلة، فوجب ادخال اللام على المبتدأ .

وأورد على ذلك قولهم : اذا جاز ادخال حرف النفى على حرف النفى فى قوله :

ما ان رأيت ولا سمعت به كاليوم طالبنى أنيق أجرب

والغرض به تأكيد النفى ، فلم لا يجوز ادخال حرف التأكيد على حرف التأكيد والغرض به تأكيد الاثبات .

ورد عليهم بأنا نقول : الفرق بين البابين : أن قولك (زيد قائم) يدل على الحكم بموصوفية زيد بالقيام ، فاذا قلت : (ان زيدا قائم) فكلمة (ان) تفيد تأكيد ذلك الحكم ، فلو ذكرت مؤكدا آخر مع كلمة (ان) صار عبثا . أما لو قلت : (رأيت فلانا) فهذا للثبوت فاذا أدخلت عليه حرف النفى أفاد حرف النفى معنى النفى ، ولا يفيد التأكيد ، لأنه مستقل بافادة الاصل فكيف يفيد الزيادة ؟ اذا ضممت اليه حرف نفى آخر صار الحرف الثانى مؤكدا للأول فلا يكون عبثا . فهذا هو الفرق بين البابين . فهذا منتهى تقرير هذا الاعتراض وهو عندى ضعيف ، لأن الكل اتفقوا على أنه اذا اجتمع النقل والقياس فالنقل أولى ، ولأن هذه العلل فى نهاية الضعف ، فكيف يدفع بها النقل الظاهر(١١٥) .

الوجه الثانى :

فى الجواب عن قولهم : اللام لا يحسن دخولها على الخبر الا اذا

---

(١١٥) التفسير الكبير للرازى جـ٢٢/٧٧ .

دخلت كلمة (ان) على المبتدأ — • قال الزجاج : ان وقعت موقع نعم ، واللام فى موقعها ، والتقدير : (نعم هذان لهما ساحران) فكانت اللام داخلة على المبتدأ لا على الخبر •

وقال ابن جنى : هذا القول غير صحيح لعدة أمور هى :

(أ) أن الاصل أن المبتدأ انما يجوز حذفه لو كان أمرا معلوما جليا ولو ذلك لكان فى حذفه مع الجهل به ضرب من تكليف علم الغيب للمخاطب ، واذا كان معروفا فقد استغنى بمعرفته عن تأكيده باللام لأن التأكيد انما يحتاج اليه حيث لم يكن العلم به حاصلا •

(ب) أن الحذف من باب الاختصار ، والتأكيد من باب الاطناب ، فالجمع بينهما غير جائز ، ولأن ذكر المؤكد وحذف التأكيد أحسن فى العقول من العكس •

(ج) ذهب البصريون الى أنه لا يجوز تأكيد الضمير المحذوف العائد على المبتدأ فى نحو تلك : (زيد ضربت) ، فلا يجيزون (زيد ضربت نفسه) على أن يجعل النفس توكيدا للهاء المؤكدة المقدرة فى ضربت ، أى ضربته ، لأن الحذف لا يكون الا بعد التحقيق والعلم به واذا كان كذلك فقد استغنى عن تأكيده ، فكذا هاهنا •

(د) أن جميع النحويين حملوا قول الشاعر :

أم الحليس لعجوز شهربة

على أن الشاعر أدخل اللام على الخبر ضرورة ، ولو كان ما ذهب اليه الزجاج جائزا لما عدل عنه النحويون ، ولما حملوا الكلام عليه على الاضطرار اذا وجدوا له وجها ظاهرا[116] •

قال الرازى : ويمكن الجواب عن اعتراض ابن جنى بأنه انما حسن حذف المبتدأ ، لأن فى اللفظ ما يدل عليه ، وهو قوله (هذان) أما لو حذف

---

(116) التفسير الكبير للرازى ج٢٢/٧٧ — ٧٨ •

التأكيد فليس فى اللفظ ما يدل عليه ، فلا جرام كان حذف المبتدأ أولى من حذف التأكيد .

وأما امتناعهم من تأكيد الضمير فى قولهم : (زيد ضربت نفسه) فذاك انما كان اسناد الفعل الى المظهر واسناده الى المضمر ، فاذا قال: « زيد ضربت نفسه » كان قول « نفسه » مفعولا ، فلا يمكن جعله تأكيدا للضمير ، فتأكيد المحذوف انما امتنع هاهنا لهذه العلة ، لأن تأكيد المحذوف مطلقا ممتنع .

وأما قوله : النحويون حملوا قول الشاعر :

أم الحليس لعجوز شهربة

على أن الشاعر أدخل اللام على الخبر ضرورة ، فلو جاز ما قاله الزجاج لما عدل عنه النحويون ، فهذا اعتراض فى نهاية السقوط ، لأن ذهول المتقدمين عن هذا الوجه لا يقتضى كونه باطلا ، فما أكثر ما ذهل المتقدم عنه وأدركه المتأخر[117] .

٣ ــ القول الثالث :

قال الفراء : (هذا) أصلهِ (ذا) زيدت الهاء ، لأن (ذا) كلمة منقوصة، فكملت بالهاء عند التنبيه ، وزيدت ألفا للتثنية فصارت (هذا ان) فاجتمع ساكنان من جنس واحد ، فاحتج الى حذف واحد ، ولا يمكن حذف ألف الاصل ، لأن أصل الكلمة منقوصة فلا تجعل أنقص ، فحذف ألف التثنية ، لأن النون يدل عليه ، فلا جرم لم تعمل (ان) لأن عملها فى ألف التثنية .

وقال آخرون : الألف الباقى أما ألف الاصل أو ألف التثنية : فان كان الباقى ألف الاصل لم يجز حذفها ، لأن العامل الخارجى لا يتصرف فى ذات الكلمة .

---

(١١٧) مفاتيح الغيب للرازى ج٢٢/٧٨ .

وان كان الباقى ألف التثنية ، فلاشك أنهم أنابوها مناب ألف الاصل وعوض الاصل أصل لا محالة ، فهذا الاصل أصل فلا يجوز حذفه . ويرجع حاصل الجواب الى الاول[118] .

وقال الفراء ـ أيضا ـ فى معانى القرآن[119] : وجدت الألف من هذا دعامة وليست بلام فعل ، فلما ثنيت زدت عليها نونا ، ثم تركت الألف ثابتة على حالها لا تزول على كل حال ، كما قالت العرب (الذى) ثم زادوا نونا تدل على الجمع فقالوا (الذين) فى رفعهم ونصبهم وخفضهم ، كما تركوا (هذان) فى رفعه ونصبه وخفضه ، وكنانه يقولون (اللذون) .

٤ ـ القول الرابع :

أن الاصل : (انه هذان لساحران) فالهاء ضمير الشأن ، وما بعدها مبتدأ وخبر ، والجملة فى موضع رفع على أنها خبر (ان) ، ثم حذف المبتدأ ، وهو كثير ، وحذف ضمير الشأن كما حذف من قول النبىﷺ: « ان من أشد الناس عذابا يوم القيامة المصورون »[120] فلا يجوز أن تكون (ان) فى هذا الحديث الشريف عاملة النصب والرفع فى المذكور من الكلام على أية لغة من لغات العرب ، اذ لو كانت عاملة فى المذكور ، لكانت الرواية : « ان من أشد الناس عذابا يوم القيامة المصورين » ، على أن يكون قوله «المصورين» اسم (أن) منصوبا بالياء ، لأنه جمع مذكر سالم .

ولا يجوز أن تكون ممهلة ، لأنها لا تهمل ، وهى مشددة مؤكدة ،

---

(١١٨) مفاتيح الغيب للرازى جـ٢٢/٧٨ .

(١١٩) معانى القرآن جـ٢/١٨٤ .

(١٢٠) البخارى فى اللباس باب عذاب المصورين يوم القيامة ، مسلم فى اللباس ، باب تحريم تصوير صورة الحيوان .

فلزم أن يكون اسمها ضمير شأن محذوفا ، والمذكور فى الكلام جملة من مبتدأ وخبر فى محل رفع خبر (ان) .

وضعف قوم هذا التوجيه بأن ضمير الشأن موضوع لتقوية الكلام، وما كان كذلك لا يناسبه الحذف[١٢١] .

٥ ــ القول الخامس :

أن ان ملغاة وان كانت مشددة حملا لها على المخففة ، وذلك كما اعملت المخففة محلا لها عليها فى قوله تعالى: (وان كلا لما ليوفينهم)[١٢٢] أو حطا لرتبتها عن الفعل ، لأن عملها ليس بالأصالة بل بالشبه له ، وما بعدها مبتدأ وخبر .

وفيه أن هذا الالغاء لم يرد فى غير هذا الموضع وهو محل النزاع ، وبحث اللام فيه بحاله[١٢٣] .

وعلى ضوء ما سبق فانه يمكننا أن نقول : ان هذه الاقوال السابقة تتضمن توجيه هذه القراءة بوجه تصح به أو تخرج به عن الخطأ ، وبذلك يندفع ما روى عن عثمان رضى الله عنه ، وعائشة رضى الله عنها أنه غلط من الكاتب للمصحف .

وأنه يجوز أن تقرأ قوله تعــالى : (ان هذان لساحران) على موافقته للمصحف ، ويجوز أن تقرأه على مخالفته ، وكان عمــر بن الخطاب رضى الله عنه يختار أن لا يقرأ القرآن الا بلغة قريش ، وكتب الى ابن مسعود أن يقرىء الناس بلغة قريش ولا يقرئهم بلغة هذيل .

٢ ــ **وأما قوله تعالى** (ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون

---

(١٢١) الاشمونى ج١/٥٩ وروح المعانى للالوسى ج١٦/٢٢٢ .
(١٢٢) هود/١١١ .
(١٢٣) روح المعانى ج١٦/٢٢٢ .

والنصارى)[١٢٤] فقد قرأه عثمان وأبى وعائشة وابن جبير (والصابئين)[١٢٥] .

قال الزمخشرى : وبها قرأ ابن كثير[١٢٦] .

وقرأ القراء السبعة (والصابئون) بالرفع وعليه مصاحف الامصار والجمهور ، **وفى توجيه هذه القراءة عدة أقوال :**

١ ـ أحدها :

وهو مذهب الخليل وسيبويه أنه مرفوع بالابتداء ، وهو مقوى به التأخير[١٢٧] ، كأنه قيل : ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، والصابئون كذلك ، فحذف خبره .

والفائدة فى عدم عطفهم على من قبلهم هو أن الصابئين ، أشد الفرق المذكورين فى الآية ضلالا ، فكأنه قال : كل هؤلاء الفرق ان آمنوا بالعمل الصالح قبل الله توبتهم وأزال ذنبهم ، حتى الصابئون فانهم ان آمنوا كانوا أيضا كذلك[١٢٨] .

وأنشد سيبويه ـ وهو نظيره ـ قول الشاعر :

والا فاعلموا أنا وأنتم   بغاة ما بقينا فى شقاق[١٢٩]

أى والا فاعلموا أنا بغاة وأنتم كذلك .

---

(١٢٤) المائدة/٦٩ .

(١٢٥) البحر المحيط لأبى حيان ج٣/٥٣١ .

(١٢٦) الكشاف للزمخشرى ج/ .

(١٢٧) البحر المحيط ج٣/٥٣١ .

(١٢٨) التفسير الكبير للرازى ج١٢/٥٥ والجامع لأحكام القرآن للقرطبى ج٦/٢٤٦ .

(١٢٩) البيت لبشر بن أبى حازم . والبغاة : جمع باغ وهو الساعى بالفساد ، والشقاق : الخلاف .

ومثله قول ضابى البرجمى :

فمن يك أمسى بالمدينة رحله ... فانى وقيار بها لغريب

أى فانى لغريب وقيار كذلك[١٣٠] .

٢ ـ القول الثانى :

وهو قول الفراء : أن كلمة (ان) ضعيفة فى العمل هاهنا وبيانه من وجوه :

(أ) أن كلمة (ان) انما تعمل لكونها مشابهة للفعل ، ومعلوم أن المشابهة بين الفعل والحرف ضعيفة .

(ب) انها وان كانت تعمل ، لكن انما تعمل فى الاسم فقط ، أما الخبر فانه بقى مرفوعا بكونه خبر المبتدأ ، وليس لهذا الحرف فى رفع الخبر تأثير . وهذا مذهب الكوفيين .

(جـ) انها انما يظهر أثرها فى بعض الاسماء ، أما الاسماء التى لا يتغير حالها عند اختلاف العوامل فلا يظهر أثر هذا الحرف فيها ، والامر هاهنا كذلك ، لأن الاسم هاهنا هو قوله (الذين) وهذه الكلمة لا يظهر فيها أثر الرفع والنصب والخفض .

اذا ثبت هذا فنقول : انه اذا كان اسم (ان) بحيث لا يظهر فيه أثر الاعراب ، فالذى يعطف عليه يجوز النصب على اعمال هذا الحرف والرفع على اسقاط عمله ، فلا يجوز أن يقال : (ان زيدا وعمرو قائمان) لأن زيدا ظهر فيه أثر الاعراب ، لكن انما يجوز أن يقال : (ان هؤلاء واخوتك يكرموننا) و (ان هذا نفسه شجاع) و (ان قطام وهند عندنا) ، والسبب فى وجاز ذلك أن كلمة (ان) كانت فى الاصل ضعيفة العمل ، واذا صارت بحيث لا يظهر لها أثر فى اسمها صارت فى غاية

---

(١٣٠) فتح القدير للشوكانى جـ٢/٦٢ .

الضعف ، فجاز الرفع بمقتضى الحكم الثابت قبل دخول هذا الحرف عليه ، وهو كونه مبتدأ[١٣١] .

ورجح الرازى قول الفراء حيث قال (وهو مذهب حسن ، وأولى من مذهب البصريين ، لأن الذى قالوه يقتضى أن كلام الله على الترتيب الذى ورد عليه ليس بصحيح ، وانما تحصل الصحة عند تفكيك هذا النظم ، وأما على قول الفراء فلا حاجة اليه ، فكان ذلك أولى)[١٣٢] .

وبناء على هذا القول فانا نقول انما جاز الرفع فى (والصابئون) لأن (أن) ضعيفة فلا تؤثر الا فى الاسم دون الخبر ، و (الذين) هنا لا يتبين فيه الاعراب ، فجرى على جهة واحدة الامران ، فجاز رفع الصابئين رجوعا الى أصل الكلام .

٣ ــ القول الثالث :

أن (ان) بمعنى (نعم) : و (الصابئون) مرتفع بالابتداء ، وحذف الخبر لدلالة الثانى عليه ، فالعطف يكون على هذا التقدير بعد تمام الكلام وانقضاء الاسم والخبر[١٣٣] .

وضعفه أبو حيان بأن ثبوت (ان) بمعنى نعم فيه خلاف بين النحويين[١٣٤] ، وعلى تقدير ثبوته فيحتاج الى شىء يتقدمها تكون تصديقا له ولا يجىء أول الكلام . والجواب بأن ثمة سؤالا مقدرا بعيد ركيك[١٣٥] .

---

(١٣١) معانى القرآن للفراء جـ١/٣١٠ والتفسير الكبير للرازى جـ١٢/٥٥ ، والجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ٦/٢٤٦ .

(١٣٢) التفسير الكبير للرازى جـ١٢/٥٥ .

(١٣٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ٦/٢٤٦ والاتقان فى علوم القرآن تحقيق محمد أبو الفضل جـ٢/٢٧٥ واملاء ما من به الرحمن جـ١/١٢٨ .

(١٣٤) البحر المحيط جـ٣/٥٣١ .

(١٣٥) روح المعانى للألوسى جـ٦/٢٠٢ من المجلد الثانى .

٤ ـ القول الرابع :

أنه مرفوع معطـوف على الضمير المرفوع فى «هادوا» فى قول الكسائى والاخفش[١٣٦] .

قال النحاس : سمعت الزجاج يقول ـ وقد ذكر له قول الاخفش والكسائى ـ هذا خطأ من جهتين :

احداهما : أن المضمر المرفوع يقبح العطف عليه حتى يؤكد .

والجهة الاخرى : أن المعطوف شريك المعطوف عليه ، فيصير المعنى أن الصابئين قد دخلوا فى اليهودية وهذا محال[١٣٧] .

٥ ـ القول الخامس :

ان خبر (ان) مقدر والجملة الآتية خبر الصابئون والنصارى ، كما فى قول الشاعر :

نحن بما عنـدنا وأنت بما عنـدك راض والرأى مختلف

فان قوله (راض) خبر (أنت) ، وخبر (نحن) محذوف[١٣٨] .

٣ ـ وأما قوله تعالى : (لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة)[١٣٩] .

قرأ الحسن ، ومالك بن دينار وجماعة (والمقيمون على العطف على (ما) فى قوله تعالى (بما أنزل اليك) أى يؤمنون بالكتاب والمقيمين الصلاة ، وهم الانبياء[١٤٠] .

---

(١٣٦) البحر المحيط جـ٣/٥٣١ .

(١٣٧) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ٦/٢٤٦ .

(١٣٨) روح المعانى للألوسى جـ٦/٢٠٢ .

(١٣٩) النساء/١٦٢ .

وجاء فى مصحف عبد الله بن مسعود (والمقيمون الصلاة) بالواو ، وهى قراءة مالك بن دينار والجحدرى ، وعيسى الثقفى[141] .

وأما حرف أبى فهو فيه (والمقيمين) كما فى المصاحف ، **واختلف فى وجه نصبه على قراءة الجمهور على آقوال :**

١ ـ الاول :

قول سيبويه أنه نصب على المدح : أى وأعنى المقيمين . قال سيبويه : هذا من باب ما ينتصب على التعظيم ، ومن ذلك (والمقيمين الصلاة) وأنشد :

وكل قوم أطاعوا أمر سيدهم[142]   الا غيرا أطاعت أمر غاويها
الظاعنين ولما يظعنوا أحدا   والقائلون لمن دار نخليها[143]

وأنشد :

لا يبعدن قومى الذين هم   سم العادة وآفة الجزر
النازلين بكل معترك   **والطيبون** معاقد الأزر[144]

---

(١٤٠) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ٦/١٣ .

(١٤١) التفسير الكبير للرازى جـ١١/١٠٨ والبحر المحيط جـ٣/٣٩٦ .

(١٤٢) ويروى : (أمر مرشدهم) .

(١٤٣) قوله : (الظاعنين ولما يظعنوا أحدا) أى يخافون من عدوهم لقلتهم وذلهم فيظعنون ، ولا يخاف منهم عدوهم فيظعن عن دارهم خوفا منهم . وقوله (لمن دار نخليها) أى اذا ظعنوا عن دار لم يعرفوا من يحلها بعدهم لخوفهم من جميع القبائل . والبيتان لابن الخياط .

(١٤٤) البيتان لخرنق بنت عفان من بنى قيس ، وصفت قومها بالظهور على العدو ونحر الجزور للاضياف والملازمة للحرب ، والعفة عن الفواحش .

قال النحاس : وهذا أصح ما قيل فى المقيمين[١٤٥] .

قال الرازى : وهو قول البصريين ـ أنه نصب على المدح لبيان فضيلة الصلاة قالوا : اذا قلت : (مررت بزيد الكريم) فلك أن تجر (الكريم) لكونه صفة لزيد ، ولك أن تنصبه على تقدير أعنى ، وان شئت رفعت على تقدير هو الكريم ، وعلى هذا يقال (جاء فى قومك المطعمين فى المحل والمغيثون فى الشدائد) فكذا هاهنا تقدير الآية : أعنى المقيمين الصلاة وهم المؤتون الزكاة[١٤٦] .

وطعن الكسائى فى هذا القول وقال : النصب على المدح انما يكون بعد تمام الكلام وهاهنا لم يتم الكلام ، لأن قوله (لكن الراسخون فى العلم) منتظر للخبر ، والخبر هو قوله (أولئك سنؤتيهم أجرا عظيما)[١٤٧] .

والجواب : لا نسلم أن الكلام لم يتم الا عند قوله (أولئك) ، لأن الخبر هو قوله : (يؤمنون) .

وأيضا لم لا يجوز الاعتراض بالمدح بين الاسم والخبر ، وما الدليل على امتناعه : فهذا القول هو المعتمد فى الآية الكريمة[١٤٨] .

٢ ـ الثانى :

وهو اختيار الكسائى ، وهو أن المقيمين خفض بالعطف على (ما) فى قوله (بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك) والمعنى : والمؤمنون يؤمنون

---

(١٤٥) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ٦/١٤ والبحر المحيط جـ٣/٣٩٦ .

(١٤٦) التفسير الكبير للرازى جـ١١/١٠٨ وتأويل مشكل القرآن ص ٣٨ .

(١٤٧) النساء/١٦٢ .

(١٤٨) روح المعانى للألوسى جـ٦/١٤ .

بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك وبالمقيمين الصلاة ، ثم عطف على قوله (والمؤمنون) قوله (والمؤتون الزكاة) .

والمراد بالمقيمين الصلاة الانبياء ، وذلك لأنه لم يخل شرع أحد منهم : (وأوحينا اليهم فعل الخيرات واقام الصلاة)[149] .

وقيل المراد بالمقيمين الصلاة الملائكة الذين وصفهم الله بأنهم الصافون المسبحون وأنهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون ، فقوله (يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك) يعنى يؤمنون بالكتب ، وقوله (والمقيمين الصلاة) يعنى يؤمنون بالرسل[150] .

٣ — وقيل : (والمقيمين) عطف على الكاف التى فى (قبلك) ، أى من قبلك ومن قبل المقيمين .

٤ — وقيل (المقيمين) عطف على الكاف التى فى (اليك) .

٥ — وقيل هو عطف على الهاء والميم ، أى منهم ومن المقيمين[151] .

وهذه الاجوبة الثلاثة لا تجوز ، لأن فيها عطف مظهر على مضمر مخفوض[152] .

وحكى محمد بن جرير الطبرى أنه قيل له : ان المقيمين هاهنا الملائكة عليهم السلام ، لذوامهم على الصلاة والتسبيح والاستغفار ، واختار هذا القول ، وحكى أن النصب على المدح بعيد ، لأن المدح انما يأتى بعد تمام الخبر ، وخبر الراسخين فى (أولئك سنؤتيهم أجرا

---

(١٤٩) الانبياء/٧٣ .

(١٥٠) التفسير الكبير للرازى ج١١/١٠٨ وجامع البيان الطبرى ج٦/١٨ .

(١٥١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ج٦/١٤ — وتأويل مشكل القرآن ص٣٨ .

(١٥٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ج٦/١٤ .

عظيما) فلا ينتصب و (المقيمين) على المدح ، يقول الطبرى : (وأولى الاقوال عندى بالصواب أن يكون (المقيمين) فى موضع خفض نسقا على (ما) التى فى قوله : (بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك) ، وأن يوجه معنى المقيمين الصلاة الى الملائكة فيكون تأويل الكلام : المؤمنون منهم يؤمنون بما أنزل اليك يا محمد من الكتاب ، وبما أنزل من قبلك من كتبى وبالملائكة الذين يقيمون الصلاة .

ثم نرجع الى صفة الراسخين فى العلم فنقول : لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون بالكتب والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر .

وانما اخترنا هذا على غيره ، لأنه قد ذكر أن ذلك فى قراءة أبى بن كعب (والمقيمين) ، وكذلك هو فى مصحفه فيما ذكروا ، فلو كان ذلك خطأ من الكاتب ، لكان الواجب أن يكون فى كل المصاحف غير مصحفنا الذى كتبه لنا الكاتب الذى أخطأ فى كتابه ، بخلاف ما هو فى مصحفنا ، وفى اتفاق مصحفنا ومصحف أبى فى ذلك ما يدل على أن الذى فى مصحفنا من ذلك صواب غير خطأ ، مع أن ذلك لو كان خطأ من جهة الخط لم يكن الذين أخذ عنهم القرآن من أصحاب رسول الله ﷺ يعلمون من علموا ذلك من المسلمين على وجه اللحن ، ولأصلحوه بألسنتهم ولقنوه للأمة تعلميا على وجه الصواب .

وفى نقل المسلمين جميعا ذلك قراءة على ما هو به فى الخط مرسوما أول الدليل على صحة ذلك وصوابه ، وأن لا صنع فى ذلك للكاتب .

وأما من وجه ذلك الى النصب على وجه المدح للراسخين فى العلم وان كان ذلك قد يحتمل على بعد من كلام العرب لما قد ذكرنا قبل من العلة ، وهو أن العرب لا تعدل عن اعراب الاسم المثبوت بنعت فى نعته الا بعد تمام خبره ، وكلام الله جل ثناؤه أفصح الكلام ، فغير جائز توجيهه الا الى الذى هو به من الفصاحة .

وأما توجيه من وجه ذاك الى العطف به على الهاء والميم فى قوله: (لكن الراسخون فى العلم منهم) أو الى العطف به على الكاف من قوله (بما أنزل اليك) أو الى الكاف من قوله (وما أنزل من قبلك) ، فانه أبعد من الفصاحة من نصبه على المدح ، لما قد ذكرت قبل من قبح رد الظاهر على المكنى فى الخفض[١٥٣] .

وبالجملة فانه لا يلتفت الى من زعم أن هذا من لحن القرآن ، وأن الصواب (والمقيمون) بالواو كما فى قراءة مالك بن دينار والجحدرى والثقفى ، اذ لا كلام فى نقل النظم تواترا فلا يجوز اللحن فيه أصلا .

وأما ما روى أنه لما فرغ من المصحف أتى به الى عثمان رضى الله عنه فقال : قد أحسنتم وأجملتم أرى شيئا من لحن ستقيمه العرب بألسنتها ، ولو كان المملى من هذيل ، والكاتب من قريش لم يوجد فيه ، هذا ، فانه ضعيف ، والاسناد فيه اضطراب ، وانقطاع ، فان عثمان رضى الله عنه جعل للناس اماما يقتدون به ، فكيف يرى فيه لحنا ويتركه لتقيمه العرب بألسنتها ، وقد كتب عدة مصاحف وليس فيها اختلاف أصلا الا فيما هو من وجوه القراءات ، واذا لم يقمه هو ومن باشر الجمع وهم هم كيف يقيمه غيرهم؟ .

٤ — وأما قوله تعالى (والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين)[١٥٤] فان قوله جل ثناؤه (والصابرين) منصوب ، وفى نصبه أقوال :

الاول : قال الكسائى هو معطوف على ذوى القربى ، كأنه قال (وآتى المال على حبه ذوى القربى والصابرين)[١٥٥] .

---

(١٥٣) جامع البيان فى تفسير القرآن للطبرى ج٦/١٩ .

(١٥٤) البقرة/١٧٧ . وتفسير العلامة أبى السعود ج١/٢٢٩ .

وتأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص٣٨ .

وهذا القول خطأ وغلط بين ، لأنك اذا نصبت (والصابرين) ونسقته على (ذوى القربى) دخل فى صلة (من) •

واذا رفعت (والموفون) على أنه نسق على (من) ، فقد نسقت على (من) من قبل أن تتم الصلة ، وفرقت بين الصلة والموصول بالعطف •

قال النحويون : (ان تقدير الآية يصير هكذا : ولكن البر من آمن بالله وآتى المال على حبه ذوى القربى والصابرين) فعلى هذا قوله (والصابرين) من صلة من قوله : (والموفون) متقدم على قوله (والصابرين) ، فهو عطف على (من) ، فحينئذ قد عطفت على الموصول قبل صلته شيئا ، وهذا غير جائز ، لأن الموصول مع الصلة بمنزلة اسم واحد ، ومحال أن يوصف الاسم أو يؤكد ، أو يعطف عليه الا بعد تمامه وانقضائه بجميع أجزائه •

وان جعلت قوله (والموفون) رفعا على المدح ، فان هذا الفعل غير جائز ، بل هذا أشنع ، لأن المدح جملة فاذا لم يجز الفصل بالمفرد ، فلأن لا يجوز بالجملة كان ذلك أولى[١٥٦] • •

فان قيل : أليس جاز الفصل بين المبتدأ والخبر بالجملة ، كقول القائل : (ان زيدا فافهم ما أقول رجل عالم) ، وكقوله تعالى (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات انا لا نضيع أجر من أحسن عملا)[١٥٧] ثم قال : (أولئك) ففصل بين المبتدأ والخبر بقوله (انا لا نضيع) •

رد عليهم بأن الموصول مع الصلة كالشىء الواحد ، فالتعلق الذى بينهما أشد من التعلق الذى بين المبتدأ والخبر ، فلا يلزم من جواز الفصل بين المبتدأ والخبر جوازه بين الموصول والصلة[١٥٨] •

---

(١٥٥) فتح القدير للشوكانى جا/١٧٣ •

(١٥٦) التفسير الكبير للرازى جـ ٥/٤٨ •

(١٥٧) الكهف/٣٠ •

القول الثانى :

زعم بعضهم أن قوله (والصابرين) نصب عطفا على (السائلين) كأن معنى الكلام كان عنده : وأتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين والصابرين فى البأساء والضراء(١٥٩).

وانتقد الطبرى هذا القول حيث يقول : وظاهر كتاب الله يدل على خطأ هذا القول وذلك أن (الصابرين فى البأساء والضراء) أهل الزمانة فى الابدان وأهل الاقتار فى الاموال ، وقد مضى وصف القوم بايتاء من كان ذلك صفته المال فى قوله (المساكين وابن السبيل والسائلين) وأهل الفاقة والفقر ، هم أهم البأساء والضراء ، لأن من لم يكن من أهل الضراء ذا بأساء لم يكن ممن له قبول الصدقة ، وانما له قبولها اذا كان جامعا الى ضرائه بأساء ، واذا جمع اليها بأساء ، كان من أهل المسكنة الذين قد دخلوا فى جملة المساكين الذين قد مضى ذكرهم قبل قوله (والصابرين فى البأساء) واذا كان كذلك ثم نصب (الصابرين فى البأساء) بقوله (وآتى المال على حبه) كان الكلام تكريرا بغير فائدة معنى ، كأنه قيل : وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين، والله تعالى من أن يكون ذلك فى خطاب عباده(١٦٠) .

القول الثالث :

قول الفراء ، حيث قال : ونصبت «الصابرين» لأنها من صفة (من) وانما نصبت ، لأنها من صفة اسم واحد ، فكأنه ذهب به الى المدح ، والعرب تعترض من صفات الواحد اذا تطاولت بالمدح أو الذم، فيرفعون اذا كان الاسم رفعا ، وينصبون بعض المدح ، فكأنهم ينوون

---

(١٥٨) السابق : جـ ٤٨/٥ الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ٢/ ٢٤٠ .

(١٥٩) جامع البيان فى تفسير القرآن للطبرى جـ٢/٥٩ .

(١٦٠) جامع البيان فى تفسير القرآن للطبرى جـ٢/٥٩ .

اخراج المنصوب بمدح مجدد غير متبع لأول الكلام ، من ذلك قول الشاعر :

الى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتيبة فى المزدحم
وذا الرأى حين تغم الامور بذات الصليل وذات اللجم[١٦١]

فنصب (ليث الكتيبة) و « ذا الرأى » على المدح والاسم قبلهما مخفوض ، لأنه من صفة واحد ، فلو كان الليث غير الملك لم يكن الا تابعا ، كما تقول : (مررت بالرجل والمرأة) وأشباهه ، قال وأنشدنى بعضهم :

فليت التى فى النجوم تواضعت على كل غث منهم وسمين
غيوث الحيا فى كل محل ولزبة أسود الشرى يحمين كل عرين[١٦٢]

وقال آخر :

نحن بنى ضبة أصحاب الجمل

فنصب على المدح[١٦٣] . وأما الذم فقوله تعالى : (ملعونين أينما ثقفوا)[١٦٤] . كما قرأ عيسى بن عمر : (وامرأته حمالة الحطب) بنصب (حمالة) على الذم[١٦٥] .

---

(١٦١) تغم الامور : تلبس وتبهم ولا يهتدى فيها لوجه الصواب . وذات الصليل : الكتيبة يسمع فيها صليل السيوف ، وذات اللجم : الكتيبة أيضا نعيها الخيل بلجمها والقرم : السيد المعظم .

(١٦٢) تواضعت : هبطت ، واللزبة الشدة ، المخل القحط ، الحيا بالقصر المطر . والذى فى الطبرى : عيوث الودى فى كل محل وأزمة .
جامع البيان فى تفسير القرآن ج٢/٥٩ ومعانى القرآن للفراء/١٠٥ — ١٠٦ .

(١٦٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ج٢/٢٤٠ .

(١٦٤) الاحزاب/٦١ .

(١٦٥) التفسير الكبير للرازى ج ٥/٤٨ .

قال أبو على الفارسى : واذا ذكرت الصفات الكثيرة فى معـرض المدح أو الذم ، فالأحسن أن تخالف باعرابها ، ولا تجعل كلها جارية على موصوفها لأن هذا الموضع من مواضع الاطناب فى الوصف والابلاغ فى القول ، فاذا خولف باعراب الاوصاف كان المقصود أكمل ، لأن الكلام عند اختلاف الاعراب يصير كأنه أنواع من الكلام وضروب من البيان ، وعند الاتحاد فى العرب يكون وجها واحدا ، وجملة واحدة .

واختلف الكوفيون والبصريون فى أن المدح والذم لم صارا علتين لاختلاف الحركة ؟ .

فقال الفراء : أصل المدح والذم من كلام السامع ، وذلك أن الرجل اذا أخبر غيره فقال له : (قام زيد) فربما أثنى السامع على زيد ، وقال ذكرت والله الظريف ، ذكرت العاقل ، أى هو والله الظريف هو العاقل ، فأراد المتكلم أن يمدح بمثل ما مدحه به السامع ، فجرى الاعراب على ذلك .

وقال الخليل : المدح والذم ينصبان على معنى أعنى الظريف . وأنكر الفراء ذلك لوجهين :

الاول : أن أعنى انما يقع تفسيرا للاسم المجهول .

والثانى : أنه لو صح ما قاله الخليل لصح أن يقول (قام زيد أخاك) على معنى : أعنى أخاك ، وهذا مما لم تقله العرب أصلا[١٦٦] .

وقرأ يعقوب والاعمش : (والموفون والصابرون) بالرفع فيهما ، وقد قيل : (والموفون) عطف على الضمير الذى فى (آمن) . وأنكـره أبو على الفارسى : وقال ليس المعنى عليه ، اذ ليس المراد أن البـر من آمن بالله هو والموفون . أى آمنا جميعا . كما تقول (الشجاع من

---

(١٦٦) التفسير الكبير للرازى ج ٤٩/٥ .

أقدم هو وعمرو) ، وانما الذى بعد قوله (من آمن) تعداد لأفعال من آمن وأوصافهم[١٦٧]

وقال بعض من تعسف فى كلامه : ان هذا غلط من الكتاب ، حين كتبوا مصحف الامام ، قال : والدليل على ذلك ما روى عن عثمان أنه نظر فى المصحف فقال : أرى فيه لحنا وستقيمه العرب بألسنتها . وهكذا قال فى سورة النساء (والمقيمين الصلاة)[١٦٨] وفى سورة المائدة (والصابئون)[١٦٩] والجواب ما ذكرناه[١٧٠] .

٥ — قوله تعالى : (فأصدق وأكن من الصالحين)[١٧١] فان أكثر القراء يقرءون (فأصدق وأكن) بغير واو بالجزم عطفا على موضع الفاء ، لأن قوله (فأصدق) لو لم تكن الفاء لكان مجزوما ، أى أصدق . ومثله قوله جل ثناؤه (ومن يضلل الله فلا هادى له ويذرهم)[١٧٢] فيمن جزم حملا على موضع الفاء وما بعدها[١٧٣] . ومن ذلك قول الشاعر :

فأبلونى بليتكم لعلى ... أصالحكم وأستدرج نويا[١٧٤]

---

(١٦٧) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ج٢/٢٤٠ — ٢٤١ والبحر المحيط ج٢/٧ ، وفتح القدير للشوكانى ج١/١٧٣ .

(١٦٨) النساء/١٦٢ .

(١٦٩) المائدة/٦٩ .

(١٧٠) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ج٢/٢٤٠ .

(١٧١) سورة المنافقون/١٠ .

(١٧٢) الاعراف/١٨٦ وفى قراءة (ويذرهم) بالرفع على الاستئناف ، الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ج٧/٣٣٤ .

(١٧٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ج١٨/١٣١ ومعانى القرآن للفراء ج٣/١٦٠ .

(١٧٤) البيت فى اللسان ج١٣/٥٠٣ غير منسوب ، وفى شرح شواهد المغنى للسيوطى ٢٨٤ لأبى داود وهو له فى النقائض ج١/٤٠٨ . أراد (نوايا)

فجزم (واستدرج) وجملة على موضع أصالحكم لو لم يكن قبلها لعلى ، كأنه قال : فأبلونى أصالحكم واستدرج[١٧٥] .

وأنشد سيبويه أبياتا كثيرة فى الحمل على الموضع منها :

معاوى اننـــا بشـــر فأسجح فلسنا بالجبال ولا الحـــديدا

فنصب (الحديد) عطفا على المحل ، والباء فى قوله (بالجبال) للتأكيد ، لا لمعنى مستقبل يجوز حذفه ، وعكسه قول ابن أبى سلمى :

بـــدا لى أنى لست مدرك ماضى ولا سابق شيئا اذا كان جائيـــا

توهم أنه قال : بمـــدرك ، فعطف عليه قوله (سابق ، عطفـــا على المفهوم[١٧٦] وقال أبو على الفارسى : ان جزم (أكن) على موضـــع (فأصدق) لأنه على معنى : أن أخرتنى أصدق وأكن[١٧٧] .

وكان أبو عمرو بن العلاء يقرأ : (فأصدق وأكون) بالنصب[١٧٨] ويذهب الى أن الكاتب أسقط الواو ، كما تسقط حروف المد واللين فى (كلمون) .

قال الفراء : ويجوز نصبها فى قراءتنا ، وان لم تكن فيها الواو ،

=

فذهب به الى نفيا وهويا ، وهو الوجه الذى يريده . واستدرج : يقول : أتركتكم وأذهب . ولعل بمعنى (كى) على رأى الكوفيين واستشهد بهـــذا البيت .

وقيل : ان (النوى) النية ، وأبلونى : أعطونى من الابلاء وهو الاعطاء . والبلية : الناقة كانت تجلس على رأس قبر الميت ، وكانت العرب تزعم أن الاموات تبعث ركبانا . تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة تحقيق الاستاذ السيد صقر هامش رقم (٣) ص ٤٠ .

(١٧٥) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص ٤٠ .

(١٧٦) التفسير الكبير للرازى ج ١٩/٣٠ .

(١٧٧) فتح القدير للشوكانى ج ٢٣٣/٥ .

(١٧٨) البحر المحيط ج٢٧٥/٨ .

لأن العرب قد تسقط الواو فى بعض الهجاء ، كما أسقطوا الألف من (سكيمن) وأشباهه ، ورأيت فى بعض مصاحف عبد الله (فقولا) بغير واو[179] .

٦ ـ قوله تعالى (يبين الله لكم أن تضلوا)[180] .

(أن تضلوا) : مفعول من أجله ، ومفعول (يبين) محذوف ، أى يبين لكم الحق ، فقدره البصريون والمبرد وغيره : كراهة أن تضلوا عن النبى ﷺ فى ذلك[181] .

وذهب الكسائى والفراء وغيرهما من الكوفيين الى تقدير اللام ولا فى طرفى (أن) أى لئلا تضلوا[182] ومثله عندهم قول القطامى :

رأينا ما رأى البصراء منا فآلينا عليها أن تباعا

أى أن لا تباعا .

وحكى أبو عبيدة قال : حدثت الكسائى بحديث رواه ابن عمر رضى الله عنهما فيه : « لا يدعون أحدكم على ولده أن يوافق من الله اجابة »[183] . فاستحسنه ، أى لئلا يوافق من الله اجابة[184] .

وقال الزجاج هو مثل قوله تعالى (ان الله يمسك السموات والارض أن تزولا)[185] أى لأن لا تزولا .

---

(١٧٩) معانى القرآن للفراء جـ٣/١٦٠ .

(١٨٠) النساء/١٧٦ .

(١٨١) البحر المحيط جـ٣/٤٠٨ ـ ٤٠٩ والكشاف جـ١/٥٩٠ .

(١٨٢) روح المعانى للألوسى جـ٦/٤٥ من المجلد الثانى .

(١٨٣) أخرجه : أبو داود فى الصلاة ، باب النهى أن يدعو الانسان على أهله وماله رقم ١٥٣٢ وابن حبان فى موارد الظمآن رقم ٢٤١١ .

(١٨٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ٦/٢٩ .

(١٨٥) فاطر/٤٣ .

وهذا القول عند البصريين خطأ صارح ، لأنهم لا يجيزون اضمار (لا) والمعنى عندهم : يبين الله لكم كراهة أن تضلوا ، ثم حذف ، كما قال عز شأنه : (واسأل القرية)[١٨٦] وكذا مضى حديث النبى ﷺ : أى كراهية أن يوافق من الله اجابة[١٨٧] •

وقيل : ليس هناك حذف ولا تقدير وانما المنسك مفعول (يبين) أى يبين لكم ضلالكم ، ورجح هذا بأنه من حسن الختام والالتفات الى أول السورة ، وهو قوله تعالى (ياأيها الناس اتقوا ربكم)[١٨٨] فانه سبحانه أمرهم بالتقوى، وبين لهم ما كانوا عليه فى الجاهلية ، ولما تفضيله قال عز وجل لهم : انى بينت لكم ضلالكم فاتقونى كما أمرتكم ، فان الشر اذا عرف اجتنب والخير اذا عرف ارتكب •

ونوقش بأن المبين صريحا هو الحق والضلال يعلم بالمقايسة ، فكان الظاهر يبين لكم الحق • الا أن يقال : بيان الحق واضح ، وبيان الظاهر يبين لكم الحق ، الا أن يقال : بيان الحق واضح ، وبيان الضلال خفى ، فاحتيج الى التنبيه عليه ، وفيه تأمل[١٨٩] •

٧ ـــ قال الله تعالى (ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون)[١٩٠] •

قال الطاعن ينبغى أن يقال : ثم قال له كن فكان ، فلم يقل كذلك ، بل قال : كن فيكون[١٩١] •

---

(١٨٦) يوسف/٨٢ .

(١٨٧) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ج٦/٢٩ .

(١٨٨) النساء/١ .

(١٨٩) روح المعانى للألوسى ج٦/٤٥ من المجلد الثانى .

(١٩٠) آل عمران/٥٩ .

(١٩١) التفسير الكبير للرازى ج٨/٨٥ .

واجيب عن ذلك بأن التعبير بالمضارع مع أن المقام مقام المضى لتصوير ذلك الامر الكامل بصورة المشاهد الذى يقع الآن ايذانا بأنه من الامور المستغربة العجيبة الشأن[١٩٢] .

ويقول الطبرى : انما قال «فيكون» وقد ابتدأ الخبر عن خلق آدم ، وذلك خبر عن أمر قد تقضى ، وقد أخرج الخبر عنه مخرج الخبر عما قد مضى فقال جل ثناؤه : خلقه من تراب ، ثم قال له «كن» لأنه بمعنى الاعلام من الله نبيه أن تكوينه الاشياء بقوله ، كن ، ثم قال : (فيكون) خبر مبتدأ وقد تناهى الخبر عن أمر آدم عند قوله (كن) ، فتأويل الكلام اذا : ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب . ثم قال له كن واعلم يا محمد أن ما قال له ربك كن فهو كائن ، فلما كان فى قوله : (كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن) دلالة على أن الكلام يراد به اعلام نبى الله ﷺ وسائر خلقه أنه كائن ما كونه ابتداء من غير أصل ولا أدل ولا عنصر ، استغنى بدلالة الكلام على المعنى . وقيل (فيكون) فعطف بالمستقبل على الماضى على ذلك المعنى .

وقد قال بعض أهل العربية (فيكون) رفع على الابتداء ومعناه : كن فكان ، فكأنه قال : فاذا هو كائن[١٩٣] .

ان سر التعبير بالمضارع الذى يفيد الاستقبال فى موضع المضى هو اثبات أن قدرة الله تعالى على ايجاد ممكن أو اعدامه مستمرة فى جميع الاحوال فى الماضى والحاضر والمستقبل ، فالذى خلق آدم من تراب ثم قال له كن فكان فى الماضى قادر على أن يخلق غيره فى الحال وفى الاستقبال فكيف نستبعد على قدرة الله أن تخلق عيسى ابن مريم من غير أب وقد ثبت فى اللغة العربية استعمال الماضى فى موضع المضارع وبالعكس لمعان بلاغية تقتضيها بلاغة الكلام[١٩٤] .

---

(١٩٢) روح المعانى للألوسى ج٣/١٨٧ من المجلد الاول .

(١٩٣) جامع البيان للطبرى ج٣/٢٠٨ — ٢٠٩ من المجلد الثالث .

(١٩٤) أدلة اليقين ص٤٨٣ بتصرف .

٨ ــ قوله تعالى (وأسروا النجوى الذين ظلموا)[١٩٥] .

قال الطاعن فى كتاب الله ــ قبح الله وجهه ــ لم قال (وأسروا) والوجه أن يقول : وأسر النجوى؟[١٩٦] .

وأجيب عن ذلك بأنه قال (وأسروا) ، لأنها للناس وصفوا باللهو واللعب[١٩٧] وانما أسروا الحديث ، لأنه كان ذلك على طرق التشاور وعادة المتشاورين كتمان سرهم عن أعدائهم ، وأسروا ليقولوا للرسول ﷺ وللمؤمنين : ان كان ما تدعونه حقا فأخبرونا بما أسررناه[١٩٨] .

وجوز فى اعراب (الذين ظلموا) وجوها : الرفع ، والنصب ، والجر فالرفع على البدل من ضمير (وأسروا) اشعارا بأنهم الموصوفون بالظلم الفاحش فيما أسروا به ، قاله المبرد ، وعزاه ابن عطيه الى سيبويه[١٩٩] وقال المبرد هو كقولك : ان الذين فى الدار انطلقوا بنو عبد الله (فبنوا) بدل من الواو فى انطلقوا[٢٠٠] .

وقال أبو عبيدة والاخفش وغيرهما : هو فاعل (أسروا) ، والواو حرف دال على الجمعية كواو قائمون ، وتاء قامت ، وهذا على لغة أكلونى البراغيث ، وهى لغة لأزد شنودة[٢٠١] قال شاعرهم :

يلومونني فى اشتراء النخيــ ــل أهلــى فكلهــم ألــوم

---

(١٩٥) الانبياء/٣ .

(١٩٦) أدلة اليقين فى الرد على كتاب ميزان الحق وغيره من مطاعن المبشرين ص٤٨٣ .

(١٩٧) معانى القرآن للفراء جـ٢/١٩٨ .

(١٩٨) البحر المحيط جـ٦/٢٩٦ .

(١٩٩) السابق جـ٦/٢٩٧ .

(٢٠٠) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ١١/٢٦٩ .

(٢٠١) همع الهوامع جـ١/٦٠ قال ابن مالك أولفة يتعاقبون فيكم ملائكة .

وقال الشاعر :

بك النضال دون المساعى ... فاهتدين النبال للأغراض

وقال آخر[٢٠٢] :

ولكن ديافى أبوه وأمه ... يجوران يعصرن السليط أقاربه

وقال آخر :

رأين الفوانى الشيب لاح بعارضى

فأعرضن عنى بالخدود النواضر

وهى لغة حسنة على ما نص أبو حيان ، وليست شاذة كما زعمه بعضهم[٢٠٣] وقال الكسائى هو مبتدأ ، والجملة قبله خبر ، وقدم اهتمامته والمعنى هم أسروا النجوى ، فوضع الموصول موضع الضمير تسجيلا على فعلهم بكونه ظلما .

وقيل هو خبر مبتدأ محذوف ، أى هم الذين .

وقيل هو فاعل لفعل محذوف ، أى يقول الذين ، والقول كثيرا ما يضمر واختاره النحاس ، وهو على هذه الاقوال فى محل رفع .

وجوز أن يكون فى محل النصب على الذم ، كما ذهب اليه الزجاج ، أو على اضمار أعنى كما ذهب اليه بعضهم .

وأن يكون فى محل الجر على أن يكون نعتا (للناس) ، كما قال أبو البقاء ، أو بدلا منه كما قال الفراء ، وهو أبعد الاقوال[٢٠٤] .

---

(٢٠٢) هو الفرزدق يهجو عمرو بن عفراء . ورياف موضع بالجزيرة . أوضح المسالك جـ٢/٩٨ .

(٢٠٣) البحر المحيط جـ٦/٢٩٧ والجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ١١/٢٦٩ .

(٢٠٤) البحر احيط جـ٦/٢٩٧ وروح المعانى للألوسى جـ١٧/٨ وينظر أيضا املاء ما من به الرحمن من وجوه الاعراب والقراءات فى جميع القرآن لأبى البقاء البكرى جـ٢/١٣٠ .

وعلى هذا فان صيغة الآية وتركيبها مطابق لقواعد اللغة العربية باتفاق ، ولكن علماء اللغة العربية قد اختلفوا فى الفاعل الذى أسند اليه الفعل فى مثل هذا التركيب ، فالجمهور يقولون انه مسند لنفس الضمير والاسم الظاهر بدل منه ، فاذا قلت (جاءوا الصالحون) فانه ينبغى أن تعرب (جاء) فعل ماض ، وواو الضمير فاعل ، والصالحون بدل .

وبعضهم يقول ان ذلك ليس بلازم ، اذ يصح أن يعرب (جاء) فعل ، والواو علامة الجمع ، والصالحون فاعل ، ولكن العمل بهذا الرأى قليل ، ويعبر عنه علماء العربية بلغة أكلونى البراغيث ، أو يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار .

قوله عز شأنه (ثم عموا وصموا كثير منهم)[٢٠٥] أى عمى كثير منهم وصم بعد تبين الحق لهم بمحمد ﷺ ، فارتفع (كثير) على البدل من الواو . وقال الاخفش كما تقول : (رأيت قومك تلقيهم) .

وان شئت كان التقدير : العمى والصم منهم كثير . وجواب رابع أن يكون على لغة من قال : أكلونى البراغيث[٢٠٦] أى جوز أن يرتفع على الفاعل والواو علامة للجمع لا ضمير[٢٠٧] .

٩ — قوله تعالى : (ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه)[٢٠٨] .

طعن بعض الملاحدة فى القرآن فقال :

س١ : المشار اليه هاهنا حاضر ، و (ذلك) اسم مبهم يشار به الى البعيد .

---

(٢٠٥) المائدة/٧١ .

(٢٠٦) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ج٦/٢٤٨ ، والتفسير الكبير للرازى ج١٢/٦٢ والكشاف للزمخشرى ج١/٦٣٤ ، ومعانى القرآن للفراء ج١/٣١٦ .

(٢٠٧) البحر المحيط ج٣/٥٣٤ .

(٢٠٨) البقرة/١ — ٢ .

والجواب عنه من وجهين :

الاول :

لا نسلم أن المشار اليه حاضر ، وبيانه من عدة وجوه :

(١) أن الله تعالى أنزل الكتاب بعضه بعد بعض ، فنزل قبل سورة البقرة سور كثيرة ، وهى كل ما نزل بمكة مما فيه الدلالة على التوحيد وفساد الشرك ، واثبات النبوة ، واثبات المعاد ، فقوله (ذلك) اشارة الى تلك السور التى نزلت قبل هذه السورة ، وقد يسمى بعض القرآن قرآنا ، قال الله تعالى (واذا قرىء القرآن فاستمعوا له)[٢٠٩] .

وقال حاكيا عن الجن (انا سمعنا قرآنا عجبا)[٢١٠] وقوله عز شأنه (انا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى)[٢١١] وهم ما سمعوا الا البعض وهو الذى كان قد نزل الى ذلك الوقت .

(٢) أنه تعالى وعد رسوله ﷺ عند مبعثه أن ينزل عليه كتابا لا يمحوه الماحى ، وهو عليه السلام أخبر أمته بذلك ، وروت الأمة ذلك عنه ، ويؤيده قوله جل ثناؤه (انا سنلقى عليك قولا ثقيلا)[٢١٢] وهذا فى سورة المزمل ، وهى انما نزلت فى ابتداء المبعث .

(٣) أنه تعالى خاطب بنى اسرائيل ، لأن سورة البقرة مدنية وأكثرها احتجاج على بنى اسرائيل ، وقد كانت بنو اسرائيل أخبرهم موسى وعيسى عليهما السلام أن الله يرسل محمدا ﷺ وينزل عليه كتابا ، فقال تعالى (ذلك الكتاب) أى الكتاب الذى أخبر الانبياء المتقدمون بأن الله تعالى سينزله على النبى المبعوث من ولد اسماعيل عليه السلام .

(٤) أنه تعالى لما أخبر عن القرآن بأنه فى اللوح المحفوظ بقوله (وانه فى أم الكتاب لدينا)[٢١٣] وقد كان عليه السلام أخبر أمته بذلك .

---

(٢٠٩) الاعراف/٢٠٤ .
(٢١٠) الجن/١ .
(٢١١) الاحقاف/٣٠ .
(٢١٢) المزمل/٥ .
(٢١٣) الزخرف/٤ .

فغير ممتنع أن يقول تعالى (ذلك الكتاب) ليعلم أن هذا المنزل هو ذاك الكتاب المثبت فى اللوح المحفوظ •

(٥) أنه وقعت الاشارة بذلك الى (ألم) بعد ما سبق المتكلم به وانقضى ، والمنقضى فى حكم المتباعد •

(٦) أنه لما وصل من المرسل الى المرسل اليه وقع فى حد البعد ، كما تقول لصاحبك ــ وقد أعطيته شيئا : احتفظ بذلك •

(٧) أن القرآن لما اشتمل على حكم عظيمة وعلوم كثيرة يتعسر اطلاع القوة البشرية عليها بأسرها ــ والقرآن وان كان حاضرا نظرا الى صورته لكنه غائب نظر الى أسراره وحقائقه ، فجاز أن يشار اليه كما يشار الى البعيد الغائب •

والوجه الثانى : سلمنا أن المشار اليه حاضر ، لكن لا نسلم أن لفظة (ذلك) لا يشار بها الا الى البعيد ، وبيانه : أن اللام فى ذلك والهاء فى هذا حرفا اشارة وأصلهما «ذا» لأنه حرف للاشارة ، قال الله تعالى (من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا)[٢١٤] ومعنى (ما) تنبيه ، فاذا قرب الشىء أشير اليه فقيل : هذا ، أى تنبه أيها المخاطب لما أشرت اليه ، فانه حاضر لك بحيث تراه •

وقد تدخل الكاف على (ذا) للمخاطبة واللام لتأكيد معنى الاشارة فقيل (ذلك) فكأن المتكلم بالغ فى التنبيه لتأخر المشار اليه عنه ، فهذا يدل على أن لفظة (ذلك) لا تفيد البعد فى أصل الوضع ، بل اختص فى العرف بالاشارة الى البعيد للقرينة التى ذكرناها ، فصارت كالدابة ، فانها مختصة فى العرف بالفرس وان كانت فى أصل الوضع متناولة لكل ما يدب على الارض •

واذا ثبت هذا فنقول : انا نحمله هاهنا على مقتضى الوضع

---

(٢١٤) الحديد/١١ •

اللغوى ، لا على مقتضى الوضع العرفى ، وحينئذ لا يفيد البعد ، ولأجل هذه المقاربة يقام كل واحد من اللفظين مقام الآخر ، قال الله تعالى : (واذكر عبادنا ابراهيم واسحاق ويعقوب أولى الأيدى والأبصار ، انا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار ، وانهم عندنا لمن المصطفين الأخيار ، واذكر اسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار ، هذا ذكر)[٢١٥].

وقال عز شأنه (وعندهم قاصرات الطرف أتراب هذا ما توعدون ليوم الحساب)[٢١٦] .

وقال تعالى شأنه (وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد)[٢١٧] .

وقال جل ثناؤه (فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ان فى ذاك لعبرة لمن يخشى)[٢١٨] .

وقال الله تعالى (ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون)[٢١٩] ثم قال (ان فى هذا لبلاغا لقوم عابدين)[٢٢٠] . وقال الله تعالى (فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيى الله الموتى)[٢٢١] أى هكذا يحيى الله الموتى .

وقال الله تعالى (وما تلك بيمينك يا موسى)[٢٢٢] أى ما هذه التى بيمينك[٢٢٣] .

س٢ : لم ذكر اسم الاشارة والمشار اليه مؤنث وهو السورة؟ .

والجواب : لا نسلم أن المشار اليه مؤنث ، لأن المؤنث اما المسمى،

---

(٢١٥) سورة ص/٤٥ — ٤٩ (٢١٦) ص/٥٢ .

(٢١٧) ق/١٩ . (٢١٨) النازعات/٢٥ .

(٢١٩) الانبياء/١٠٥ . (٢٢٠) الانبياء/١٠٦ .

(٢٢١) البقرة/٧٣ . (٢٢٢) طه/١٧ .

(٢٢٣) التفسير الكبير للرازى جـ٢/١٤ — ١٥ .

أو الاسم ، والاول باطل ، لأن المسمى هو ذلك البعض من القـــرآن وهو ليس بمؤنث ، وأما الاسم فهو (ألم) وهو ليس بمؤنث ، نعم ذلك المسمى له اسم آخر ـــ وهو السورة ـــ مؤنث لكن المذكور السابق هو الاســـم الذى ليس بمؤنث وهو (ألم) ، لا الذى هو مؤنث وهو السورة[٢٢٤] .

س٣ : طعن بعض الملاحدة فقال : ان عنى أنه لاشك فيه عندنا فنحن قد نشك فيه ، وان عنى أنه لاشك فيه عنده فلا فائدة فيه .

وأجيب عن ذلك بأن المراد أنه بلغ فى الوضوح الى حيث لا ينبغى لمرتاب أن يرتاب فيه ، والامر كذلك ، لأن العرب مع بلوغهم فى الفصاحة الى النهاية عجزوا عن معارضة أقصر سورة من سور القرآن ، وذلك يشهد بأنه بلغت هذه الحجة فى الظهور الى حيث لا يجوز للعاقل أن يرتاب فيه .

والذى نخلص اليه أن كلمة (لا ريب فيه) تعنى أن القـــرآن الكريم اشتمل من المعانى الواضحة والادلة القاطعة ما لا يترك مجالا للشك وما لا ينبغى لعاقل بعد ذلك أن يرتاب فيه .

ومن دخله الشك فى معانيه ، فهو ضعيف العقل .

أو هو نفى معناه النهى : أى لا ترتابوا فيه أنه من عند الله تعالى، ونظيره قوله تعالى (وأن الساعة آتية لا ريب فيها)[٢٢٥] ، [٢٢٦] .

س٤ : لم قال هاهنا (لا ريب فيه) وفى موضع آخر (لا فيها

---

(٢٢٤) التفسير الكبير للرازى جـ٢/١٥ .

(٢٢٥) الحج/٧ .

(٢٢٦) الانمـــوذج الجليل فى أسئلة وأجوبة من غرائب آى التنزيل تصنيف الامام زيد الدين محمد بن أبى بكر بن عبد القادر بن عبد المحسن الرازى الحنفى ت٦٦٦هـ ط.الازهر ص ١٠ .

غول)[٢٢٧] ؟ • أى لم قدم الخبر فى سورة الصافات فى قوله (لا فيها غول) ولم أخره فى آية (لا ريب فيه) فى سورة البقرة ؟ •

وأجيب عن ذلك بأنهم يقدمون الأهم فالأهم ، وهاهنا الأهم نفى الريب بالكلية عن الكتاب ، ولو قلت : لا فيه ريب لأوهم أن هناك كتابا آخر حصل الريب فيه لا هاهنا ، كما قصد فى قوله (لا فيها غول) تفضيل خمر الجنة على خمور الدنيا ، فانهما لا تغتال العقول كما تغتالها خمر الدنيا •

س٥ : من أين يدل قوله (لا ريب فيه) على نفى الريب بالكلية ؟ •

الجواب : قرأ أبو الشعثاء (لا ريب فيه) نفى لماهية ــ ضعيفة ــ الريب ونفى الماهية يقتضى نفى كل فرد من أفراد الماهية ، لأنه لو ثبت فرد من أفراد الماهية لثبتت الماهية ، وذلك يناقض نفى الماهية ، ولهذا السر كان قولنا (لا اله الا الله) نفيا لجميع الآلهة سوى الله تعالى ، وأما قولنا (لا ريب فيه) بالرفع فهو نقيض لقولنا (ريب فيه) وهو يفيد ثبوت فرد واحد ، فذلك النفى يوجب انتفاء جميع الافراد ليتحقق التناقض[٢٢٨] •

والذى نخلص اليه أن الآية الكريمة تفيد نفى حقيقة ــ الماهية ــ الريب بالكلية عن القــرآن الكريم ، ومادامت الحقيقة قد نصبت ، فلا يوجد فرد من أفرادها ــ أما قراءة الرفع فانها لا تفيد هذا المعنى ــ لأنها لنفى الوحدة فقط •

قال الطاعن : كيف قال (هدى للمتقين)[٢٢٩] والمتقون مهتدون فكان فيه تحصيل الحاصل ؟ •

وأجيب عن ذلك بأنهم صاروا متقين بما استفادوا منه من الهدى• أو أراد أنه ثبات لهم على الهدى وزيادة فيه •

---

(٢٢٧) الصافات/٤٧ •
(٢٢٨) التفسير الكبير جـ٢/٢١ •
(٢٢٩) البقرة/٢ •

أو خصهم بالذكر لأنهم هم الفائزون بمنافعه حيث قبلوه واتبعون، كقوله تعالى : (انما أنت منذر من يخشاها)[٢٣٠] أو أراد الفريقـين : من يتقى ومن لم يتق واقتصر على أحدهما ، كقوله تعالى (سرابيل تقيكم الحر)[٢٣١] .

قال الطاعن : كيف قال : (فاتقوا النار)[٢٣٢] فعرف النار هنا ونكرها فى قوله (يأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نار)[٢٣٣] .

وأجيب عن ذلك بأن الخطاب فى هذه مع المنافقين وهم فى أسفل النار المحيطة بهم فعرفت بلام الاستغراق أو العهد الذهنى ، وفى تلك مع المؤمنين ، والذى يعذب من عصاتهم بالنار يكون فى جزء من أعلاها ، فناسب تنكيرها لتقللها .

وقيل لأن تلك الآية ــ آية التحريم ــ نزلت بمكة قبل هذه الآية فلم تكن النار التى وقودها الناس والحجارة معروفة فنكرها ، ثم نزلت هذه بالمدينة فعرفت بها اشارة بها الى ما عرفون أولا[٢٣٤] .

(ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشوة ولهم عذاب عظيم)[٢٣٥] .

س : لم جمع القلوب والابصار ووحد السمع ؟ .

ج : جمع الله عز وجل القلوب والابصار ووحد السمع فى الآية لعدة وجوه :

(١) أنه تعالى وحد السمع ، لأن لكل واحد منهم سمعا واحدا كما يقال : أتانى برأس الكبشين ، يعنى رأس كل واحد منهما ، كما وجد

---

(٢٣٠) النازعات/٤٥ .
(٢٣١) النحل/٨١ .
(٢٣٢) البقرة/٢٤ .
(٢٣٣) التحريم/٦ .
(٢٣٤) الانموذج الجليل فى أسئلة وأجوبة من غرائب التنزيل ص١٢ .
(٢٣٥) البقرة/٧ .

البطن فى قوله (كلوا فى بعض بطنكم تعيشوا) يفعلون ذلك اذا أمنوا اللبس ، فاذا لم يؤمن كقولك : فرسهم وثوبهم وأنت تريد الجمع رفضوه .

(٢) أن السمع مصدر فى أصله ، والمصادر لا تجمع يقال : رجلان صوم ، ورجال صوم ، فروعى الاصل ، يدل على ذلك جمع الأذن فى قوله : (وفى آذاننا وقر)[٢٣٦] .

(٣) أن نقدر مضافا محذوفا ، أى وعلى حواس سمعهم .

(٤) أنه وجد السمع الا أنه ذكر ما قبله وما بعده بلفظ الجمع ، وذلك يدل على أن المراد منه الجمع أيضا ، قال تعالى : (يخرجهم من الظلمات الى النور)[٢٣٧] .

وقال (عن اليمين وعن الشمال)[٢٣٨] .

قال الراعى :

بها جيف الحيدى فأما عظامها فبيعن وأما جلدها فصليب

وانما أراد جلودها .

وقرأ ابن أبى عبلة (وعلى أسماعهم)[٢٣٩] .

وسر افراد السمع مع جمع القلوب والابصار فى الآية الكريمة هو أن لكل واحد منهم سمعا واحدا . أو أن السمع مصدر والمصادر لا تجمع فى الاصل . أو أنه أفرد على تقدير مضاف . أو أنه أفرد وأريد به الجمع حيث جمع ما قبله وما بعده .

وأن أبا عبلة قرأ (وعلى أسماعهم) . ولكن هذه القراءة ضعيفة .

---

(٢٣٦) فصلت/٥ .

(٢٣٧) البقرة/٢٥٧ .

(٢٣٨) المعارج/٣٧ .

(٢٣٩) التفسير الكبير جـ٢/٥٦ .

١٠ — (تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وانك لمن المرسلين)[٢٤٠].

لم قال : (تلك) ولم يقل (هذه) مع أن (تلك) يشار بها الى غائب لا الى حاضر ؟ .

وأجيب عن ذلك بأن (تلك) وذلك يرجع الى معنى هذه وهذا ، وأيضا فهذه القصص لما ذكرت صارت بعد ذكرها كالشيء الذى انقضى ومضى ، فكانت فى حكم الغائب ، فلهذا التأويل قال : (تلك) وعلى هذا فانه قال (تلك) لأنها تقوم مقام هذا أو لأن القصص قد يحدث عنها وانقضى الحديث ، فصارت كأنها فى حكم الغيبة فأشير اليها بتلك .

١ — (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض)[٢٤١] .

— لم قال (تلك) ولم يقل (أولئك الرسل) صح أنه يشير الى الجمع ؟ وتلك يشار بها الى المفرد ؟ .

— والجواب عن ذلك انه قال (تلك) ولم يقل أولئك الرسل لأنه ذهب الى الجماعة ، كأنه قيل : تلك الجماعة الرسل بالرفع ، لأنه صفة لتلك ، وخبر الابتداء قوله تعالى (فضلنا بعضهم على بعض)[٢٤٢] .

أنه يقصد بالرسل الجماعة وتلك الجماعة .

١٢ — قال الله تعالى (للذين يؤولون من نسائهم تربص أربعة أشهر فان فاءوا فان الله غفور رحيم)[٢٤٣] .

قوله (من نسائهم) المتعارف أن يقال : حلف فلان على كذا أو آلى على كذا ، فلم أبدلت لفظة (على) هاهنا بلفظة (من) .

والجواب من وجهين :

الاول : أن يراد لهم من نسائهم تربص أربعة أشهر ، كما يقال لى منك كذا .

---

(٢٤٠) البقرة/٢٥٢ . (٢٤١) البقرة/٢٥٣ .

(٢٤٢) التفسير الكبير جـ٢/٢٠٨ . (٢٤٣) البقرة/٢٢٦ .

والثانى : أنه ضمن فى هذا القسم معنى البعد ، فكأنه قيـــل : يبعدون من نسائهم مولين أو مقسمين[٢٤٤] .

١٣ — قوله تعـــالى : (والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن ان كن يؤمن بالله واليوم الآخر)[٢٤٥] .

لو قال (يتربص المطلقات) لكان ذلك جملة من فعل وفاعل ، فما الحكمة فى ترى ذلك ، وجعل المطلقات مبتدأ ، ثم قوله (يتربصن) اسناد الفعل الى الفاعل ، ثم جعل هذه الجملة خبرا عن ذلك المبتدأ ؟ .

والجواب عن ذلك : قال الشيخ عبد القاهر الجرجانى فى كتاب دلائل الاعجاز : انك اذا قدمت الاسم فقلت (زيد فعل) فهذا يفيد من التأكيد والقوة ما لا يفيده قولك (فعل زيد) وذلك لأن قولك (زيد فعل) يستعمل فى أمرين :

أحدهما : أن يكون لتخصيص ذلك الفاعل بذلك الفعل ، كقولك : أنا أكتب فى المهم الفـــلانى الى السلطان ، والمراد دعوى الانسان الانفراد .

الثانى : أن لا يكون المقصود ذلك ، بل المقصود أن تقديم ذكر المحدث عنه بحديث كذا لاثبات ذلك الفعل كقولهم : (هو يعطى الجزيل) لا يريد الحصر بل ان يحقق عند السامع أن اعطاء الجزيل دأبه .

قوله تعالى (والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون)[٢٤٦] ليس المراد تخصيص المخلوقية وقوله تعالى : (واذا جاءوكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به)[٢٤٧] .

---

(٢٤٤) التفسير الكبير جـ٦/٨٦ المجلد الثالث .
(٢٤٥) البقرة/٢٢٨ .
(٢٤٦) النحل/٢٠ .
(٢٤٧) المائدة/٦١ .

وقول الشاعر :

هما يلبسان المجد أحسن لبسه　　　شجيعان ما استطاعا عليه كلاهما

والسبب فى حصول هذا المعنى عند تقديم ذكر المبتدأ أنك اذا قلت : (عبد الله) فقد أشعرت بأنك تريد الاخبار عنه ، فيحصل فى العقل شوق الى معرفة ذلك ، فاذا ذكرت ذلك الخبر قبله العقل قبول العاشق لمعشوقه ، فيكون ذلك أبلغ فى التحقيق ونفى الشبهة .

والذى نخلص اليه آن :

أن جملة (والمطلقات يتربصن) أبلغ من يتربص المطلقات لأن فى الجملة الاولى تكرار الاسناد الى المبتدأ مما يفيدا توكيد الحكم وتقويته.

ـ أن تقديم المتحدث عنه وهو المطلقات يبث فى نفس السامع الشوق الى الخبر ، فاذا ذكر الخبر بعد ذلك قبله العقل وسكن فى النفس .

س : قوله (يتربصن) لاشك أنه خبر ، والمراد منه الامر فما الفائدة فى التعبير عن الامر بلفظ الخبر ؟ .

والجواب عنه من وجهين :

الاول :

أنه تعالى لو ذكره بلفظ الامر لكان ذلك يوهم أنه لا يحصل المقصود الا اذا شرعت فيها بالقصد والاختيار .

وعلى هذا التقدير فلو مات الزوج ، ولم تعلم المرأة ذاك حتى انقضت العدة وجب أن لا يكون ذلك كافيا فى المقصود ، لأنها لما كانت مأمورة بذلك لم تخرج عن العدة الا اذا قصده أداء التكليف ، أما لما ذكر الله تعالى هذا التكليف بلفظ الخبر زال الوهم ، وعرف أنه مهما انقضت هذه العدة حصل المقصود سواء علمت ذلك أو لم تعلم ، وسواء شرعت فى العدة بالرضا أو الغضب .

الثـــانى :

قال صاحب الكشاف : التعبير عن الامر بصيغة الخبر يفيد تأكيد الامر اشعارا بأنه مما يجب أن يتعاق بالمسارعة الى امتثاله ، فكأنهن امتثلن الامر بالتربص ، فهو يخبر عنه موجودا ونظيره قولهم فى الدعاء: (رحمك الله) آخرج فى صورة الخبر ثقة بالاجابة كأنها وجدت الرحمة فهو يخبر عنها •

والذى نخلص اليه يتمثل فيما يلى :

أن السر فى التعبير بالخبر عن الامر فى قوله (والمطلقات يتربصن) حيث استعمل المضارع يتربصن بدلا من الامر (تربصن) لما يأتى :

١ — أن التعبير بالخبر أزال الوهم حينما يستعمل الامر ، لأن الامر يقتضى الامتثال له عن قصد • ويترتب على ذلك أنه لا يعفيها من أدائها قصدا •

أما التعبير بالخبر فأزال هذا الوهم وأفاد أنه تنتهى العدة سواء علمت المرأة بالوفاة أو لم تعلم ، أى فلا يشترط فيها القصد ، لهـذا كان التعبير بالخبر أبلغ •

٢ — التعبير بالخبر (يتربصن) عن الامر (تربصن) يفيد توكيد الامر حيث أنه يخبر عنه كأنه موجود ، أما الامر فانه انشاء أى غير موجود ومن هنا كان التعبير بالمضارع توكيدا للأمر حيث وكأنه حاصل واقع •

س : هلا قيل : (يتربصن ثلاثة قروء) ، كما قيل : (تربص أربعة أشهر) وما الفائدة فى ذكر الأنفس ؟ •

فى ذكر الأنفس تهييج لهن على التربص وزيادة بعث لأن فيـــه ما يستنكفن منه فيحملهن على أن يتربصن وذلك لأن أنفس النســاء طوامح الى الرجال ، فأاراد أن يقمن أنفسهن ويقلبنها على الطمـــوح ويجبرنها على التربص •

س : لفظ (الأنفس) جمع قلة مع أنهن نفوس كثيرة ، والقروة جمع كثرة فلم ذكر جمع الكثرة مع أن المراد هذه القروء الثلاثة وهى قليلة ؟.

والجواب أنهم يتسعون فى ذلك فيستعملون كل واحد من الجمعين مكان الآخر لاشتراكهما فى معنى الجمعية .

أو لعل القروء كانت أكثر استعمالا فى جمع قرء من الاقراء .

س : لم لم يقل : ثلاث قروء ، كما يقال : ثلاثة حيض ؟ .

لم يقل ثلاث قروء ، كما يقال ثلاثة حيض ، لأنه اتبع تذكير اللفظ ولفظ القروء مذكر[٢٤٨] .

س : كيف قال : (وبعولتهن أحق بردهن فى ذلك)[٢٤٩] ولا حق للنساء فى الرجعة ، وأفعل يقتضى الاشتراك ؟ .

والجواب أن المراد أن الزوج اذا أراد الرجعة وأبت وجب ايثار قوله على قولها ، لأن لها حقا فى الرجعة[٢٥٠] .

وقال الالوسي : (أحق بردهن) الى النكاح والرجعة اليهـن ، وهذا اذا كان الطلاق رجعيا للآية بعدها ، فالضمير — بعـد اعتبار القيد — أخص من المرجوع اليه ، ولا امتناع فيه كما اذا كرر الظاهر.

و (أحق) هاهنا بمعنى حقيق ، عبر عنه بصيغة التفضيل للمبالغة، كأنه قيل : للبعولة حق الرجعة ، أى حق محبوب عبد الله تعالى بخلاف الطلاق فانه مبغوض ، ولذا ورد للتنفير عنه (أبغض الحلال الى الله تعالى الطلاق)[٢٥١] وانما لم يبق على معنـاه من المشاركة والزيادة

---

(٢٤٨) التفسير الكبير للرازى ج٦/٩٣ — ٩٤ .

(٢٤٩) البقرة/٢٢٨ .

(٢٥٠) الانموذج الجليل ص٢٨ .

(٢٥١) أبو داود فى الطلاق ، باب فى كراهية الطلاق رقم ٢١٧٨ ، ابن ماجه رقم ٢٠١٨ .

اذ لا حق للزوجة فى الرجعة كما لا يخفى[٢٥٢] .

وعلى هـذا فان الالوسى قد خالف الرأى الاول وصرف لفـظ (أحق) الى معنى حقيقى — ورأى أنه لا حق للزوجة فى الرجعة — وعبر عنه بصيغة التفضيل للمبالغة كأنه قال : للبعولة حق الرجعة .

وقد يقال : ما فائدة قوله (أحق) مع أنه لا حق لغير الزوج فى ذلك ؟ .

والجواب من وجهين :

الاول :

أنه تعالى قال قبل هذه الآية (ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن)[٢٥٣] كان تقدير الكلام : فانهن ان كتمن لأجل أن يتزوج بهن زوج آخر ، فاذا فعلن ذلك كان الزوج الاول أحق بردهن ، وذلك لأنه ثبت للزوج الثانى حق فى الظاهر ، فبين أن الزوج الاول أحق منه ، وكذا اذا ادعت انقضاء أقرائها ثم علم خلاف ، فالزوج الاول أحق من الزوج الآخر فى العدة .

الثـانى :

اذا كانت معتدة فلها فى مضى العدة حق انقطاع النكاح فلما كان لهن هذا الحق الذى يتضمن ابطال حق الزوج جاز أن يقول : (وبعولتهن أحق) من حيث أن لهم أن يبطلوا بسبب الرجعة ما هى عليه من العدة.

س : قال الطاعن : ما فائدة قوله (فى ذلك) ؟ .

والجواب أن حق الرد انما يثبت فى الوقت الذى هو وقت التربص، فاذا انقضى ذلك الوقت فقد بطل حق الردة والرجعة .

---

(٢٥٢) روح المعانى للألوسى ج٢/١٣٤ من المجلد الاول .

س : قال الطاعن : ان كلمة (ان) للشرط ، والشرط يقتضى انتفاء الحكم عند انتفائه ، فيلزم اذا لم توجد ارادة الاصلاح أن لا يثبت حق الرجعة .

والجواب : أن الارادة صفة باطنة لا اطلاع لنا عليها ، فالشرع لم يوقف صحة المراجعة عليها ، بل جوازها فيما بينه وبين الله موقوف على هذه الارادة ، حتى انه لو راجعها لقصد المضارة استحق الاثم[٢٥٤] .

١٤ — قال الله تعالى (انما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون)[٢٥٥] .

قوله تعالى (لا يؤمنون بآيات الله) فعل ، وقوله عز وجل : (وأولئك هم الكاذبون) اسم ، وعطف الجملة الاسمية على الفعلية قبيح ، فما السبب فى حصولها هاهنا ؟ .

وأجيب عن ذلك بأن الفعل قد يكون لازما ، وقد يكون مفارقا ، والدليل عليه قوله تعالى (ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين)[٢٥٦] ذكره بلفظ المفضل تنبيها على أن ذلك السجن لا يدوم .

وقال فرعون لموسى عليه الصلاة والسلام : (لئن اتخذت الها غيرى لأجعلنك من المسجونين)[٢٥٧] ذكره بصيغة الاسم تنبيها على الدوام ، وصيغة الاسم تفيده .

وعلى هذا فان قوله تعالى (انما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله)[٢٥٨] ذكر ذلك تنبيها على أن صفة الكذب فيهم ثابتة راسخة

---

(٢٥٣) البقرة/٢٢٨ .
(٢٥٤) التفسير الكبير ج٦/١٠٠ .
(٢٥٥) النحل/١٠٥ .
(٢٥٦) يوسف/٣٥ .
(٢٥٧) الشعراء/٢٩ .
(٢٥٨) النحل/١٠٥ .

دائمة ، وهذا كما تقـول : كذبت وأنت كاذب ، فيكون قولك : وأنت كاذب زيادة فى الوصف بالكذب ، ومعناه : ان عادتك أن تكون كاذبا[٢٥٩].

١٥ — (ان المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضـا حسنا ، يضاعف لهم ولهم أجر كريم)[٢٦٠] .

فى الآية أشكال وهو أن عطف الفعل على الاسم قبيح فما الفائدة فى التزامه هنا ؟ .

قال صاحب الكشاف : قوله : (وأقرضوا) معطوف على معنى الفعل فى المصدقين ، لأن اللام بمعنى الذين ، واسم الفاعل بمعنى صدقوا ، كأنه قيل : ان الذين صدقوا وأقرضوا .

وهذا لا يزيل الاشكال فانه ليس فيه بيان أنه لم عدل عن ذلك اللفظ الى هذا اللفظ ، والذى عندى فيه أن الألف واللام فى المصدقين والمصدقات للمعهود ، فكأنه ذكر جماعة معينين بهذا الوصف ، ثم قبل ذكر الخبر عنهم بأنهم أتوا بأحسن أنواع الصدقة ، وهو الاتيان بالقرض الحسن ، ثم ذكر الخبر بعد ذلك وهو قوله (يضاعف لهم) فقـوله (وأقرضوا الله) هو المسمى بحشو اللوزنج كما فى قوله :

ان الثمـانين وبلغتهـا قد أحوجت سمعى الى ترجمان

والذى نخلص اليه أن المطاعن فى كتاب الله قد قال : لماذا عطف الفعل الماضى — أقرضتم — على الاسم ، مع أن عطف الفعـل على الاسم ضعيف ؟ .

وأجيب عنه بأن قوله تعالى (أقرضوا) معطوف على معنى الفعل

---

(٢٥٩) التفسير الكبير للرازى ج ١٢١/٢٠ من المجلد العاشر .

(٢٦٠) الحديد/١٨ .

فى المصدقين ، لأن اللام اسم موصول بمعنى الذين ، واسم الفاعل بمعنى صدقوا : كأنه قيل : ان الذين صدقوا وأقرضوا .

وانتقد الرازى صاحب الكشاف بأن رده لا يزيل الاشكال فانه فيه بيان ، ورأى أن الألف واللام فى المصدقين للمعهود وكأنه ذكر جماعة معينين بهذا الوصف ، ثم قبل ذكر الخبر النحوى أخبر عنهم بأسلوب خبرى بأنهم أتوا بأحسن أنواع الصدقة ، وهو الاتيان بالقرض الحسن ، ثم ذكر الخبر بعد ذلك — خبر ان — وهو قوله تعالى : (يضاعف لهم) ، فقوله تعالى (وأقرضوا الله) هو المسمى بحشو اللوزنج .

والذى يبدو لى أن رأى الرازى لا يليق ، لأنه أطلق على جملة أقرضوا ، أنها حشو وكيف ذلك ، وهى تخبر عن صفة أخرى من صفات المتقين وهو ايقاعهم بالقرض الحسن ، وهو أعلى أنواع الصدقة ، واستشاده بالبيت لا يليق أيضا لأنه قياس مع الفارق ، فجملة (وبلغتها) ممكن أن تكون حشوا ، لأنه يجوز حذفها دون أن يتأثر المعنى.

— (وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أءنا لمبعوثون)[٢٦١] .

كيف قال : (متنا) بكسر الميم ، مع أن استعمال القرآن فى المستقبل يموت ، قال تعالى عن يحيى وعيسى عليهما السلام (ويوم أموت)[٢٦٢] . ولم يقرأ : أمات على وزن أخاف . وقال تعالى (قل موتوا)[٢٦٣] ولم يقل : قل ماتوا وقال تعالى (ولا تموتن) ولم يقل : ولا تماتوا ، كما قال (ولا تخافوا) ؟ [٢٦٤] .

قلنا فيه وجهان :

---

(٢٦١) الكشاف جـ٤/ .

(٢٦٢) التفسير الكبير للرازى جـ ٣٠/٢٣٢ .

(٢٦٣) الواقعة/٤٧ . (٢٦٤) مريم/٣٣ .

أحدهما : أن هذه الكلمة خالفت غيرها ، فقيل فيهـــا : (أموت) والسماع مقدم على القياس •

والثانى : مات يمات لغة فى مات يموت ، فاستعمل ما فيها للكسر لأن الكسر فى الماضى يوجد أكثر الامرين :

أحدهما : كثرة يفعل على يفل •

وثانيهما : كونه على فعل يفعل ، مثل : خاف يخاف ، وفى مستقبلها الضم لأنه يوجد لسببين :

أحدهما : كون الفعل على فعل يفعل ، مثل : طال يطـــول ، فان وصفه بالتطويل دون الطائل يدل على أنه من باب قصر يقصر •

وثانيهما : كونه على (فعل يفعل) تقـــول : (فعلت) فى الماضى بالكسر ، وفى المستقبل بالضم •

س : كيف أتى باللام المؤكدة فى قوله : (لمبعوثون) مع أن المراد هو النفى ، وفى النفى لا يذكر فى خبر (ان) للام يقال : ان زيدا ليجىء وان زيدا لا يجىء ، فلا تذكر اللام ، وما مرادهم بالاستفهام الا الانكار بمعنى انا لا نبعث ؟ •

والجواب عنه من وجهين :

أحدهما : عنـــد ارادة التصريح بالنفى يوجد التصريح بالنفى وصيغته •

ثانيهما : أنهم أرادوا تكذيب من يخبر عن البعث فذكروا أن المخبر عنه يبالغ فى الاخبار ، ونحن نستكثر مبالغته وتأكيده ، فحكوا كلامهم على طريقة الاستفهام بمعنى الانكار ، ثم انهم أشاروا فى الانكـــار الى أمور أعتقدوها مقررة لصحة انكارهم فقالوا :

١ ــ (أئذا متنا) ولم يقتصروا عليه بل قالوا بعده (وكنا ترابا وعظاما) أى فطال عهدنا بعد كوننا أمواتا حتى صارت اللحوم ترابا

والعظام رفاتا ، ثم زادوا وقالوا مع هذا يقال لنا (انكم لمبعوثون) بطريق التأكيد من ثلاثة أوجه : استعمال كلمة (ان) ، واثبات اللام فى خبرها ، وترك صيغة الاستقبال والاتيان بالمفعول كأنه كائن ، فقالوا لنا (انكم لمبعوثون) ثم زادوا وقالوا (أو آباؤنا الأولون) يعنى هذا أبعد فانا اذا كنا ترابا بعد موتنا ، والآباء حالهم فوق حال العظام الرفات ، فكيف يمكن البعث ؟ •

ومعنى (أوباؤنا الأولون) : أو يقولوا آباؤنا الاولون اشارة الى أنهم فى الاشكال أعظم ، ثم ان الله تعالى أجابهم ورد عليهم فى الجواب فى كل مبالغة بمبالغة أخرى فقال : (قل ان الأولين والآخرين لمجموعون الى ميقات يوم معلوم) •

قوله تعالى (يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصى والأقدام)[٢٦٥] اعترض بعض الملحدين على افراد الفعل (يؤخذ) مع أن المجرمين جمع وهم المأخوذون ؟ وكان المفروض أن يقال : فيؤخذون •

نقول فيه وجهان :

أحدهما : أن يؤخذ متعلق بقوله تعالى (بالنواصى) كما يقول القائل ذهب بزيد • وعلى هذا فالجار والمجرور هو نائب الفاعل •

وثانيهما : أن يتعلق بما يدل عليه يؤخذ ، فكأنه تعالى قال : فيؤخذون بالنواصى •

فان قيل : كيف عدى الأخذ بالباء وهو يتعدى بنفسه ، قال تعالى: (لا يؤخذ منكم فدية)[٢٦٦] وقال (خذها ولا تخف) [٢٦٧] ؟ •

تقول : الاخذ يتعدى بنفسه كما بينت ، وبالباء أيضا كقوله تعالى (لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى) لكن فى الاستعمال تدقيق ، وهو أن

---

(٢٦٥) الرحمن/٤١ •
(٢٦٦) الحديد/١٥ •
(٢٦٧) طه/٢١ •

المأخوذ ان كان مقصودا بالأخذ توجه الفعل نحوه فيتعدى اليه من غير حرف ، وان كان المقصود بالأخذ غير الشيء المأخوذ ما تعـدى اليه بحرف ، لأنه لما لم يكن مقصودا فكأنه ليس هو المأخوذ ، وكأن الفعل لم يتعد اليه بنفسه ، فذكر الحرف ويدل على ما ذكرنا استعمال القرآن، فان الله تعالى قال (خذها ولا تخف) فى العصا ، وقال تعالى (وليأخذوا أسلحتهم) وقال (وأخذ الالواح) الى غير ذلك • فلما كان ما ذكر هو المقصود بالأخذ عدى الفعل اليه من غير حرف •

وقال جل ثناؤه (لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى) وقال : (فيؤخذ بالنواصى والأقدام) ويقال : (خذ بيدى وأخذ الله بيدك) الى غير ذلك مما يكون المقصود بالأخذ غير ما ذكرنا •

ومجمل القول فى ذلك أن الملحد قد اعترض بقوله : كيف عدى الاخذ بالباء وهو يتعدى بنفسه ؟ •

وأجيب عنه بأن الاخذ يتعدى بنفسه كالآيتين السابقتين ، ويتعدى بالباء أيضا كما فى قوله تعالى (لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى) ، وعلى هذا فان الاعتراض لا وجه له ولا محل •

ولكى متى يتعدى الفعل (أخذ) بنفسه ومتى يتعدى بالباء ؟

قيل ان المأخوذ ان كان مقصودا بالاخذ لذاته توجه الفعل نحوه فيتعدى اليه من غير حرف كمـا فى (خذها ولا تخف) و (ليأخذوا أسلحتهم) وان كان المقصود بالاخذ غير الشيء المأخوذ ما تعدى اليه بحرف الجر كما فى (يؤخذ بالنواصى والاقدام) و (لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى) •

فان قيل : ما الفائدة فى توجيه الفعل الى غير ما توجه اليه الفعل الاول ، ولم قال : (يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصى) ؟•

نقول فيه بيان نكالهم وسوء حالهم ، ونبين هذا بتقديم مثـال وهو : أن القائل اذا قال : (ضرب زيد فقتل عمرو) فان المفعول فى باب

ما لم يسم فاعله قائم مقام الفاعل وشبه به ، ولهذا أعرب اعرابه ، فلو لم يوجه يؤخذ الى غير معلوم اليه يعرف لكأن الاخذ فعل من عرف ، فيكون مكانه قال : يعرف المجرمين عارف فيأخذهم ذلك العارف، لكن المجرم يعرفه بسيماه كل أحد ، ولا يأخذه كل من عرف بسيماه ، بل يمكن أن يقال : قوله : (يعرف المجرمون بسيماهم) المراد يعرفهم الناس والملائكة الذين يحتاجون فى معرفتهم الى علامة ، أما كتبة الاعمال والملائكة الغلاظ الشداد فيعرفونهم كما يعرفون أنفسهم من غير احتياج الى علامة .

وبالجملة فان قوله (يعرف) معناه يكونون معروفين عند كل أحد فلو قال : يؤخذون ، يكون كأنه قال : فيكونون مأخوذين لكل أحد .

كذلك اذا تأملت فى قول القائل (شغلت فضرب زيد) علمت عند توجه التعليق الى مفعولين دليل تغاير الشاغل والضارب ، لأنه يفهم منه أنى شغلنى شاغل فضرب زيدا ضارب ، فالضارب غير ذلك الشاغل، واذا قلت (شغل زيد فضرب) لا يدل على ذلك حيث توجه الى مفعول واحد ، وان كان يدل فلا يظهر مثل ما يظهر عند توجهه الى مفعولين.

أما بيان النكال ، فلأنه لما قال : (فيؤخذ بالنواصى) بين كيفية الاخذ وجعلها مقصود الكلام ، ولو قال : فيؤخذون ، لكان الكلام يتم عنده ، ويكون قوله (بالنواصى) فائدة جاءت بعد تمام الكلام ، فلا يكون هو المقصود ، وأما اذا قال (فيؤخذ) فلابد له من أمر يتعلق به فينظر السامع وجود ذلك ، فاذا قال : بالنواصى يكون هذا هو المقصود ، وفى كيفية الاخذ ظهور نكالهم ، لأن فى نفس الاخذ بالناصية الا اذلالا واهانة ، وكذلك الاخذ بالقدم ، لا يقال : قد ذكرت أن التعدية بالباء انما تكون حيث لا يكون المأخوذ مقصودا ، والآن ذكرت أن الاخذ بالنواصى هو المقصود ، لأنا نقول : لا تنافى بينهما ، فان الاخذ بالنواصى مقصود الكلام والناصية ما أخذت لنفس كونها ناصية ، وانما أخذت ليصير صاحبها مأخوذا .

وفرق بين مقصود الكلام وبين الاخذ[٢٦٨] .

١٧ ــ قوله تعالى (وقطعناهم اثنتى عشرة أسباطا أمما)[٢٦٩] هاهنا سؤالان :

س١ : مميز ماعدا العشرة مفرد ، فما وجه مجيئه مجمــوعا ، وهلا قيل : اثنى عشر سبطا .

س٢ : قال : (اثنتى عشرة أسباطا) مع أن السبط مذكر لا مؤنث.

وأجيب عن الاول بأن المراد وقطعناهم اثنتى عشرة قبيلة ، وكل قبيلة أسباط ، فوضع أسباطا موضع قبيلة .

والجواب عن الثانى أنه انما قال ذلك ــ(اثنتى عشرة أسباطا)ــ لأنه تعالى ذكر بعده أمما ، فذهب التأنيث الى الامم .

ثم قال : ولو قال : اثنى عشر لأجل أن السبط مذكر كان جائزا . وهذا قول الفراء .

وقال الزجاج : المعنى وقطعنــاهم اثنتى عشرة فرقة (أسباطا) فقوله (أسباطا) نعت لموصوف محذوف ، وهو الفرقة .

وقال أبو على الفارسى : ليس قوله (أسباطا) تمييزا ، ولكنه بدل من قوله (اثنتى عشرة)[٢٧٠] .

وأما قوله (أمما) فقد قال صاحب الكشاف هو بدل من (اثنتى عشرة) بمعنى وقطعناهم أمما ، لأن كل سبط كانت أمة عظيمة وجماعة كثيفة العدد ، وكل واحدة كانت تؤوم خلاف ما تؤمه الاخرى ولا تكاد تأتلف[٢٧١] .

---

(٢٦٨) التفسير الكبير ج٢٩/١٢٢ المجلد الخامس عشر .
(٢٦٩) الاعراف/١٦٠ .
(٢٧٠) التفسير الكبير للرازى ج ٥/٣٦ من المجلد الثامن .
(٢٧١) الكشاف ج٢/١٢٤ .

والذى نخلص اليه أن الطاعن — قبح الله وجهه — قد قال : ان تمييز ماعدا العشرة مفرد فما وجه مجيئه مجموعا ؟ وهلا قيل : اثنتى عشرة سبطا ؟ .

وأجيب عن ذلك بأن المراد وقطعناهم اثنتى عشرة قبيلة ، وكل قبيلة أسباطا ، فوضع أسباطا موضع قبيلة ، والتقدير : وقطعناهم اثنتى عشرة قبيلة أسباطا ، فالجمع هنا اذن ليس باعتبار العدد ، وانما باعتبار التمييز المقدر وهو قبيلة .

وبعد ذلك قال الطاعن قال (اثنتى عشرة أسباطا) مع أن السبط مذكر لا مؤنث ، والمعروف أن العدد واحد واثنين يوافقان المعدود تذكيرا وتأنيثا .

وأجيب عن ذلك بأنه انما قال ذلك — (اثنتا عشرة أسباطا) — لأنه جل ثناؤه ذكر بعده (أمما) ، فذهب التأنيث الى الامم .

ورأى الزجاج أن المعنى : وقطعناهم اثنتى عشرة فرقة أسباطا وقوله (أسباطا) نعت لموصوف محذوف وهو الفرقة ، ففى الآية على رأى للزجاج ايجاز بالحذف .

ورأى أبو على الفارسى أن قوله (أسباطا) ليست تمييزا ولكنه بدل مطابق من قوله : اثنتى عشرة ، وأما قوله (أمما) فقد قال صاحب الكشاف هو بدل من اثنتى عشرة ، ومعنى وقطعناهم أمما لأن البدل يحل محل المبدل منه ، لأن كل سبط كانت أمة عظيمة وجماعة كثيفة العدد .

قوله تعالى (هذان خصمان اختصموا فى ربهم فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رؤوسهم الحميم . يصهر به ما فى بطونهم والجلود ، ولهم مقامع من حديد ، كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق . ان الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار ، يحلون فيها

من أساور من ذهب ولؤلؤ ولباسهم فيها حرير ، وهدوا الى الطيب من القول وهدوا الى صراط الحميد)[٢٧٢] .

قال الطاعن فى كتاب الله تعالى : ان الصواب أن يقول : اختصما فى ربهم .

وأجيب عن ذلك بأن الخصم صفة وصف بها الفوج أو الفريق فكأنه قيل : هذان فوجان ، أو فريقان يختصمان ، فقوله : (هذان) للفظ[٢٧٣] ، والاشارة الى المؤمنين والكفار على العموم ، ويدل على ذلك ما ذكر قبلها من اختلاف الناس فى أديانهم[٢٧٤] .

وعلى هذا فانه لما كان كل خصم فريقا ، يجمع طائفة جاء اختصموا بصيغة الجمع ، ولو أنه قال : اختصما لم يقم دليل على أنهم جماعة فينصرف الذهن الى التثنية الحقيقية ، وذلك يتنزه عنه كلام الله تعالى ، ومن القواعد المقررة فى اللغة العربية التى لا جدال فيها أن مرجع الضمير يصح أن يلاحظ فيه لفظه ، ويصح أن يلاحظ فيه معناه[٢٧٥] .

والذى نخلص اليه أن الطاعن — قبح الله وجهه — قال : ان الصواب أن يقول : اختصما فى ربهم .

وأجيب عن ذلك بأن صفة وصف بها الفوج أو الفريق فكأنه قيل: هذان فوجان أو فريقان يختصمان .

وقوله (هذان) مثنى عن اللفظ ، والاشارة الى المؤمنين والكفار على العموم ، ويدل على ذلك ما ذكر قبلهما من اختلاف الناس فى

---

(٢٧٢) الحج/١٩ — ٢٤ .
(٢٧٣) التفسير الكبير للرازى جـ٢٣/٢٢ من المجلد الثانى عشر .
(٢٧٤) التسهيل لعلوم التنزيل للكلبى جـ٣/٣٨ وتفسير العلامة ابى السعود جـ٤/١٣ وروح المعانى للألوسى جـ١٧/١٣٣ من المجلد السادس.
(٢٧٥) أدلة اليقين ص٤٨١ .

أديانهم . وعلى هذا فانه لما كان كل خصم فريقا ، ويجمع طائفة من الناس جاء (اختصموا) بصيغة الجمع على المعنى . ولو أنه قال : (اختصما) لم يكن دليل على أنهم جماعة فينصرف الذهن الى التثنية الحقيقية ، وذلك يتنزه عنه كلام الله تعالى .

ومن القواعد المقررة فى العربية — والتى لاجدال فيها — أن مرجع الضمير يصح أن يلاحظ فيه لفظه ويصح أن يلاحظ فيه معناه .

١٨ — قال الله تعالى (فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك فاذا أمنتم فمن تمتع بالعمرة الى الحج فما استيسر من الهدى فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة اذا رجعتم تلك عشرة كاملة)[٢٧٦] .

طعن الملاحدة قبحهم الله فى قوله تعالى (تلك عشرة كاملة)

من عدة وجوه :

أحدهما : أن من المعلوم ضرورة أن الثلاثة والسبعة عشرة فذكره يكون ايضاحا للواضح .

والثانى : أن قوله (كاملة) يوهم وجود عشرة غير كاملة فى كونها عشرة وذلك محال[٢٧٧] .

والثالث : يرى الملحد أن الصواب : تلك عشرة كاملة[٢٧٨] .

وقد ذكر العلماء فوائد كثيرة فى هذا الكلام منها :

١ — أن الواو فى قوله (وسبعة اذا رجعتم) ليس نصا قاطعا فى الجمع ، بل قد تكون بمعنى (أو) كما فى قوله (مثنى وثلاث ورباع)[٢٧٩]،

---

(٢٧٦) البقرة/١٩٦ .

(٢٧٧) التفسير الكبير للرازى ج ٥/١٦٨ .

(٢٧٨) أدلة اليقين ص٤٧٦ .

(٢٧٩) النساء/٣ .

وكما فى قولهم : (جالس الحسن وابن سيرين)[280] ، أى جالس هذا أو هذا ، فالله تعالى ذكر قوله (عشرة كاملة) ازالة لهذا الوهم .

٢ ـ أن المعتاد أن يكون البدل أضعف حالا من المبدل ، كما فى التيمم مع الماء[281] ، فالله تعالى بين أن هذا البدل ليس كذلك ، بل هو كامل فى كونه قائما مقام المبدل ليكون الفاقد للهدى المتحمل لطائفة الصوم ساكن النفس الى ما حصل له من الاجر الكامل من عند الله ، وذكر العشرة انما هو لصحة التوصل به الى قوله (كاملة) ، كأنه لو قال: تلك كاملة ، جوز أن يراد به الثلاثة المفردة عن السبعة ، أو السبعة المفردة عن الثـــلاثة ، فلابد فى هذا من ذكر العشرة ، وقوله (كاملة) يحتمل بيان الكمال من ثلاثة أوجه :

(أ) أنها كاملة فى البدل عن الهدى قائمة مقامه .

(ب) أنها كاملة فى أن ثواب صاحبه كامل مثل ثواب من يأتى بالهدى من القادرين عليه .

(جـ) أنها كاملة فى أن حج المتمتع اذا أتى بهذا الصيام يكون كاملا ، مثل حج من لم يأت بهذا التمتع .

٣ ـ أن الله تعالى اذا قال : أوجبت عليكم الصيام عشرة أيام ، لم يبعد أن يكون هناك دليل يقتضى خروج بعض هذه الايام عن هذا اللفظ ، فان تخصيص العام كثير فى الشرع والعرف ، فلو قال : ثلاثة أيام فى الحج وسبعة اذا رجعتم ، بقى احتمال أن يكون مخصوصا بحسب بعض الدلائل المخصصة . فاذا قال بعده : تلك عشرة كاملة ، فهذا يكون تنصيصا على أن هذا المخصص لم يوجد البتة ، فتكون دلالته أقوى ، واحتماله للتخصيص والنسخ أبعد .

---

(٢٨٠) حروف المعانى بين دقائق النحو ولطائف الفقه ص١٥٣ للمؤلف.

(٢٨١) ينظر تفصيل ذلك فى : فقه الامام الليث بن سعد فى ضوء الفقه المقارن للمؤلف ص٥٦ ـ ٦١ .

٤ — أن مراتب الاعداد أربعة : آحاد ، وعشرات ، ومئات ، وألوف ، وما وراء ذلك فاما أن يكون مركبا أو مكسورا[٢٨٢] ، وكون العشرة عددا موصوفا بالكمال بهذا التفسير أمر يحتاج الى التصريف ، فصار تقدير الكلام : انما أوجبت هذا العدد لكونه عددا موصوفا بصفة الكمال خاليا عن الكسر والتركيب .

٥ — أن التوكيد طريقة مشهورة فى كلام العرب ، كقوله (ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور)[٢٨٣] وقال (ولا طائر يطير بجناحيه)[٢٨٤] والفائدة فيه أن الكلام الذى يعبر عنه بالعبارات الكثيرة ويعرف بالصفات الكثيرة أبعد عن السهو والنسيان من الكلام الذى يعبر عنه بالعبارة الواحدة ، فالتعبير بالعبارات الكثيرة يدل على كونه فى نفسه مشتملا على مصالح كثيرة ولا يجوز الاخلال بها ، واذا كان التوكيد مشتملا على هذه الحكمة ، كان ذكره فى هذا الموضع دلالة على أن رعاية العدد فى هذا الصوم من المهمات التى لا يجوز اهمالها البتة .

٦ — بيان فائدة هذا الكلام : أن هذا الخطاب مع العرب ، ولم يكونوا أهل حساب ، فبين الله تعالى ذلك بيانا قاطعا للشك والريب ، وهذا كما روى أنه قال فى الشهر : هكذا هكذا وأشار بيديه ثلاثا ، وأشار مرة أخرى وأمسك ابهامه فى الثالثة منبها بالاشارة الاولى على ثلاثين ، وبالثانية على تسعة وعشرين .

٧ — أن هذا الكلام يزيل الابهام المتولد من تصحيف الخط ، وذلك لأن سبعة وتسعة متشابهتان فى الخط ، فاذا قال بعده تلك عشرة كاملة ، زال هذا الاشتباه .

٨ — أن قوله (فصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة اذا رجعتم)

---

(٢٨٢) أى مجموعا جمع تكسير .

(٢٨٣) الحج/٤٦ .

(٢٨٤) الانعام/٣٨ .

يحتمل أن يكون المراد منه أن يكون الواجب بعد الرجوع أن يكمل سبعة أيام ، على أنه يحسب من هذه السبعة تلك الثلاثة المتقدمة ، حتى يكون الباقى عليه بعد من الحج أربعة سوى تلك الثلاثة المتقدمة ، فهذا الكلام محتمل لهذين الوجهين ، فاذا قال بعده (تلك عشرة كاملة) زال هذا الاشكال ، وبين أن الواجب بعد الرجوع سبعة سوى الثلاثة المتقدمة .

٩ — أن اللفظ وان كان خبرا لكن المعنى أمر ، والتقدير : فلتكن تلك الصيامات صيامات كاملة ، لأن الحج المأمور به حج تام حتى يكون جابرا للخلل الواقع فى ذلك الحج ، الذى يجب أن يكون تاما كاملا ، والمراد بكون هذه الصيامات كاملة ما ذكرنا فى بيان كون الحج تاما ، وانما عدل عن لفظ الامر الى لفظ الخبر ، لأن التكليف بالشىء اذا كان متاكدا جدا فالظاهر دخول المكلف به فى الوجود ، فلهذا السبب جاز أن يجعل الاخبار عن الشىء بالوقوع كناية عن تاكد الامر به ، ومبالغة الشرع فى ايجابه .

١٠ — أنه سبحانه وتعالى لما أمر بصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة بعد الرجوع من الحج ، فليس فى هذا القدر بيان أنه طاعة عظيمة كاملة عند الله سبحانه وتعالى ، فلما قال بعده (تلك عشرة كاملة) دل ذلك على أن هذه الطاعة فى غاية الكمال ، وذلك لأن الصوم مضاف الى الله تعالى بلام الاختصاص على ما قال تعالى (الصوم لى) والحج أيضا مضاف الى الله تعالى بلام الاختصاص، على ما قال (وأتموا الحج والعمرة لله) ، وكما دل النص على مزيد اختصاص لهاتين العبادتين بالله سبحانه وتعالى ، فالفعل دل أيضا على ذلك ، أما فى حق الصوم فلأنه عبادة لا يطلع العقل البتة على وجه الحكمة فيها ، وهو مع ذلك شاق على النفس جدا ، فلا جرم لا يؤتى به الا المحصن مرضاة الله تعالى ، والحج أيضا عبادة لا يطلع العقل البتة على وجه الحكمة فيها ، وهو مع ذلك شاق جدا ، لأنه يوجب مفارقة الاهل والوطن ، ويوجب التباعد عن أكثر اللذات فلا يؤتى به الا لمحصن مرضاته . ثم ان هذه

الايام العشرة بعضه واقع فى زمان الحج فيكون جمعـــا بين شيئين شاقين جدا ، وبعضه واقع بعد الفراغ من الحج وهو انتقال من شاق الى شاق ، ومعلوم أن ذلك سبب لكثرة الثواب وعلو الدرجة ، فلا جرم أوجب الله تعالى صيام هذه الايام العشرة ، وشهد سبحانه على أنه عبادة فى غاية الكمال والعلو ، فقال (تلك عشرة كاملة) ، فان التنكير فى هذا الموضع يدل على تعظيم الحال ، فكأنه قال : عشرة وأية عشرة ، عشرة كاملة ، فقد ظهر بهذه الوجوه العشرة اشتمال هذه الكلمة على هذه الفوائد النفسية ، وسقط بهذا البيان طعـــن الملحدين فى الآية والحمد لله رب العالمين[٢٨٥] .

والذى نخلص اليه أن قوله تعالى (تلك عشرة كاملة) أنه جار على عادة العرب وذلك أنها تفصل وتحمل ، قال الشاعر :

تجمعن من شتى ثلاث وأربع   وواحدة حتى كملن ثمانيـــا

ولم يستهجن هذا أحد فى لغتهم ، وكذلك (تلك عشرة كاملة) .

ووجه آخر أنه لو لم يقل ذلك لظن ظان أنه على سبيل التخيير وبمثـــابة قوله (وسبعة اذا رجعتم)[٢٨٦] كمـــا قال (مثنى وثلاث ورباع)[٢٨٧] فجاز أن يظن ظان أن السبعة فى الحضر بدل من صيام الثلاثة ، فرفع ذلك بقوله (تلك عشرة كاملة) .

أو أنه قال ذلك ليبين أنها أيام ، لأنه لو قال : فصيام ثلاثة أيام فى الحج) ثم قال : (وسبعة اذا رجعتم) لجاز أن يريد سبعة أشهر أو سبعة أعوام ، فلما قال (تلك عشرة كاملة) دل على أن السبعـــة أيام لا يحسن أن يقال ثلاثة أيام وسبعة أعوام تلك عشرة كاملة ، وقوله (كاملة) ى كاملة الاجر والثواب[٢٨٨] .

---

(٢٨٥) التفسير الكبير للرازى جـ ١٦٨/٥ — ١٧٠ من المجلد الثالث .

(٢٨٦) البقرة/١٩٦ .   (٢٨٧) النســـاء/٣ .

(٢٨٨) نكت الانتصار ص١٨٤ .

وعلى هذا فان العشرة فى الآية الكريمة عدد للأيام ، والايام مذكرة والقاعدة أن الاعداد من ثلاثة الى عشرة تذكر مع المؤنث وتؤنث مع المذكر ، فالملحد قد حكم على الصواب بأنه خطأ لجهله الفاحش باللغة.

١٩ ـ قوله تعالى (ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا)[٢٨٩].

فى الآية اشكال وهو أن قوله (ولا تنكحوا المشركات) يقتضى حرمة نكاح المشركة ، ثم قوله (ولأمة مؤمنة خير من مشركة) يقتضى جواز التزوج بالمشركة ، لأن لفظة أفعل تقتضى المشاركة فى الصفة .

وأجيب عن ذلك بأن نكاح المشركة مشتمل على منافع الدنيا ، ونكاح المؤمنة مشتمل على منافع الآخرة ، والنفعان يشتركان فى أصل كونهما نفعا ، الا أن نفع الآخرة له المزية العظمة ، فاندفع السؤال[٢٩٠]. وأيضا فانه يجوز أن يكون أفعل التفضيل على غير بابه فتقتصر الخير على المؤمنة ولا يقتضى ذلك جواز التزوج من المشركة .

٢٠ ـ قال الطاعن : كيف جاء (يسألونك) ثلاث مرات بغير واو (يسألونك ماذا ينفقون)[٢٩١] (يسألونك عن الشهر الحرام)[٢٩٢] ـ (يسألونك عن الخمر والميسر)[٢٩٣] ثم جاء ثلاث مرات بالواو (ويسألونك ماذا ينفقون)[٢٩٤] (ويسألونك عن اليتامى)[٢٩٥] (ويسألونك عن المحيض)[٢٩٦] .

والجواب أن سؤالهم عن الحوادث الاول وقع متفرقا ، وعن

---

(٢٨٩) البقرة/٢٢١ .

(٢٩٠) التفسير الكبير للرازى ج٦/٦٥ .

(٢٩١) البقرة/٢١٥ .　　(٢٩٢) البقرة/٢١٧ .

(٢٩٣) البقرة/٢١٩ .　　(٢٩٤) البقرة/٢١٩ .

(٢٩٥) البقرة/٢٢٠ .　　(٢٩٦) البقرة/٢٢٢ .

الحوادث الاخر وقع فى وقت واحد ، فجىء بحرف الجمع دلالة على ذلك[٢٩٧] .

وعلى هذا فان الآيات الاولى قد جاءت بغير الواو ، لأنها نزلت فى أوقات مختلفة ، فلم يقتض ذلك الجمع ، أما الآيات التى اقترنت بالواو ، فانها جاءت فى وقت واحد ، فاقتضى ذلك الجمع بالواو .

وعلى ضوء ما سبق يمكن أن نقول : ان الحروف فى القرآن الكريم وضعت لتؤدى مهمة دقيقة فى تركيب الجملة ، يقول الله تعالى: (وسيق الذين كفروا الى جهنم زمرا حتى اذا جاؤوها فتحت أبوابها)[٢٩٨] وفى آية أخرى يقول عز شأنه (وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمرا حتى اذا جاؤوها وفتحت أبوابها)[٢٩٩] .

يقول الزمخشرى فى تعليل ذلك (وقيل حتى اذا جاؤوها وفتحت أبوابها أى مع فتح أبوابها ، وقيل أبواب جهنم لا تفتح الا عند دخول أهلها فيها . وأما أبواب الجنة فمتقدم فتحها بدليل قوله تعالى (جنات عدن مفتحة لهم الأبواب)[٣٠٠] فلذلك جىء بالواو ، كأنه قيل حتى اذا جاؤوها (قد فتحت أبوابها)[٣٠١] .

ويؤيد هذا ما ذهب اليه ابن عباس رضى الله عنهما من أن (فتحت أبوابها) أى طرقها لهم ، ولم تكن قبل ذلك مفتوحة ، و (وفتحت أبوابها أي وقد كانت مفتوحة قبل ذلك)[٣٠٢] .

٢١ ــ قوله تعالى (ولقد صدقكم الله وعده اذ تحسونهم باذنه

---

(٢٩٧) الانموذج الجليل ص٢٨ والاتقان فى علوم القرآن جـ٢/١١٤ .
(٢٩٨) الزمر/٧١ . (٢٩٩) الزمر/٧٣ .
(٣٠٠) ص/٥٠ .
(٣٠١) الكشاف جـ٤/١٤٧ وحروف المعانى بين دقائق النحو ولطائف الفقه للمؤلف ص٥١ .
(٣٠٢) تفسير ابن عباس ص٣٩٢ .

حتى اذا فشلتم وتنازعتم فى الامر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين)[٣٠٣] •

ظاهر قوله (حتى اذا فشلتم) بمنزلة الشرط ، ولابد له من الجواب فأين جوابه ؟ •

للعلماء هاهنا طريقان :

الاول :

أن هذا ليس بشرط ، بل المعنى ولقد صدقكم الله وعده حتى اذا فشلتم ، أى قد نصركم الى أن كان منكم الفشل والتنازع ، لأنه تعالى كان انما وعدهم بالنصرة بشرط التقوى والصبر على الطاعة ، فلما فشلوا وعصوا انتهى النصر ، وعلى هذا القول تكون كلمة (حتى) غاية بمعنى (الى) فيكون معنى قوله (حتى اذا) الى أن ، أو (الى حين) •

الطريق الثانى :

أن يساعد على أن قوله (حتى اذا فشلتم) شرط ، وعلى هذا القول اختلفوا فى الجواب على وجوه :

(أ) الاول :

وهو قول البصريين أن جوابه محذوف ، والتقـــدير : حتى اذا فشلتم وتنازعتم فى الامر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم الله نصره وانما حسن حذف هذا الجواب لدلالة قوله (ولقد صدقكم الله وعده) عليه ونظائره فى القرآن كثيرة • قال الله تعالى (فان استطعت أن تبتغى نفقا فى الأرض أو ســـلما فى السماء فتأتيهـــم بآية)[٣٠٤]

---

(٣٠٣) آل عمران/١٥٢ .   (٣٠٤) الانعام/٣٥ .

والتقدير : فافعل ، ثم أسقط هذا الجواب لدلالة هذا الكلام عليه ، وقال : (أمن هو قانت آناء الليل)[٣٠٥] والتقدير : أم من هو قانت كمن لا يكون كذلك ؟ .

(ب) الوجه الثانى :

وهو مذهب الكوفيين واختيار الفراء : أن جوابه هو قوله (وعصيتم) والواو زائدة ، كما قال (فلما أسلما وتله للجبين وناديناه)[٣٠٦] والمعنى بناديناه ، كذا هاهنا : الفشل والتنازع صار موجبا للعصيان فكان التقدير حتى اذا فشلتم وتنازعتم فى الامر عصيتم ، فالواو زائدة، وبعض من نصر هذا القول زعم أن من مذهب العرب ادخال الواو فى جواب (حتى اذا) بدليل قوله تعالى (حتى اذا جاؤها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها)[٣٠٧] والتقدير حتى اذا جاؤها فتحت لهم أبوابها .

فان قيل : ان فشلتم وتنازعتم معصية ، فلو جعلنا الفشل والتنازع علة للمعصية لزم كون الشىء علة لنفسه وذلك فاسد .

قلنا : المراد من العصيان هاهنا خروجهم عن ذلك المكان ، ولاشك أن الفشل والتنازع هو الذى أوجب خروجهم عن ذلك المكان ، فلم يلزم تعليل الشىء بنفسه .

ولم يقبل البصريون هذا الجواب ، لأن مذهبهم أنه لا يجوز جعل الواو زائدة .

(جـ) الوجه الثالث :

أن يقال تقدير الآية : حتى اذا فشلتم وتنازعتم فى الامر وعصيتم

---

(٣٠٥) الزمر/٩ .
(٣٠٦) الصافات/١٠٣ — ١٠٤ .
(٣٠٧) الزمر/٧٣ .

من بعد ما أراكم ما تحبون ، صرتم فريقين ، منكم من يريد الدنيا ، ومنكم من يريد الآخرة •

فالجواب : هو قوله : صرتم فريقين ، الا أنه أسقط لأن قوله (منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة) يفيد فائدته ويؤدى معناه ، لأن كلمة (من) للتبعيض ، فهى تفيد هذا الانقسام •

(د) الوجه الرابع :

أن جواب قوله (حتى اذا فشلتم) هو قوله (صرفكم عنهم) والتقدير : حتى اذا فشلتم وكذا وكذا صرفكم عنهم ليبتليكم ، وكلمة (ثم) هاهنا كالساقطة ، وهذا الوجه فى غاية البعد(٣٠٨) •

وعلى ضوء ما سبق يمكن أن نقول أن الملحد قبحه الله قد قال : انه ذكر الشرط بدون جواب •

وأجيب عن ذلك بما يأتى :

١ — أن هذا ليس بشرط والمعنى : ولقد صدقكم الله وعده بالنصر الى أن كان منكم الفشل بسبب التنازع ، لأن الله عز وجل وعدهم بالنصر بشرط التقوى ، فلما تنازعوا انتهى النصر • وعلى هذا تكون حتى بمعنى الى •

٢ — وعلى فرض أنه شرط فقد اختلف فى الجواب على وجوه :

(أ) قول البصريين فى أن الجواب محذوف والتقدير : حتى اذا فشلتم وتنازعتم فى الامر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم الله نصره بسبب التنازع • وحذف الجواب لدلالة قوله : (ولقد صدقكم الله وعده) • وثبوت حذف جواب الشرط وارد فى القرآن الكريم كثيرا •

---

(٣٠٨) التفسير الكبير جـ٩/٢٧ من المجلد الخامس •

(ب) قول الكوفيين ، واختيار الفراء فى أن الجواب هو قوله (وعصيتم) والواو زائدة ، والتقدير : حتى اذا فشلتم وتنازعتم فى الامر عصيتم والمراد بالعصيان هنا الخروج ، ولاشك أن الفشل والتنازع هو الذى أوجب خروجهم عن ذلك المكان .

ولم يقبل البصريون هذا الجواب ، لأن مذهبهم أنه لا يجوز جعل الواو زائدة .

(ج) أن يقال : تقدير الآية : حتى اذا فشلتم وتنازعتم فى الامر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون صرتم فريقين ، فحذف صرتم فريقين وهو الجواب لدلالة قوله تعالى (منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة) عليه لأنه يفيد فائدته ويؤدى معناه .

وهو مثل رأى البصريين فى أن الجواب محذوف وان اختلفوا فى الجواب المقدر .

(د) أن جواب الشـــرط فى قوله (حتى اذا فشلتم) هو قوله تعالى : (وصرفكم عنهم) والتقدير حتى اذا فشلتم وكذا وكذا صرفكم عنهم ليبتليكم وكلمة (ثم) هاهنا كالساقطة .

وهذا الوجه فى غاية البعد ، لأن الحكم على كلمة فى القـــرآن الكريم بأنها كالساقطة لا يليق .

٢٢ ــ قوله تعالى : ياأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفـــروا وقالوا لاخوانهم اذا ضربوا فى الارض أو كانوا غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم والله يحيى ويميت والله بما تعملون بصير[٣٠٩] .

قوله تعالى (وقالوا لاخوانهم) يدل على الماضى ، وقوله (اذا

---

(٣٠٩) آل عمران/١٥٦ .

ضربوا) يدل على المستقبل ، ولو قال : وقالوا لاخوانهم اذا ضربوا فى الارض أى حين ضربوا لم يكن فيه اشكال .

وأجيب عنه بما يأتى :

١ ـ أن قوله : (قالوا) تقديره يقولون فكأنه قيل : لا تكونوا كالذين كفروا يقولون لاخوانهم كذا وكذا ، وانما عبر عن المستقبل بلفظ الماضى لفائدتين :

(١) أحدهما : أن الشىء الذى يكن لازم الحصول فى المستقبل فقد يعبر عنه بأنه حدث أو حادث قال تعـــالى : (أتى أمر الله) وقال : (انك ميت) فهنا وقع التعبير عنه بلفظ المستقبل لم يكن فيه مبالغة ، أما لما وقع التعبير عنه بلفظ الماضى ، دل ذلك على أن جدهم واجتهادهم فى تقرير الشبهة قد بلغ الغاية ، وصار بسبب ذلك الجد هذا المستقبل كالكائن الواقع .

(ب) الفائدة الثانية : أنه تعالى لما عبر عن المستقبل بلفظ الماضى دل ذلك على أنه ليس المقصود الاخبار عن صدور هذا الكلام ، بل المقصود الاخبار عن جدهم واجتهادهم فى تقرير هذه الشبهة ، فهــذا هو الجواب المعتمد .

٢ ـ الوجه الثانى :

أن الكلام خرج على سبيل حكاة الحال الماضية والمعنى أن اخوانهم اذا ضربوا فى الارض ، فالكافرون يقولون : لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ، فمن أخبر عنهم بعد ذلك لابد وأن يقول : قالوا : فهــذا هو المراد بقولنا : خرج هذا الكلام على سبيل حكاية الحال الماضية .

٣ ـ الوجه الثالث :

قال قطرب : كلمة (اذ) و (اذا) يجوز اقامة كل واحدة منهما مقام الاخرى .

وهذا الذى قاله قطرب كلام حسن ، ذلك لأنا اذا جوزنا اثبات اللغة بشعر مجهول عن قائل مجهول ، فلأن يجوز اثباتها بالقـــرآن العظيم كان ذلك أولى ، أقصى ما فى الباب أن يقال : (اذا) حقيقة فى المستقبل ، ولكن لم لايجوز استعماله فى الماضى على سبيل المجاز لما بينه وبين كلمة (اذ) من المتشابهة الديدة ، وكثيرا أرى النحويين يتحيرون فى تقرير الالفاظ الواردة فى القرآن ، فاذا استشهدو فى تقريره ببيت مجهول فرحوا به وأنا شديد التعجب منهم ، فانهم اذا جعلوا ورود ذلك البيت المجهول على وفقه دليلا على صحته ، فلأن يجعلوا ورود القرآن به دليلا على صحته كان أولى[٣١٠] .

والذى نخلص اليه أن الطاعن قد قال : انه قد تم الجمع بين أمرين متناقضين هما الماضى والاستقبال فى قوله (وقالوا لاخوانهم) بلفـــظ الماضى وقوله (اذا ضربوا فى الارض) باذا التى تـــدل على المستقبل ولو وضع (اذ) موضع (اذا) لم يكن فيه اشكال ، لأن اذ تفيد المضى .

وأجيب عنه بما يأتى :

١ ــ أن قوله (قالوا) بمعنى يقولون ، وانما عبر عن المستقبل بلفظ الماضى لتأكد حدوثه وحصوله ، فعبر بالماضى لما بينهما من المشابهة فى التحقق .

كما أن التعبير بالماضى يدل على أنه ليس المقصود الاخبار عن صدور هذا الكلام ، بل المقصود الاخبار عن جدهم واجتهادهم فى تقرير هذه الشبهة ، وقد اعتمد الرازى هذا الجواب .

٢ ــ أن الكلام خرج على سبيل حكاية الحال الماضية والمعنى أن

---

(٣١٠) التفسير الكبير للرازى ج٩/٥٦ ــ ٥٧ من المجلد الخامس .

اخوانهم اذا ضربوا فى الارض فالكافرون يقولون لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا فمن أخبر عنهم بعد ذلك فلابد أن يقول : قالوا .

٣ ــ ما رآه قطرب من أن كلمة اذ واذا يجوز اقامة كل واحدة منهما مقام الاخرى ورجح الرازى قول قطرب .

٤٣ ــ قوله تعالى (أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى)[٣١١].

قال الطاعن : ان (كاد) نفيه اثبات واثباته نفى بدليل قوله (وما كادوا يفعلون)[٣١٢] أى وفعلوا ذلك ، فقوله (أكاد أخفيها) يقتضى أنه ما أخفاها وذلك باطل لوجهين :

أحدهما : قوله (ان الله عنده علم الساعة)[٣١٣] .

والثانى : أن قوله (لتجزى كل نفس بما تسعى) انما يليق بالاخفاء لا بالاظهار .

والجواب من وجوه :

أحدها : أن كاد موضوع للمقاربة فقط من غير بيان النفى والاثبات، فقوله (أكاد أخفيها) معناه قرب الامر فيه من الاخفاء ، وأما أنه هل حصل ذلك الاخفاء أو ما حصل ، فذلك غير مستفاد من اللفظ ، بل من قرينة قوله (لتجزى كل نفس بما تسعى) ، فان ذلك انما يليق بالاخفاء لا بالاظهار .

وثانيها : أن كاد من الله واجب فمعنى قوله (أكاد أخفيها) أى أنا أخفيها عن الخلق ، كقوله (عسى أن يكون قريبا)[٣١٤] أى هو قريب.

ورابعها : معناه (أكاد أخفيها) من نفسى ، وقيل انها كذلك فى

---

(٣١١) طه/١٥ .
(٣١٢) البقرة/٧١ .
(٣١٣) لقمان/٣٤ .
(٣١٤) الاسراء/٥١ .

مصحف أبى وفى حرف ابن مسعود (أكاد أخفيها) من نفسى فكيف أعلنها لكم .

وهذا بعيد ، لأن الاخفاء انما يصح فيمن يصلح له الاظهار وذلك مستحيل على الله تعالى ، لأن كل معلوم معلوم له ، فالاظهار والاسرار منه مستحيل .

ويمكن أن يجاب عنه بأن ذلك واقع على التقدير يعنى لو صح منى اخفاؤه على نفسى ، لأخفيته عنى ، والاخفاء وان كان محالا فى نفسه الا أنه لا يمتنع أن ينكر ذلك على هذا التقدير مبالغة فى عدم اطلاع الغير عليه .

قال قطرب هذا على عادة العرب فى مخاطبة بعضهم بعضا يقولون اذا بالغوا فى كتمان الشىء : كتمته حتى من نفسى فالله تعالى بالغ فى اخفاء الساعة فذكره بأبلغ ما تعرفه العرب فى مثله .

وخامسها : (أكاد) صلة فى الكلام ، والمعنى (ان الساعة آتية أخفيها) قال زيد الخيل :

سريع الى الهيجاء شاك سلاحه ... فما ان يكاد قرنه يتنفس

والمعنى : فما ان يتنفس .

وسادسها : أن تأويل قوله (أكاد أخفيها) أكاد أظهرها ، وتلخيص هذا اللفظ : أكاد أزيل عنها اعفاءها ، لأن أفعل قد يأتى بمعنى السلب والنفى ، كقوله : (أعجمت الكتاب وأشكلته) أى أزلت عجمته وأشكاله وأشكيته أى أزلت شكواه(٣١٥) .

وسابعها : قرىء (أخفيها) بفتح الالف ، أى أكاد أظهرها من خفاء اذا أظهره ، أى قرب اظهارها ، كقوله (اقتربت الساعة)(٣١٦) ، قال امروء القيس :

---

(٣١٥) التفسير الكبير للرازى ج٢٢/٢٢ من المجلد الحادى عشر .

(٣١٦) القمر/١ .

فان تدفئوا الداء لا نخفه   وان تمنعوا الحرب لا نقعد
أى وان تكتموا الداء لانظهره[٣١٧] .

وقد روى عن سعيد بن جبير أنه قرأ (أخفيها) بفتح الهمزة ومعناه أظهرها ، وكذا روى أبو عبيد عن الكسائى عن محمد ابن سهل عين وفاء بن اياس عن سعيد بن جبير ، قال النحاس : وليس لهذه الرواية طريق غير هذا .

قال القرطبى : وكذا رواه ابن الانبارى فى كتاب الرد ، قال : حدثنى أبى حدثنا محمد بن الجهم حدثنا الفراء ، حدثنا الكسائى فذكره.

قال القرطبى : قال بعض اللغويين : يجوز أن يكون أخفيها بضم الألف معناه أظهرها ، لأنه يقال : خفيت الشىء وأخفيته من حروف الاضداد يقع على الستر والاظهار[٣١٨] .

وثامنها : قال ابن الانبارى : فى الآية تفسير آخر ، وهو أن الكلام ينقطع على أكاد ، وبعده مضمر ، أى أكاد آتى بها ، ووقع الابتداء بأخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى . ومثله قول عمير بن ضابىء البرجمى :

هممت ولم أفعل وكدت وليتنى   تركت على عثمان تبكى حلائله
أى وكدت أفعل[٣١٩] .

ومجمل القول فى (كاد) فى تلك الآية الكريمة يتلخص فيما يلى :
— أن كاد موضوعة للمقاربة فقط ولا تفيد الاخفاء ولا الاظهار ولا النفى ولا الاثبات ، وأما الاخفاء فى الآية فمفهوم بالقرينة من قوله: (لتجزى كل نفس بما تسعى) وهو يليق بالاخفاء ولا يليق بالاظهار .

---

(٣١٧) فتح القدير للشوكانى ج٣/٣٥٩ .
(٣١٨) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ج١١/١٨٢ .
(٣١٩) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ج١١/١٨٢ — ١٨٣ وفتح القدير للشوكانى ج٣/٣٥٩ ونكت الانتصار لنقل القرآن ص١٦٣ .

ـ أن اسناد (كاد) الى الله تعالى يفيد الوجوب مثل قوله عز شأنه: (عسى أن يكون قريبا) أى هو قريب •

ـ أن (كاد) بمعنى أريد •

ـ أن المعنى : أكاد أخفيها من نفسى •

ونوقش هذا الجواب بأنه يليق بمن يصح فى حقه الاخفاء والاظهار وهذا لا يصح فى حق الله تعالى •

وقد يجاب عن ذلك بأن ذلك واقع على التقدير : لو صح ذلك لأخفيته من نفسى ، وقال قطرب : ان هذا جاء على عادة العرب عندما يبالغون فى كتمان الشىء يقولون : كتمت الشىء حتى من نفسى ، فالله سبحانه وتعالى بالغ فى كتمان الساعة ، على أبلغ وجه عرفته العرب •

ـ أن (أكاد) صلة فى الكلام •

وهذا الرأى يقتضى أن (أكاد) زائدة ، وهو مرفوض ، لأن كل لفظ فى القرآن له دلالة ومعنى •

ـ أن (أخفى) بمعنى أظهر ، لأن فعل يأتى فى الشىء وضده مثل: أشكل الامر أزال اشكاله ، وأعجم الكتاب أزال عجمته ، وأشكاه أزال شكواه •

ـ قراءة (أخفيها) بفتح الهمزة بمعنى أظهرها من خفاه اذا أظهره من استعمال اللفظ فى المعنى وضده ، وهو مثل سابقه •

ـ يرى ابن الانبارى أن الكلام منقطع عند كاد ، وخبرها محذوف تقديره : أكاد آتى بها ، ثم وقع الابتداء بأخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى •

٢٤ ـ قوله تعالى : (اذا أخرج يده لم يكد يراها)[٣٢٠] •

---

(٣٢٠) النور/٤٠ •

قوله تعالى (لم يكد يراها) فيه قولان :

أحدهما : أن كاد نفيه اثبات واثباته نفى ، فقوله (وما كادوا يفعلون)[٣٢١] نفى فى اللفظ ولكنه اثبات فى المعنى ، لأنهم فعلوا ذلك ، وقوله ﷺ (كاد الفقر أن يكون كفرا) اثبات فى اللفظ لكنه نفى فى المعنى ، لأنه لم يكفى ، فكذا هاهنا قوله (لم يكد يراها) معناه أنه رآها .

والثانى : أن كاد معناه المقاربة ، فقوله : (لم يكد يراها) معناه لم يقارب الوقوع ، ومعلوم أن الذى لم تقارب الوقوع لم يقع أيضا ، وهذا القول هو المختار ، والاول ضعيف لوجهين :

(أ) أن ما يكون أقل من هذه الكلمات فانه لا يرى فيه شىء فكيف مع هذه الظلمات .

(ب) أن المقصود من هذا التمثيل المبالغة فى جهالة الكفار ، وذلك انما يحصل اذا لم توجد الرؤية البتة مع هذه الظلمات[٣٢٢] .

وعلى هذا فان قوله (لم يكد يراها) معناه : قرب من الرؤية ولم ير ، كما يقال : كاد العروس يكون أميرا ، وكاد النعام يطير ، وكاد المنتعل يكون راكبا .

وهذا القول هو الصواب ، لأن المعنى لم يقارب رؤيتها ، فاذا لم يقارب رؤيتها فلم يرها رؤية بعيدة ولا قريبة .

قال الفراء : من العرب من يدخل كاد ويكاد فى اليقين فيجعلها بمنزلة الظن اذا دخل ، فيما هو يقين ، كقوله تعالى : (وظنوا ما لهم من محيص)[٣٢٣] ، [٣٢٤] .

---

(٣٢١) البقرة/٧ .

(٣٢٢) التفسير الكبير للرازى جـ٢٤/٩ من المجلد الثانى عشر ، والجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ١٢/٢٨٥ .

(٣٢٣) فصلت/٤٨ .

(٣٢٤) معانى القرآن للفراء جـ٢/٢٥٥ .

وقال صاحب الصحاح : قال بعضهم فى قوله تعالى (أكاد أخفيها[٣٢٥] أريد أخفيها ، قال : فكما جاز أن يوضع أريد موضع أكاد فى قوله تعالى (جدارا يريد أن ينقض)[٣٢٦] فكذلك أكاد[٣٢٧] قال الاخفش :

كادت وكدت وتلك خير ارادة　　　لو عاد من لهو الصبابة ما مضى

ومجمل القول فى (كاد) فى قوله تعالى (لم يكد يراها) يتلخص فى أن الآية الكريمة قد نفت مقاربة الرؤيا ، فانه لم يرها ، لا رؤيا قريبة ولا بعيدة مبالغة فى ظلمات الجهالة — جهالة المشركين — ، وقال بعضهم ان المعنى أريد اخفاءها ، فكما جاز أن يوضع أريد موضع أكاد فى قوله (جدارا يريد أن ينقض) ، فكذلك جاز أن يوضع أريد موضع أكاد .

٢٥ — قوله تعالى (غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول لا اله الا هو اليه المصير)[٣٢٨] .

— لم ذكر الواو فى قوله (غافر الذنب وقابل التوب) ولم يذكرها فى قوله (شديد العقاب) ؟ .

وأجيب عنه بأنه لو لم يذكر الواو فى قوله (غافر الذنب وقابل التوب) لاحتمل أن يقع فى خاطر انسان أنه لا معنى لكونه غافر الذنب الا كونه قابل التوب ، أما لما ذكر الواو زال هذا الاحتمال ، لأن عطف الشيء على نفسه محال ، أما كونه شديد العقاب فمعلوم أنه مغاير لكونه (غافر الذنب وقابل التوب) فاستغنى به عن ذكر الواو .

---

(٣٢٥) طه/١٥ .　　　(٣٢٦) الكهف/٧٧ .

(٣٢٧) معانى القرآن للفراء جـ٢/٢٥٥ .

(٣٢٨) غافر/٣ .

(٣٢٩) التفسير الكبير للرازى جـ٢٧/٢٩ من المجلد الرابع عشر .

س — ان قوله (شديد العقاب) يصلح أن يكون نعتا للنكــرة ولا يصلح أن يكون نعتا للمعرفة تقول : مررت برجل شديد البطش ، ولا تقول : بعبد الله شديد البطش ، وقوله (الله) اسم علم فيكون معرفة فكيف يجوز وصفه بكونه شديد العقاب مع أنه لا يصلح الا أن يجعل وصفا للنكرة ؟ •

قالوا وهذا بخلاف قولنا غافر الذنب وقابل التوب ، لأنه ليس المراد منهما حدوث هذين الفعلين ، وأنه يغفر الذنب ويقبل التوبه الآن أو غدا ، وانما أريد ثبوت ذلك ودوامه ، فكان حكمهما حكم اله الخلق ورب العرش •

وأما (شديد العقاب) فمشكل ، لأنه فى تقدير شديد عقابه فيكون نكرة فلا يصح جعله صفة للمعرفة ، وهذا تقرير السؤال •

وأجيب عنه بوجوه :

الاول :

ان هذه الصفة وان كانت نكرة الا أنها لما ذكرت مع سائر الصفات التى هى معــارف حسن ذكرها كما فى قوله عز وجل (وهو الغفــور الودود ذو العرش المجيد ، فعال لما يريد)[٣٣٠] •

الثــانى :

قال الزجاج : ان خفض (شديد العقاب) على البدل ، لأن جعل النكرة بدلا من المعرفة ، وبالعكس أمر جائز ، واعترضــوا عليه بأن جعله وحده بدلا من الصفات فيه نبوة ظاهرة •

الثــالث :

أنه لا نزاع فى أن قوله (غافر الذنب وقابل التوب) يحسن جعلهما

---

(٣٣٠) البروج/١٤ — ١٦ •

صفة ، وانما كان ذلك ، لأنهما مفيدان معنى الدوام والاستمرار فكذلك قوله (شديد العقاب) يفيد معنى الدوام والاستمرار ، لأن صفات الله تعالى منزهة عن الحدوث والتجدد ، فكونه (شديد العقاب) معناه كونه بحيث يشتد عقابه ، وهذا المعنى حاصل أبدا ، وغير موصوف بأنه حصل بعد أن لم يكن كذلك .

ومجمل القول فى تلك الآية الكريمة يتلخص فى أن المولى عز وجل قد ذكر الواو فى (وقابل التوب) لرفع احتمال ما يرد فى خاطر الانسان من أنه لا معنى لكونه غافر الذنب الا كونه قابل التوب ، فذكر الواو أزال هذا الاحتمال ، لأن الشىء لا يعطف على نفسه .

أما ترك الواو فى قوله (شديد العقاب) فلأن شدة العقاب مغايرة لغفران الذنب وقبول التوبة ، فاستغنى به عن ذكر الواو .

ونوقش قوله تعالى (شديد العقاب) بقولهم : كيف جاء وصفا للمعرفة وهى لفظ الجلالة ، مع أنه لا يصلح الا أن يكون نعتا للنكرة .

وأجيب عن ذلك بأن هذه الصفة وان كانت نكرة الا أنها لما ذكرت مع الصفات التى هى معارف حسن ذكرها ، كما فى قوله تعالى :(الغفور الودود) .

وأيضا فانه لا خلاف فى أن قوله تعالى (غافر الذنب وقابل التوب) يحسن جعلهما صفتين ، لأنهما مفيدان معنى الدوام والاستمرار وكذلك قوله (شديد العقاب) يفيد الدوام والاستمرار ، لأنه من صفات الله ، وصفات الله عز وجل منزهة عن الحدوث .

ويرى الزجاج أن خفض (شديد العقاب) على البدل ، لأن جعل النكرة بدلا من المعرفة وبالعكس جائز .

وردوا عليه بأن جعل هذا اللفظ وحده بدلا من الصفات فيه نبوة خروج ظاهر .

٢٦ ـ قوله تعالى (وان يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم)[٣٣١] .

قال الطاعن : كان الأولى أن يقال : يصبكم كل الذى يعدكم .

وأجيب عنه من وجده :

الاول : أن مدار هذا الاستدلال على هذا اظهار الانصاف وترك اللجاج ، لأن المقصود منه ان كان كاذبا كان ضرر كذبه مقصورا عليه وان كان صادقا فلا أقل من أن يصل اليكم بعض ما يعدكم ، وان كان المقصود من هذا الكلام ما ذكر صح ، ونظيره قوله تعالى (وانا أو اياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين)[٣٣٢] .

والثانى : أنه ﷺ كان يتوعدهم بعذاب الدنيا وبعذاب الآخرة ، فاذا وصل اليهم فى الدنيا عذاب الدنيا فقد أصابهم بعض الذى يعدهم به .

والثالث : حكى عن أبى عبيدة أنه قال : ورود لفظ البعض بمعنى الكل جائز واحتج بقول لبيد :

تراك أمكنة اذا لم أرضها ... أو يرتبط بعض النفوس حمامها

والجمهور على أن هذا القول خطأ ، قالوا وأراد لبيد ببعض النفوس نفسه[٣٣٣] .

ويمكننا أن نوجز تلك الاجابة فيما يلى :

أن أساس هذا الاستدلال هو اظهار الاتصاف وترك اللجاج والمناقشة ، لأن المقصود منه بيان ان كان كاذبا عاد ضرر كذبه عليه نفسه ، وان كان صادقا فلا أقل من أن يصل اليكم بعض ما وعدكم به .

أو أنه ﷺ كان يتوعدهم بعذاب الدنيا وعذاب الآخرة فاذا أصيبوا بشىء فى الدنيا فقد أصابهم ببعض الذى وعدهم به .

---

(٣٣١) غافر/٢٨ .   (٣٣٢) سبأ/٢٤ .

(٣٣٣) التفسير الكبير جـ٢٧/٥٩ .

وقيل ان لفظ بعض بمعنى (كل) وذلك جائز ، والمعنى : كل الذى يعدكم به •

٢٧ — قوله تعالى (الله الذى جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون • ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة فى صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون ، ويريكم آياته فأى آيات الله تنكرون)[٣٣٤] •

س : لم أدخل لام الفرض على قوله (لتركبوا) وعلى قوله (لتبلغوا) ولم يدخل على البواقى فما السبب ؟ •

وأجيب عنه بأن الركوب فى الحج والغزو اما أن يكون واجبا أو مندوبا ، فهذان القسمان أغراض دينية فلا جرم أدخل عليهما حرف التعليل ، وأما الاكل واصابة المنافع فمن جنس المباحات فلا جرم ما أدخل عليها حرف التعليل ، نظيره قوله تعالى : (والخيل والبغال والحمير لتركبوها)[٣٣٥] وزينة فأدخل التعليل على الركوب ولم يدخله على الزينة[٣٣٦] •

س : قوله تعالى (عليها وعلى الفلك تحملون)[٣٣٧] معناه : يحلمون فى البر والبحر ، اذا عرفت هذا فيقول : لم لم يقل : (وفى الفلك) كما قال : (قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين) ؟ •

والجواب أن كلمة على للاستعلاء ، فالشىء الذى يوضع فى الفلك كما يصح أن يقال وضع فيه يصح أن يقال وضع عليه ، ولما صح الوجهان كانت لفظة (على) أولى حتى يتم المراد فى قوله (وعليها وعلى الفلك تحملون) ، ولما ذكر الله هذه الدلائل الكثيرة قال : ويريكم آياته فأى آيات الله تنكرون)[٣٣٨] تنبيه على أنه ليس فى شىء من الدلائل التى تقدم ذكرها ما يمكن انكاره •

---

(٣٣٤) غافر/٧٩ — ٨١ • (٣٣٥) النحل/٨ •
(٣٣٦) الكشاف جـ٣/٤٣٨ — ٤٣٩ والتفسير الكبير جـ٢٧/٩٠ •
(٣٣٧) المؤمنون/٢٢ • (٣٣٨) غافر/٨١ •

قال صاحب الكشاف : (فأى آيات الله) جاء على اللغة المستفيضة، وقولك : فأية آيات الله قليل ، لأن التفرقة بين المذكر والمؤنث فى الاسماء غير الصفات نحو : حمار وحمارة غريب ، وهى فى أى أغرب لابهامه[٣٣٩] .

٢٨ ـ قوله تعالى (لا يسمعون فيها لغوا الا سلاما ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا)[٣٤٠] .

طعن الملحد فيه فقال : ان قوله (الا سلاما) ، ان السلام ليس من جنس اللغة ، فكيف استثنى السلام من اللغو .

والجواب عنه من وجوه :

أحدها : أن معنى السلام هو الدعاء بالسلامة ، وأهل الجنة لا حاجة بهم الى هذا الدعاء ، فكان ظاهره من باب اللغو وفضول الحديث لولا ما فيه من فائدة الاكرام .

وثانيها : أن يحمل ذلك على الاستثناء المنقطع .

وثالثها : أن يكون هذا من جنس قول الشاعر :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم　　　بهن فلول من قراع الكتائب[٣٤١]

٢٩ ـ قوله تعالى (وما نتنزل الا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيا ، رب السموات والارض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا)[٣٤٢] .

طعن الملحد فيه فقال : ان قوله (تلك الجنة التى نورث من عبادنا

---

(٣٣٩) الكشاف ج٣/٤١٩ .　　(٣٤٠) مريم/٦٢ .
(٣٤١) التفسير الكبير للرازى ج٢١/٢٣٨ .
(٣٤٢) مريم/٦٤ .

من كان تقيا) كلام الله ، وقوله (وما نتنزل الا بأمر ربك) كلام غير الله ، فكيف جاز عطف هذا على ما قبله من غير فصل ؟ .

والجواب أنه اذا كانت القرينة ظاهرة لم يقبح ، كما أن قوله سبحانه (اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون)[٣٤٣] هو كلام الله ، وقوله (وان الله ربى وربكم)[٣٤٤] كلام غير الله وأحدهما معطوف على الآخر[٣٤٥] .

٣٠ ـ قوله تعالى : (واذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم اذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم)[٣٤٦] .

طعن الملحد فيه فقال : انه ذكر فى سورة البقرة (يذبحون) وفى سورة الاعراف (ويقتلون) وهاهنا (ويذبحون) مع الواو . فما الفرق ؟.

والجواب أن الله تعالى قال فى سورة البقرة (يذبحون) بغير واو لأنه تفسير لقوله (سوء العذاب) وفى التفسير لا يحسن ذكر الواو تقول (أتانى القوم زيد وعمرو) لأنك أردت أن تفسر القوم بهما ، ومثله قوله تعالى (ومن يفعل ذلك يلق أثاما يضاعف له العذاب)[٣٤٧] فالآثام لما صار مفسرا بمضاعفة العذاب لا جرم حذف عنه الواو ، أما فى هذه السورة فقد أدخل الواو فيه ، لأن المعنى أنهم يعذبونهم بغير التذبيح وبالتذبيح أيضا ، فقوله (ويذبحون) نوع آخر من العذاب لا أنه تفسير لما قبله[٣٤٨] .

٣١ ـ قوله تعالى (ثم أنشأنا من بعدهم قرنا آخرين ، فأرسلنا

---

(٣٤٣) مريم/٣٥ .
(٣٤٤) مريم/٣٦ .
(٣٤٥) التفسير الكبير للرازى ج٢١/٢٣٩ .
(٣٤٦) ابراهيم/٦ .
(٣٤٧) الفرقان/٦٨ و ٦٩ .
(٣٤٨) التفسير الكبير للرازى ج١٩/٨٦ .

فيهم رسولا منهم أن اعبدوا الله ما لكم من اله غيره أفلا تتقون)[٣٤٩].

طعن الملحد فيه فقال : حق (أرسل) أن يتعدى بالى كأخواته التى هى : (وجه وأنفذ وبعث) فلم عدى فى القرآن بالى تارة وبفى أخرى ، كقـــوله (كذلك أرسلناك فى أمة)[٣٥٠] (وما أرســـلنا فى قرية)[٣٥١] (فأرسلنا فيهم رسولا)[٣٥٢] أى فى عاد وفى موضع آخر (والى عاد أخاهم هودا)[٣٥٣] .

وقالوا أيضا : ان قوله (أفلا تتقون) غير موصول بالأول ، وانما قال لهم بعد أن كذبوه وردوا عليه بعد اقامة الحجة عليهم فعند ذلك قال لهم مخوفا مما هم عليه (أفلا تتقون) هذه الطريقة مخافة العذاب الذى أنذركم به ؟ .

والجواب عن الاول أنه لم يعد بفى كما عدى بالى ، ولكن الأمة أو القرية جعلت موضعا للارسال ، وعلى هذا المعنى جاء بعث فى قوله (ولو شئنا لبعثنا فى كل قرية نذيرا)[٣٥٤] .

وأجيب عن الثانى بأنه يجوز أن يكون موصولا بالكلام الاول بأن رآهم معرضين عن عبادة الله مشتغلين بعبادة الاوثان ، فدعاهم الى عبادة الله وحذرهم من العقاب بسبب اقبالهم على عبادة الاوثان[٣٥٥] .

٣٢ ــ قوله تعالى : (فاذا مس الانسان ضر دعانا ثم اذا خولناه نعمة منـــا قال انما أوتيته على علم ، بل هى فتنة ولكـــن أكثرهم لا يعلمون)[٣٥٦] .

---

(٣٤٩) المؤمنون/٣١ ــ ٣٢ .
(٣٥٠) الرعد/٣٠ .
(٣٥١) الاعراف/٩٤ .
(٣٥٢) المؤمنون/٣٢ .
(٣٥٣) هود/٥٠ .
(٣٥٤) الفرقان/٥١ .
(٣٥٥) التفسير الكبير للرازى ج٢٣/٩٨ .
(٣٥٦) قوله تعالى (واذا مس الانسان ضر دعا ربه ...) الزمر/٤٩.

س١ : ما السبب فى عطف هذه الآية بالفاء هاهنا ، وعطف مثلها فى أول السورة بالواو ؟ .

والجواب أنه تعالى حكى عنهم قبل هذه الآية أنهم يشمئزون من سماع التوحيد ويستبشرون بسماع ذكر الشركاء ، ثم ذكر بفاء التعقيب أنهم اذا وقعوا فى الضر والبلاء والتجأوا الى الله تعالى وحده كان الفعل الاول مناقضا للفعل الثانى ، فذكر فاء التعقيب ليدل على أنهم واقعون فى المناقضة الصريحة فى الحال ، وأنه ليس بين الاول والثانى فاصل مع أن كل واحد منهما مناقض للثانى ، فهذا هو الفائدة فى ذكر فاء التعقيب هاهنا . فأما الآية الاولى ، فليس المقصود منها بيان وقوعهم فى التناقض فى الحال ، فلا جرم ذكر الله بحرف الواو لا بحرف الفاء[٣٥٧] .

س٢ : النعمة مؤنثة ، والضمير فى قوله (أوتيته) عائد على النعمة فضمير التذكير كيف عاد الى المؤنث ، بل قال بعده (بل هى فتنة) فجعل الضمير مؤنثا ؟ .

والجواب أن التقدير حتى اذا خولناه شيئا من النعمة ، فلفظ (النعمة) مؤنث ومعناه مذكر ، فلا جرم جاز الامران[٣٥٨] .

٣٣ — قوله تعالى (وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء الى أمر الله)[٣٥٩] .

طعن الملحد فيه فقال : قوله (ان) اشارة الى ندرة وقوع القتال بين طوائف المسلمين ، ونحن نرى أكثر الاقتتال بين طوائفهم ؟ .

---

(٣٥٧) التفسير الكبير للرازى ج٢٦/٢٨٨ من المجلد الثالث عشر .
(٣٥٨) التفسير الكبير للرازى ج٢٦/٢٨٨ .
(٣٥٩) سورة الحجرات/٩ .

وأيضا فانه كان يجب أن يقول : (اقتتلا) و (فأصلحوا بينهم) •
وقوله (فان بغت) اشارة الى ندرة أخرى وهى البغى ، لأنه غير متوقع ، فان قيل كيف يصح هذا الموضع كلمة (ان) مع أنها تستعمل فى الشرط الذى لا يتوقع وقوعه ، وبغى أحدهما عند الاقتتال لابد منه ، اذ كل واحد منهما لا يكون محسنا فقوله (ان) تكون من قبيل قول القائل : ان طلعت الشمس •

والجواب عن ذلك أن قوله تعالى (وان) اشارة الى أنه ينبغى أن لا يقع الا نادرا ، غاية ما فى الباب أن الامر على خلاف ما ينبغى •

وكذلك (ان جاءكم فاسق بنبأ) اشارة الى أن مجىء الفاسق بالنبأ ينبغى أن يقع قليلا ، مع أن مجىء الفاسق بالنبأ كثير ، وقول الفاسق صار عند أولى الامر أشد قبولا من قول الصادق الصالح •

وأيضا فان الله جل ثناؤه قال (اقتتلوا) ولم يقل اقتتلا ، وقال (فأصلحوا بينهما) ولم يقل بينهم ، ذلك لأن عند الاقتتال تكون الفتنة قائمة ، وكل أحد برأسه يكون فاعلا فعلا ، فقال : (اقتتلوا) ، وعند العود الى الصلح تتفق كلمة كل طائفة ، والا لم يكن يتحقق الصلح فقال : (بينهما) لكون الطائفتين حينئذ كنفسين •

وقوله (فان بغت احداهما) فيه معنى لطيف ، وهو أن الله تعالى يقول : الاقتتال بين طائفتين الا نادرا الوقوع ، وهو كما تظن كل طائفة أن الاخرى فيها الكفر والفساد ، فالقتال واجب كما سبق فى الليالى المظلمة ، أو يقع لكل واحد أن القتال جائز بالاجتهاد ، وهو خطأ فقال تعالى : الاقتتال لا يقع الا كذا ، فان بان لهما أو لأحدهما الخطأ واستمر عليه فهو نادر وعند ذلك يكون قد بغى فقال : (فان بغت احداهما على الأخرى) يعنى بعد استبانة الامر ، وحينئذ فقوله : (فان بغت) فى غاية الحسن ، لأنه يفيد الندرة وقلة الوقوع[٣٦٠] •

---

(٣٦٠) التفسير الكبير للرازى جـ٢٨/١٢٧ — ١٢٨ من المجلد الرابع عشر •

٣٤ ـ قوله تعالى (الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور)[٣٦١] قال الطاعن كيف قال (يخرجهم) بلفظ المضارع ، ولم يقل أخرجهم بلفظ الماضى ، والاخراج قد وجد ، لأن الايمان قد وجد ؟.

وقال الطاعن أيضا : متى كان المؤمنون فى ظلمات الكفر والكافرون فى نور الايمان ليخرجوا من ذلك ؟ .

والجواب عن الاول أن لفظ المضارع فيه دلالة على استمرار ذلك الاخراج من الله تعالى فى الزمان المستقبل فى حق من آمن بزيادة كشف الشبه ومضاعفة الهداية ، وفى حق من لم يؤمن ممن قضى بالله أنه سيؤمن بابتداء الدهاية وزيادتها ، ولفظ الماضى لا يدل على هذا المعنى.

والجواب عن الثانى أن (الاخراج) يستعمل بمعنى المنع عن الدخول ، يقال لمن امتنع عن الدخول فى أمر خرج منه وأخرج نفسه منه ، وان لم يكن دخل فيه فعصمة الله تعالى المؤمنين عن الدخول فى ظلمات الضلال اخراج لهم منها وتزيين قرناء الكفار لهم الباطل الذى يصدونهم به عن الحق اخراج لهم من نور الهدى .

ولأن ايمان رؤساء أهل الكتاب بالنبى ﷺ قبل أن يظهر كان نورا لهم ، وكفرهم به ظهوره خروج منه الى ظلمات الكفر . ولأنه كما ظهرت معجزاته عليه الصلاة والسلام كان موافقه ومتبعه خارجا من ظلمات الجهل الى نور العلم ، ومخالفه خارجا من نور العلم الى ظلمات الجهل[٣٦٢] .

٣٥ ـ قوله تعالى (أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية

---

(٣٦١) البقرة/٢٥٧ .

(٣٦٢) الانموذج الجليل ص٣١ وروح المعانى للألوسى جـ٣/١٥ من المجلد الاول .

ضعفاء فأصابها اعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون)[٣٦٣] .

قال الطاعن كيف عطف (وأصابه) على (أيود) وكيف يجوز عطف الماضي على المستقبل ؟ .

وكيف قال : (أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب) ثم قال (له فيها من كل الثمرات) ؟ .

وقال أيضا : الصواب أن يقول : (أيريد) بدلا من (أيود)

والجواب عن الاول من وجهين :

الاول : قال صاحب الكشاف : (الواو) للحال لا للعطف ، ومعناه (أيود أحدكم أن تكون له جنة) حال ما أصابه الكبر ثم انها تحرق[٣٦٤].

والثانى : قال الفراء : وددت أن يكون كذا وودت لو كان كذا ، فحمل العطف على المعنى ، كأنه قيل : أيود أحدكم أن كان له جنة وأصابه الكبر[٣٦٥] .

وأجيب عن الثانى بأنه لما كان النخيل والاعناب أكرم الشجر وأكثرها منافع خصهما بالذكر ، وجعل الجنة منهما ، وان كان فيهما غيرهما تغليبا لهما وتفضيلا[٣٦٦] .

وأجيب عن الثالث بأنه انما قال (أيود) ولم يقل أيريد ، لأن المودة هى المحبة التامة ، ومعلوم أن محبة كل واحد لعدم هذه الحالة محبة كاملة تامة ، فلما كان الحاصل هو مودة عدم هذه الحالة ذكر هذا اللفظ فى جانب الثبوت فقال : (أيود أحدكم) حصول مثل هذه الحالة

---

(٣٦٣) البقرة/٢٦٦ .
(٣٦٤) الكشاف جـ١/٣٩٦ .
(٣٦٥) التفسير الكبير جـ٧/٦٤ من المجلد الرابع .
(٣٦٦) الانموذج الجليل ص٣٤ .

تنبيها على الانكار التام والنفرة البالغة الى الحد الذى لا مرتبة فوقه[٣٦٧] .

٣٦ — قوله تعالى (وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فان الله يعلمه)[٣٦٨] .

والجواب عن ذلك أنه انما قال (فان الله يعلمه) لوجهين :

الاول : أن الضمير عائد الى الاخير ، كقوله تعالى (ومن يكسب خطيئة أو اثما ثم يرم به بريئا)[٣٦٩] ، وهذا قول الاخفش .

والثانى : أن الكتابة عادت الى ما فى قوله (وما أنفقتم من نفقة)، لأنهــا اسم ، كقوله (وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به)[٣٧٠] ، [٣٧١] .

٣٧ — قوله تعالى (عوان بين ذلك)[٣٧٢] .

قال الطاعن : لفظــة بين تقتضى شيئين فصــاعدا ، فكيف جاز دخولها على (ذلك) وهو مفرد ؟ .

وأجيب عن ذلك بأن (ذلك) يشار به الى المفرد والمثنى والمجموع ومنه قوله تعالى (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا)[٣٧٣] وقوله عز وجل : (وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الأمور)[٣٧٤] وقوله جل ثناؤه (زين للناس حب الشهوات)[٣٧٥] الى قوله تعالى (ذلك متاع الحياة الدنيا) ، فمعناه عوان بين الفارض والبكر .

---

(٣٦٧) التفسير الكبير ج٧/٦٣ .
(٣٦٨) البقرة/٢٧٠ .
(٣٦٩) النساء/١١٢ .
(٣٧٠) البقرة/٢٣١ .
(٣٧١) التفسير الكبير للرازى ج٧/٧٥ .
(٣٧٢) البقرة/٦٨ .
(٣٧٣) يونس/٥٨ .
(٣٧٤) آل عمران/١٦ .
(٣٧٥) آل عمران/١٤ .

٣٨ ــ قوله تعالى (لا نفرق بين أحد من رسله)[٣٧٦] .

قال الطاعن ــ أيضا ــ كيف قال ذلك مع أن (بين) لا تضاف الا الى اثنين فصاعدا ؟ .

وأجيب عن ذلك بأن (أحد) هنا بمعنى الجمع الذى هو آحاد كقوله تعالى : (فما منكم من أحد عنه حاجزين)[٣٧٧] فانه تم بمعنى الجمع بدليل قوله تعالى (حاجزين) فكأنه قال : لا نفرق بين آحاد من رسله كقولك : المال بين آحاد الناس ولأن (أحدا) يصلح للمفرد المذكر والمؤنث وتثنيتهما وجمعهما نفيا واثباتا .

تقول : (ما رأيت أحدا الا بنى فلان ، أو الا بنات فلان) سواء وتقول : (ان جاءك أحد بكتابى فأعطه وديعتى) يستوى فيه الكل فالمعنى لا نفرق بين اثنين منهم أو بين جماعة منهم ، ومنه قوله تعالى (يا نساء النبى لستن كأحد)[٣٧٨] ، [٣٧٩] .

وقال الرازى فى تفسيره : وعندى أنه لا يجوز أن يكون (أحد) هاهنا فى معنى الجمع ، لأنه يصير التقدير : لا نفرق بين جميع رسله ، وهذا لا ينافى كونهم مفرقين بين بعض الرسل ، والمقصود بالنفى هو هذا ، لأن اليهود والنصارى ما كانوا يفرقون بين كل الرسل ، بل بين البعض وهو محمد ﷺ ، فثبت أن التأويل الذى ذكروه باطل ، بل معنى الآية : لا نفرق بين أحد من الرسل وبين غيره فى النبوة فاذا فسرنا بهذا حصل المقصود من الكلام[٣٨٠] .

مما سبق ندرك أن ما روى عن عائشة رضى الله عنها ، وكذلك

---

(٣٧٦) البقرة/٢٨٥ .
(٣٧٧) النساء/١١٢ .
(٣٧٨) الاحزاب/٣٢ .
(٣٧٩) الانموذج الجليل ص٣٨ ــ ٣٩ .
(٣٨٠) التفسير الكبير ج٧/١٤٦ .

ما روى عن عثمان رضى الله عنه لا يصح ، وأنه لا يوجد فى القرآن الكريم حرف واحد الا وله وجه صحيح فى العربية الفصحى ، وأن هذا الكتاب ، كما قال الله جل ثناؤه : (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد)[٣٨١] .

والقرآن الكريم قد حفظه الله تعالى ذكره من اللحن والزيادة والنقصان والذين قاموا بجمعه ، كانوا قدوة فى اللغة فلا يظن بهم أنهم يدرجون فى القرآن ما لم ينزل . وهذا القول من أخبث ما وضع الوضاعون على عثمان رضى الله عنه ، وقد أنكر العلماء نسبته اليه ، على أن عثمان رضى الله عنه لم يستقل بجمع المصحف ، بل شاركه كبار الصحابة فى جمعه وكتابته ، ولم ينشروه بين المسلمين حتى قابلوه على الصحف التى جمع القرآن فيها على عهد أبى بكر رضى الله عنه ، فلم يتداوله المسلمون الا وهو باجماع الصحابة رضوان الله عليهم ، موافق تمام الموافقة للعرضة الاخيرة التى عرض فيها النبى ﷺ على جبريل عليه السلام .

وهل يظن ظان أن عثمان رضى الله عنه ، وهو ثالث الخلفاء الراشدين يرى فى المصحف لحنا يخالف ما أنزل الله تعالى فى كتابه ويتركه ويقول: ستقيمه العرب بألسنتها . وكيف يعقل أن يقول ذلك فى حضرة الصحابة رضوان الله عليهم ولا يقفون فى وجهه ويردون عليه قوله وهم أنصار الدين وحماته .

---

(٣٨١) فصلت/٤٢ .

الباب الثاني

ادعاء التناقض والاختلاف فى القــرآن الكريم

ادعى الملاحدة وقوع التناقض فى القرآن الكريم ، وكذبوا فى ذلك لأنه كما قال الله جل ثناؤه (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا)[1] • والقرآن الكريم (كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير)[2] وهو (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد)[3] •

ولقد اعتبر السيوطى رحمه الله : ورود مشكلة حتى يوهم التعارض بين الآيات وجها من وجوه اعجاز القرآن الكريم ، لأن كلامه عز وجل منزه عن التناقض والاختلاف ، بل فيه الاعجاز الكلام[4] ، وبيان ذلك الجمع بين الآيات التى زعم المغرضون أن بينها تناقضا • ومن ذلك :

١ ــ من مواطن يوم القيامة ، قوله تعالى (فيومئذ لا يسأل عن ذنبه انس ولا جان)[5] ويقول فى موضع آخر (فوربك لنسألهم أجمعين عما كانوا يعملون)[6] •

وقوله (لا تختصموا لدى وقد قدمت اليكم بالوعيد)[7] مع قوله (هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون)[8] وهو يقول عز شأنه

---

(١) النساء/٨٢ • (٢) هود/١ •
(٣) فصلت/٤٢ •
(٤) معترك الاقران فى اعجاز القرآن جـ١/٩٤ والبخارى جـ٨/٤٢٧ ــ ٤٢٩ فى تفسير حم السجدة •
(٥) الرحمن/٣٩ • (٦) الحجر/٩٢ •
(٧) ق/٢٨ • (٨) المرسلات/٣٥ •

فى موضع آخر (ثم انكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون)[9] ويقول جل ثناؤه (هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين)[10] •

٢ ــ النفخ فى الصور :

ومن ذلك قوله تعالى (فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون)[11] مع قوله تعالى (فاذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون)[12] •

٣ ــ طعام أهل النار :

ان قوله تعالى فى وصف طعام أهل النار متناقض فهو يقول (ليس لهم طعام الا من ضريع)[13] • ويقول (فليس له اليوم هاهنا حميم ولا طعام الا من غسلين)[14] والضريع غير الغسلين • وقال أيضا (ثم انكم أيها الضالون المكذبون لآكلون من شجر من زقوم)[15] •

٤ ــ عذاب أهل النار :

قوله تعالى (كلما خبت زدناهم سعيرا)[16] • مع قوله (أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون)[17] • وأيضا قوله (ان المجرمين فى عذاب جهنم خالدون لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون)[18] •

---

(٩) الزمر/٣١ •

(١٠) البقرة/١١١ والنمل ٩٤ والقصص والمناسب هنا آية القصص/٧٥ •

(١١) الصافات/٢٧ والمناسب هنا آيآة الصافات . والطور/٢٥ .

(١٢) لمؤمنون/١٠١ •

(١٣) الغاشية/٦ •

(١٤) الحاقة/٣٦ •

(١٥) الواقعة/٥١ ــ ٥٢ •

(١٦) الاسراء/٩٧ •

(١٧) البقرة/٨٦ •

(١٨) الزخرف/٧٤ ــ ٧٥ •

٥ ـ خلق السماء والارض :

قوله تعالى (قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين ، ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين)[١٩] مع قوله (أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها رفع سمكها فسواها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها والأرض بعد ذلك دحاها)[٢٠].

٦ ـ كفار مكة :

قوله تعالى (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون)[٢١] . مع قوله (وما لهم ألا يعذبهم الله)[٢٢] .

٧ ـ ثواب الدنيا :

قوله تعالى (ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها)[٢٣] قال الطاعنون فى كتاب الله : نرى من يريدها ولا يصل اليها .

٨ ـ فى قصة ابراهيم عليه السلام : قوله تعالى (واذ قال ابراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى . قال أولم تؤمن .. قال بلى ولكن ليطمئن قلبى)[٢٤] مع قوله (ان ابراهيم لحليم أواه منيب)[٢٥].

٩ ـ فى قصة موسى عليه السلام : قوله تعالى (فاذا هى ثعبان مبين)[٢٦] مع قوله عز وجل (تهتز كأنها جان)[٢٧] .

---

(١٩) فصلت/٩ ـ ١١ .
(٢٠) النازعات/٢٧ ـ ٣٠ .
(٢١) الانفال/٣٣ ـ ٣٤ .
(٢٢) الانفال/٣٤ .
(٢٣) آل عمران/١٤٥ .
(٢٤) البقرة/٢٦٠ .
(٢٥) هود/٧٥ .
(٢٦) الاعراف/١٠٧
(٢٧) النمل/١٠ ، والقصص/٣١ .

١٠ — قوله تعالى (واذ آتينا موسى الكتاب والفرقان)[٢٨] مع اخباره بأنه أتى محمداﷺ الفرقان ٠

١١ — قوله تعالى (ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير)[٢٩] مع اخباره بأنه آعلمه ما كان وما يكون ٠

١٢ — قوله تعالى (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة)[٣٠] مع قوله (فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا)[٣١] ٠

١٣ — كتمان المشركين حالهم وافشاؤه : قوله تعالى (ثم لم تكن فتنتهم الا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين)[٣٢] وقال (ولا يكتمون الله حديثا)[٣٣] ٠

١٤ — قوله تعالى (واذا أنعمنا على الانسان أعرض ونأى بجانبه واذا مسه الشر كان يؤوسا)[٣٤] مع قوله (واذا مسه الشر فذو دعاء عريض)[٣٥] ٠

١٥ — قوله تعالى (لا بيع فيه ولا خلة)[٣٦] مع قوله تعـالى (الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو)[٣٧] ٠

١٦ — قوله تعالى (جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس والشهر الحرام والهدى والقلائد)[٣٨] مع قوله (ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض وأن الله بكل شىء عليم)[٣٩] ٠

---

(٢٨) البقرة/٥٣ ٠

(٢٩) الاعراف/١٨٨ ٠

(٣٠) الانبياء/٤٧ ٠

(٣١) الكهف/١٠٥ ٠

(٣٢) الانعام/٢٣ ٠

(٣٣) النساء/٤٢ ٠

(٣٤) الاسراء/٨٣ ٠

(٣٥) فصلت/٥١ ٠

(٣٦) البقرة/٢٥٤ ٠

(٣٧) الزخرف/٦٧ ٠

(٣٨) المائدة/٩٧ ٠

(٣٩) المائدة/٩٧ ٠

١٧ ــ قوله تعالى (ادخلوا آل فرعون أشد العذاب)[٤٠] مع اخباره عن موتهم فى الدنيا وقوله (ان المنافقين فى الدرك الاسفل من النار)[٤١].

١٨ ــ قوله تعالى (فلنسألن الذين أرسل اليهم ولنسألن المرسلين)[٤٢] مع قوله (ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون)[٤٣] .

١٩ ــ قوله تعالى (فى يوم كان مقداره ألف سنة)[٤٤] مع قوله (كان مقداره خمسين ألف سنة)[٤٥] .

٢٠ ــ قوله تعالى (ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ... الآية)[٤٦] مع قوله تعالى (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم الا قليلا)[٤٧].

٢١ ــ قوله تعالى (أولا يذكر الانسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا)[٤٨] . مع قوله (سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون)[٤٩] .

٢٢ ــ قوله تعالى (ان الله لا يظلم مثقال ذرة)[٥٠] وقوله (ان الله لا يظلم الناس شيئا)[٥١] وقوله (وما ربك بظلام للعبيد)[٥٢] وقوله (ولا تزر وازرة وزر أخرى)[٥٣] مع قوله تعالى : (كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها)[٥٤] .

---

(٤٠) غافر/٤٦ .
(٤١) النساء/١٤٥ .
(٤٢) الاعراف/٦ .
(٤٣) القصص/٧٨ .
(٤٤) السجدة/٥ .
(٤٥) المعارج/٤ .
(٤٦) لقمان/٢٧ .
(٤٧) الاسراء/٨٥ .
(٤٨) مريم/٦٧ .
(٤٩) يس/٣٦ .
(٥٠) النساء/٤٠ .
(٥١) يونس/٤٤ .
(٥٢) فصلت/٤٦ .
(٥٣) الانعام/١٦٤ .
(٥٤) النساء/٥٦ .

٢٣ — قوله تعالى (ويخشونه ولا يخشون أحدا الا الله)[٥٥] مع قوله (وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه)[٥٦] .

٢٤ — قوله تعالى (فان كنت فى شك مما أنزلنا اليك)[٥٧] مع قوله (آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه)[٥٨] .

٢٥ — قوله تعالى (هذا بيان للناس)[٥٩] وقوله (تبيانا لكل شىء)[٦٠] مع قوله تعالى : (أخر متشابهات)[٦١] .

٢٦ — الهداية والاضلال :

قوله تعالى (انما أنت منذر ولكل قوم هاد)[٦٢] . وقوله (انك لتهدى الى صراط مستقيم)[٦٣] مع قوله (انك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء)[٦٤] .

٢٧ — قوله تعالى : (ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وأنتم مسلمون)[٦٥] مع قوله (فاتقوا الله ما استطعتم)[٦٦] .

٢٨ — قوله تعالى (يطوف عليهم ولدان مخلدون)[٦٧] ثم قوله (وفاكهة مما يتخيرون ولحم طير مما يشتهون وحور عين)[٦٨] .

٢٩ — قوله تعالى (وأنزلنا اليك الذكر لتبين ما نزل اليهم)[٦٩]

---

(٥٥) الاحزاب/٣٩ .
(٥٦) الاحزاب/٣٧ .
(٥٧) يونس/٩٤ .
(٥٨) البقرة/٢٨٥ .
(٥٩) آل عمران/١٣٨ .
(٦٠) النحل/٩٨ .
(٦١) آل عمران/٧ .
(٦٢) الرعد/٧ .
(٦٣) الشورى/٥٢ .
(٦٤) الشورى/٥٢ .
(٦٥) آل عمران/١٠٢ .
(٦٦) التغابن/١٦ .
(٦٧) القصص/٥٦ .
(٦٨) الواقعة/٢ — ٢٢ .
(٦٩) النحل/٤٤ .

مع قوله تعالى (ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين)(٧٠) . وقوله (ما فرطنا فى الكتاب من شيء)(٧١) .

٣٠ ــ قوله تعالى (وفى السماء رزقكم وما توعدون . فورب السماء والأرض انه لحق مثل ما أنكم تنطقون)(٧٢) مع قوله فى موضع آخر (وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف)(٧٣) .

٣١ ــ قوله تعالى (ادعونى أستجب لكم)(٧٤) ثم انا نرى الداعى يبالغ فى الدعاء والتضرع ولا يجاب .

٣٢ ــ قوله تعالى (وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا ان نصر الله قريب)(٧٥) .

٣٣ ــ قوله تعالى (نودى أن بورك من فى النار ومن حولها)(٧٦) مع قوله (انى أنا الله رب العالمين)(٧٧) .

٣٤ ــ قوله تعالى (فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة)(٧٨) مع قوله سبحانه (ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم)(٧٩) .

٣٥ ــ قوله جل ثناؤه (ان الله لا يأمر بالفحشاء)(٨٠) مع قوله (أمرنا مترفيها ففسقوا فيها)(٨١) .

٣٦ ــ قوله عز شأنه (الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله)(٨٢) مع قوله تبارك وتعالى (الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم)(٨٣) .

---

(٧٠) النحل/٨٩ .
(٧١) الانعام/٣٨ .
(٧٢) الذاريات/٢٢ ــ ٢٣ .
(٧٣) البقرة/٢٣٣ .
(٧٤) البقرة/١٨٦ .
(٧٥) البقرة/٢١٤ .
(٧٦) النمل/٨ .
(٧٧) القصص/٣٢ .
(٧٨) النساء/٣ .
(٧٩) النساء/١٢٩ .
(٨٠) الاعراف/٢٨ .
(٨١) الاسراء/١٦ .
(٨٢) الرعد/٢٨ .
(٨٣) الانفال/٢ .

٣٧ ـ قوله تعالى (ولها عرش عظيم)[٨٤] مع قوله عز وجل (الله لا اله الا هو رب العرش العظيم)[٨٥] وقوله (قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم)[٨٦] .

٣٨ ـ قوله عز وجل (وأوتيت من كل شيء)[٨٧] مع قوله عز شأنه على لسان سليمان عليه السلام (وأتينا من كل شيء)[٨٨] .

٣٩ ـ قوله جل ثناؤه (وما منعنا أن نرسل بالآيات)[٨٩] مع قوله سبحانه (سنريهم آياتنا فى الآفاق)[٩٠] .

٤٠ ـ قوله تعالى ذكره (يوم نحشر المتقين الى الرحمن وفدا)[٩١].

٤١ ـ قوله تعالى (ان الله لا يغفر أن يشرك به)[٩٢] مع قوله عز شأنه (ان الله يغفر الذنوب جميعا)[٩٣] .

٤٢ ـ قوله تعالى (ان الذين كفروا بعد ايمانهم ثم ازدادوا كفرا لن تقبل توبتهم)[٩٤] مع قوله (وهو الذى يقبل التوبة عن عباده)[٩٥].

٤٣ ـ قوله تعالى (رب اجعل هذا بلدا آمنا)[٩٦] مع قوله تعالى (رب اجعل هذا البلد آمنا)[٩٧] .

٤٤ ـ قوله تعالى (فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم)[٩٨] مع قوله عز شأنه (لا يذوقون فيها الموت الا الموتة الاولى)[٩٩] .

٤٥ ـ كيف مدح الله عز وجل المتقين بترك المن ، ونهى عن المن

---

(٨٤) النمل/٢٢ .
(٨٥) النمل/٢٦ .
(٨٦) المؤمنون/٨٦ .
(٨٧) النمل/٢٣ .
(٨٨) النمل/١٦ .
(٨٩) الاسراء/٥٩ .
(٩٠) فصلت/٥٣ .
(٩١) مريم/٨٥ .
(٩٢) النساء/٤٨ .
(٩٣) الزمر/٥٣ .
(٩٤) آل عمران/٩٠ .
(٩٥) الشورى/٢٥ .
(٩٦) البقرة/١٢٦ .
(٩٧) ابراهيم/٣٥ .
(٩٨) البقرة/٢٤٣ .
(٩٩) الدخان/٥٦ .

أيضا مع أنه وصف نفسه بالمنان فى نحو قوله تعالى (لقد من الله على المؤمنين)[١٠٠] .

٤٦ ــ قوله تعالى (لا يسألون الناس الحافا)[١٠١] مع قوله (يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف)[١٠٢] .

٤٧ ــ قوله تعالى (نزل عليك الكتاب بالحق)[١٠٣] مع قوله عز شأنه (وأنزل التوراة والانجيل)[١٠٤] .

٤٨ ــ قوله جل ثناؤه (رب المشرق والمغرب)[١٠٥] و (رب المشرقين ورب المغربين)[١٠٦] و (رب المشارق والمغارب)[١٠٧] .

٤٩ ــ قوله تعالى (انه لقول رسول كريم)[١٠٨] مع قوله تعالى (استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم)[١٠٩] وقالوا : هذه صفة غير مطاع .

٥٠ ــ قوله تعالى (من رحيق مختوم)[١١٠] مع قوله (ختامه مسك)[١١١] ، قال الملاحدة : لم ختم ؟ ألخوف اللصوص أم الفارة ؟ [١١٢] .

٥١ ــ قوله تعالى (ويخشونه ولا يخشون أحدا الا الله)[١١٣] . مع قوله (وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه)[١١٤] .

---

(١٠٠) آل عمران/١٦٤ .
(١٠١) ، (١٠٢) البقرة/٢٧٣ .
(١٠٣) آل عمران/٣ .
(١٠٤) آل عمران/٣ .
(١٠٥) الشعراء/٢٨ والمزمل/٩
(١٠٦) الرحمن/١٧ .
(١٠٧) المعارج/٤٠ .
(١٠٨) الحاقة/٤٠ والتكوير/١٩
(١٠٩) التوبة/٨٠ .
(١١٠) المطففين/٢٥ .
(١١١) المطففين/٢٦ .
(١١٢) نكت الانتصار ص١٦٩
(١١٣) الاحزاب/٣٩ .
(١١٤) الاحزاب/٣٧ .

٥٢ ــ قوله تعالى (واذ واعدنا موسى أربعين ليلة)[١١٥] وقوله جل ثناؤه : (وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر)[١١٦] .

٥٣ ــ قوله جل ثناؤه (لا أقسم بهذا البلد)[١١٧] مع قوله (وهذا البلد الأمين)[١١٨] .

٥٤ ــ قوله تعالى (عذاب النار الذى كنتم به تكذبون)[١١٩] مع قوله عز وجل (عذاب النار التى)[١٢٠] .

٥٥ ــ قوله تعالى (توفته رسلنا)[١٢١] وقوله (تتوفاهم الملائكة)[١٢٢] وبين قوله عز وجل (قل يتوفاكم ملك الموت)[١٢٣] وبين قوله (الله يتوفى الأنفس)[١٢٤] وقوله (وهو الذى يتوفاكم بالليل)[١٢٥].

٥٦ ــ قوله تعالى (وما منع الناس أن يؤمنوا اذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم الا أن يأتيهم العذاب قبلا)[١٢٦] . مع قوله تعالى (وما منع الناس أن يؤمنوا اذ جاءهم الهدى الا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا)[١٢٧] .

٥٧ ــ قوله تعالى (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا)[١٢٨] . وقوله عز وجل (فمن أظلم ممن كذب على الله)[١٢٩] مع قوله (ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض ونسى ما قدمت يداه)[١٣٠] وقوله

---

(١١٥) البقرة/٥١ .
(١١٦) الاعراف/١٤٢ .
(١١٧) البلد/١ .
(١١٨) التين/٣ .
(١١٩) السجدة/٢٠ .
(١٢٠) سبأ/٤٢ .
(١٢١) الانعام/٦٠ .
(١٢٢) النحل/٢٨ .
(١٢٣) السجدة/١١ .
(١٢٤) الزمر/٤٢ .
(١٢٥) الانعام/٦٠ .
(١٢٦) الكهف/٥٥ .
(١٢٧) الاسراء/٩٤ .
(١٢٨) الانعام/٢١ .
(١٢٩) الزمر/٣٢ .
(١٣٠) الكهف/٥٧ .

(ومن أظلم ممن منع مساجد الله)[131] .

٥٨ ــ قوله (من تراب)[132] وقوله (من حمأ مسنون)[133] وقوله (من طين لازب)[134] وقوله (من صلصال كالفخار)[135] .

٥٩ ــ قوله تعالى (وترى الناس سكارى وما هم بسكارى)[136] وقوله (ويأتيه الموت من مكان وما هو بميت)[137] .

٦٠ ــ قوله تعالى (آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين)[138] وقوله (ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون)[139] وقوله (وتراهم ينظرون اليك وهم لا يبصرون)[140] .

وهذا ما سنتناوله بعونه تعالى فيما يلى .

١ ــ من مواطن يوم القيامة :

ادعى بعض الملاحدة وقوع التناقض فى القرآن الكريم ومثلوا لذلك بقوله تعالى ذكره (فيومئذ لا يسأل عن ذنبه انس ولا جان)[141] مع قوله تعالى فى موضـــع آخر (فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون)[142] .

وأجيب عن ذلك بأن يوم القيامة يكون كما قال الله تعالى (مقداره خمسين ألف سنة)[143] ففى مثل هذا اليوم يسألون ، وفيه لا يسألون ، لأنهم حين يعرضون يوقفـــون على الذنب ويحاسبون ، فاذا انتهت

---

(١٣١) البقرة/١١٤ .

(١٣٢) آل عمران/٥٩ .

(١٣٣) الحجر/٢٦ و ٢٨ و ٣٣

(١٣٤) الصافات/١١ .

(١٣٥) الرحمن/١٤ .

(١٣٦) الحج/٢ .

(١٣٧) ابراهيم/١٧ .

(١٣٨) البقرة/٨ .

(١٣٩) الانفال/٢١ .

(١٤٠) الاعراف/١٩٨ .

(١٤١) الرحمن/٣٩ .

(١٤٢) الحجر/٩٢ .

(١٤٣) المعارج/٤ .

المسألة ووجبت الحجة (انشقت السماء فكانت وردة كالدهان)[١٤٤] وانقطع الكلام ، وذهب الخصام واسودت وجوه قوم ، وابيضت وجوه آخرين ، وعرف الفريقان بسيماهم وتطايرت الصحف من الايدى فأخذ ذات اليمين الى الجنة ، وآخذ ذات الشمال الى النار[١٤٥] .

وعلى هذا فانه يمكن الجمع بين قوله تعالى (لنسألنهم أجمعين) وبين قوله (فيومئذ لا يسأل عن ذنبه انس ولا جان) بعدة وجوه :

الاول : قال ابن عباس رضى الله عنهما : لا يسألون سؤال الاستفهام لأنه تعالى عالم بكل أعمالهم ، وانما يسألون سؤال التقريع يقال لهم : لم فعلتم كذا ؟ ولم عصيتم القرآن وما حجتكم فيه[١٤٦] .

ولقائل أن يقول : هذا الجواب ضعيف ، لأنه لو كان المراد من قوله : (فيومئذ لا يسأل عن ذنبه انس ولا جان) سؤال الاستفهام لما كان فى تخصيص هذا النفى يومئذ فائدة ، لأن مثل هذا السؤال على الله تعالى محال فى كل الاوقات[١٤٧] .

---

(١٤٤) الرحمن/٣٧ .

(١٤٥) يقول الله تعالى (يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية . فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول : هاؤم اقرءوا كتابيه انى ظننت أنى ملاق حسابيه، فهو فى عيشة راضية فى جنة عالية قطوفها دانية . كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الايام الخالية . وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول ياليتنى لم أوت كتابيه ولم أدر ما حسابيه ياليتها كانت القاضية) الاحقاف/الآيات من ١٨ — ٢٧ .

ويقول جل ثناؤه (يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم اكفرتم بعد ايمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون . وأما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون) هود/١٠٦ — ١٠٧ .

(١٤٦) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ج١٣/٣١٥ .

(١٤٧) التفسير الكبير للرازى ج١٩/٢١٨ .

الثانى : أن يصرف النفى الى بعض الاوقات ، والاثبات الى وقت آخر ، لأن يوم القيامة طويل .

ولقائل أن يقول : قوله (فيومئذ لا يسأل عن ذنبه انس ولا جان) هذا تصريح بأنه لا يحصل السؤال فى ذلك اليوم ، فلو حصل السؤال فى جزء من أجزاء ذلك اليوم لحصل التناقض .

الثالث : أن نقول قوله : (فيومئذ لا يسأل عن ذنبه انس ولا جان) يفيد عموم النفى ، وقوله (وفربك لنسألنهم أجمعين) عائد الى المقتسمين وهذا خاص ، لا شك أن الخاص مقدم على العام[١٤٨] .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ فى قوله (فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون))[١٤٩] قال : عن قول (لا اله الا الله)[١٥٠] أى عن صدق لا اله الا الله ووفائها ، وذلك أن الله تعالى ذكر فى تنزيله العمل فقال : (عما كانوا يعملون) ولم يقل عما كانوا يقولون وان كان قد يجوز أن يكون القول أيضا عمل اللسان ، فانما المعنى به ما يعرفه أهل اللغة أن القول قول ، والعمل عمل .

وانما قال رسول الله ﷺ (عن لا اله الا الله) أى الوفاء بها والصدق لمقالها ، كما قال الحسن البصرى : ليس الايمان بالتحلى ، ولا الدين بالتمنى ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل ، ولهذا قال رسول الله ﷺ : « من قال لا اله الا الله مخلصا دخل الجنة قيل : يارسول الله وما اخلاصها ؟ قال : أن تحجزه عن المحارم »[١٥١] .

---

(١٤٨) التفسير الكبير للرازى ج١٩/٢١٨ — ٢١٩ .

(١٤٩) الحجر/٩٢ .

(١٥٠) الترمذى فى التفسير ، باب ومن سورة الحجر رقم ٣١٢٦ ، وفى سنده ليث بن سليم وهو ضعيف .

(١٥١) البخارى فى العلم ، باب الحرص على الحديث ، وفى الرقاق ، باب صفة الجنة والنار .

وروى عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : (لا اله الا الله تمنع العباد من سخط الله ما لم يؤثرا صفقة دنياهم على دينهم ، فاذا آثروا صفقة دنياهم على دينهم قالوا : لا اله الا الله ردت عليهم وقال كذبتم)[١٥٢] . والآية بعمومها تدل على سؤال الجميع ومحاسبتهم : كافرهم ومؤمنهم الا من دخل الجنة بغير حساب ، وأن القيامة مواطن : فموطن يكون فيه سؤال وكلام ، وموطن لا يكون ذلك منه ، أو لا يسأل عن فعله أحد منكم ، ولكن يسأل بقوله :

لم فعل الفاعل ، فلا يسأل سؤال استعلام ، بل يسأل سؤال توبيخ .

والفائدة فى بيان عدم السؤال على الوجه المشهور : التوبيخ لهم كقوله تعالى : (وجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة)[١٥٣] .

وعلى الثانى بيان أن لا يؤخذ منهم فدية ، فيكون ترتيب الآيات أحسن لأن فيها حينئذ بيان أن لا مفر لهم بقوله (ان استطعتم أن تنفذوا) ثم بيان أن لا مانع عنهم بقوله (فلا تنتصران) .

ثم بيان أن لا نداء لهم عنهم بقوله : لا يسأل ، وعلى الوجه الاخير بيان أن لا شفيع لهم ولا راحم .

وفائدة أخرى وهو أنه تعالى لما بين أن لا مفر لهم بقوله (لاتنفذون) ولا ناصر لهم يخلصهم بقوله (فلا تنتصران) بين أمرا آخر، وهو أن يقول المذنب : ربما أنجو فى ظل خمول واشتباه حال ، فقال ولا يخفى أحد من المذنبين بخلاف أمر الدنيا ، فان الشرذمة القليلة ربما تنجو من العذاب العام بسبب خمولهم .

---

(١٥٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ج١٣/٣١٥ .
(١٥٣) عبس/٤٠ — ٤١ .

وفائدة أخرى وهو أنه تعالى لما بين أن العذاب فى الدنيا مؤخر بقوله (سنفرغ لكم) بين أنه فى الآخرة لا يؤخر بقدر ما يسأل[١٥٤].

والآية بعمومها تدل على سؤال الجميع ومحاسبتهم : كافرهم ومؤمنهم .

ومن ذلك قوله جل ثناؤه : (لا تختصموا لدى وقد قدمت اليكم بالوعيد)[١٥٥] [١٥٦] وقوله عز وجل (هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون)[١٥٧] وهو سبحانه وتعالى ذكره يقول : (ثم انكم يوم

---

(١٥٤) التفسير الكبير للرازى ج٢٩/١٢٠ .

(١٥٥) الباء فى قوله (بالوعيد) اختلف فيها على عدة وجوه :

أحدها : أنها مزيدة كما فى قوله تعالى (تنبت بالدهن) على قول من قال : انها هناك زائدة وقوله (كفى بالله شهيدا) .

ثانيها : معدية ، فقدمت بمعنى تقدمت ، كما فى قوله (ياأيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله) الحجرات : ١ .

ثالثها : فى الكلام اضمار تقديره : وقدمت اليكم مقترنا بالوعيد .

رابعها : للمصاحبة مثل : (اشتريت الفرس بلجامه وسرجه) أى معه، فيكون كأنه تعالى قال : قدمت اليكم ما يجب مع الوعيد على تركه بالانذار.

(١٥٦) ق/٢٨ .

(١٥٧) المرسلات/٣٥ وقد أجمعت القراء على رفع «اليوم» ، ولو نصب لكان جائزا على جهتين :

احداهما : أن العرب اذا أضافت اليوم والليلة الى فعل أو يفعل ، أو كلمة بجملة لا خفض فيها نصبوا اليوم فى موضع الخفض والرفع .

والاخرى : أن تجعل هذا فى معنى فعل مجمل من (لا ينطقون) — وعيد الله وثوابه — فكأنك قلت : هذا الشأن فى يوم لا ينطقون ، والوجه الاول أجود ، والرفع أكثر فى كلام العرب .

القيامة عند ربكم تختصمون)[١٥٨] ويقول تعالى ذكره (هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين)[١٥٩] ٠

والجواب عن هذا كله نحو جوابنا الاول ، لأنهم يختصمون ويدعى المظلومون على الظالمين ففى تلك الحال يختصمون ، فاذا وقع القصاص وثبت الحكم قيل لهم : لا تختصموا ولا تنطقوا ولا تعتذروا ، فليس ذلك بمغن عنكم ولا نافع لكم فيخسئون ٠

روى عبد الرازق عن معمر عن قتادة : أن رجلا جاء الى عكــرمة فقال : أرأيت قول الله تعالى (هذا يوم لا ينطقون) وقوله (ثم انكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون) ؟ فقال : انها مواقف ، فأما موقف منها فتكلموا واختصموا ، ثم ختم الله على أفواههم فتكلمت ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم ، فحينئذ لا يتكلمون[١٦٠] قال الله تعالى (يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون)[١٦١] ٠

وقيل : معنى قوله (هذا يوم لا ينطقون) أى لا ينطقون بشىء يقوم لهم به حجة ولا عذر والعرب تقول : ما تكلم فلان بشىء ولا اعتذر بعذر ، اذا تكلم بكلام لا تقوم له به حجة ، ولذلك (فلا أنساب بينهم ولا يتساءلون)[١٦٢] والاشارة بـــ (هذا) الى وقت دخولهم النار ، أى هذا يوم لا ينطقون فيه بشىء لعظم الدهشة وفرط الحيرة ٠

ولا ينافى هذا ما ورد فى موضع آخر من النطق ، لأن يوم القيامة طويل ، له مواطن ومواقيت : ففى بعضها ينطقــون ، وفى بعضــها لا ينطقون ٠

---

(١٥٨) الزمر/٣١ ٠

(١٥٩) البقرة/١١١ والنمل/٦٤ والقصص والمناسب هنا القصص/٧٥.

(١٦٠) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص٤٦ ــ ٤٧ ٠

(١٦١) النور/٢٤ ٠ (١٦٢) الصافات/٢٧ ٠

ويروى أن نافع بن الازرق سأل ابن عباس رضى الله عنهما عن هذا السؤال : كيف يمكن الجمع بين قوله (هذا يوم لا ينطقون) وقوله (ثم انكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون) ؟ .

والجواب عنه من وجوه :

أحدها : قال الحسن فيه اضمار ، والتقدير : هذا يوم لا ينطقون فيه بحجة ، ولا يؤذن لهم فيعتذرون ، لأنه ليس لهم فيما عملوه عذر صحيح وجواب مستقيم ، فاذا لم ينطقوا بحجة سليمة وكلام مستقيم فكأنهم لم ينطقوا ، لأن من نطق بما لا يفيد فكأنه لم ينطق . ونظيره ما يقال لمن ذكر كلاما غير مفيد : ما قلت شيئا .

وثانيها : قال الفراء : أراد بقوله (يوم لا ينطقون) تلك الساعة وذلك القدر من الوقت الذى لا ينطقون فيه ، كما يقول (آتيك يوم يقدم أبوك ، ويوم تقدم) ، والمعنى ساعة يقدم ، وليس باليوم كله ، ولو كان يوما كله فى المعنى لما جاز فى الكلام اضافته الى فعل ، ولا الى يفعل ، ولا الى كلام مجمل ، مثل قولك : آتيك حين الحجاج أمير[١٦٣] .

وثالثها : أن قوله (لا ينطقون) لفظ مطلق ، والمطلق لا يفيد العموم ، لا فى الانواع ولا فى الاوقات ، بدليل أنك تقول : فلان لاينطق بالشر ولكنه ينطق بالخير وتارة تقول : فلان لا ينطق بشىء البتة . وهذا يدل على أن مفهوم لا ينطق قدر مشترك بين أن لا ينطق ببعض الاشياء ، وبين أن لا ينطق بكل الاشياء ، وكذلك تقول : فلان لا ينطق فى هذه الساعة ، وتقول فلان لا ينطق البتة ، وهذا يدل على أن مفهوم لا ينطق مشترك بين الدائم والمؤقت ، واذا كان كذلك فمفهوم لا ينطق يكفى فى صدقه عدم النطق ببعض الاشياء ، وفى بعض الاوقات ، وذلك

---

(١٦٣) معانى القرآن للفراء جـ٣/٢٢٦ والكشاف للزمخشرى جـ٤/٢٠٥ .

لا ينافى حصول النطق بشىء آخر فى وقت آخر ، فيكفى فى صدق قوله (لا ينطقون) أنهم لا ينطقون بعذر وعلة فى وقت السؤال[١٦٤] .

ورابعها : أن هذه الآية وردت عقب قول خزنة جهنم لهم : (انطلقوا الى ظل ذى ثلاث شعب)[١٦٥] فينقادون ويذهبون ، فكأنه قيل انهم كانوا يؤمرون فى الدنيا بالطاعات فما كانوا يلتفتون ، أما فى هذه الساعة فقد صاروا منقادين مطيعين فى مثل هذا التكليف الذى هو أشق من كل شىء ، تنبيها على أنهم لو تركوا الخصومة فى الدنيا لما احتاجوا فى قوله تعالى (هذا يوم لا ينطقون) متقيد بهذا الوقت فى هذا العمل ، وتقييد المطلق بسبب مقدمة الكلام مشهور فى العرف، بدليل أن المرأة اذا قالت : أخرج هذه الساعة من الدار ، فقال الزوج : لو خرجت فأنت طالق ، فانه يتقيد هذا المطلق بتلك الخرجة ، فكذا هاهنا .

وقد يقال : ان قوله تعالى (ولا يؤذن لهم فيعتذرون)[١٦٦] يوهم أن لهم عذرا وقد منعوا من ذكره ، ولهذا لا يليق بالحكيم ؟ .

والجواب أنه ليس لهم فى الحقيقة عذر ، ولكن ربما تخيلوا خيالا فاسدا أن لهم فيه عذرا ، فهم لا يؤذن لهم فى ذكر ذلك العذر الفاسد ولعل ذلك العذر الفاسد هو أن يقول لما كان الكل بقضائك وعلمك ومشيئتك وخلقك فلم تعذبنى عليه ، فان هذا عذر فاسد اذ ليس لأحد أن يمنع المالك عن التصرف فى ملكه كيف شاء وأراد .

---

(١٦٤) هذا الذى ذكرناه اشارة الى صحة الجوابين الاولين بحسب النظر العقلى . فان قيل : لو حلف لا ينطق فى هذا اليوم ، فنطق فى جزء من أجزاء اليوم يحنث . قلنا : مبنى الايمان على العرف ، والذى ذكرناه بحث عن مفهوم اللفظ من حيث انه هو .

(١٦٥) المرسلات/ ٣٠ .

(١٦٦) التفسير الكبير للرازى ج ٣٠/٢٧٩ — ٢٨٠ .

وأورد على ذلك قولهم : أليس أنه قال (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكـون للناس على الله حجة بعد الرسل)[١٦٨] وقال (ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت الينا رسولا)[١٦٩] والمقصود من كل ذلك أن لا يبقى فى قلبه أن له عذرا ، فهب أن عذره فى موقف القيامة فاسد فلم لا يؤذن له فى ذكره حتى يذكره ثم يبين له فساده ؟ .

وأجيب عن ذلك بأنه لما تقدم الاعذار والانذار فى الدنيا بدليل (فالملقيات ذكرا عذرا أو نذرا) . كان اعادتها غير مفيدة[١٧٠] .

والذى نخلص اليه أن يوم القيامة طويل ذو مواطن ومواقيت ينطقون فى وقت ، ولا ينطقون فى وقت آخر ، ولذلك ورد الامران فى القرآن الكريم ، أو جعل نطقهم كلا نطق ، لأنه لا ينفع ولا يسمع .

ومن ذلك قوله تعالى (اخسئوا فيها ولا تكلمون)[١٧١] يعنى فى وقت يوم ينطقون بعد ذلك .

روى عن قتادة ، عن أبى أيوب ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : أن أهل جهنم يدعون مالكا فلا يجيبهم أربعين عاما ، ثم يرد

---

(١٦٧) المرسلات/٣٦ . (١٦٨) النساء/١٦٥ .

(١٦٩) طه/١٣٤ .

(١٧٠) التفسير الكبير للرازى ج ٢٨٠/٣٠ .

(١٧١) المؤمنون/١٠٨ . قال المبرد : الحسن : ابعاد بمكروه .

وقال الزجاج : تباعدوا تباعد سخط وأبعدوا بعد الكلب ، فالمعنى على هذا : ابعدوا فى جهنم ، كما يقال للكلب : اخسأ ، أى أبعد ، خسأت الكلب خسأ طردته .

وقال الكسائى والفراء : الحسن : بالكسر بمعنى الاستهزاء بالقول ، وبالضم بمعنى السخرية . وقوله (ولا تكلمون) ليس هذا نهيا ، لأنه لا تكليف فى الآخرة ، بل المراد : لا تكلمون فى رفع العذاب ، فانه لا يرفع ولا يخفف .

عليهم : انكم ماكثون • قال : هانت والله دعوتهـم على مالك ورب العالمين • قال : ثم يدعون ربهم فيقولون : (ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ربنا أخرجنا منها فان عدنا فانا ظالمون)[١٧٢] قال : فيسكت عنهم قدر الدنيا مرتين • قال : ثم يرد عليهم (اخسئوا فيها) قال : فوالله ما لبس القوم بعدها بكلمة ، وما هو الا الزفير والشهيق فى نار جهنم ، نشبه أصواتهم بصـــوت الحمير أولها زفير وآخرها شهيق)[١٧٣] •

وروى عن حذيفة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : ان الله تعالى اذا قال لأهل النار (اخسئوا فيها ولا تكلمون) عادت وجوههم قطعـــة لحم ليس فيها أفواه ولا مناخر يتردد النفس فى أجوافهم[١٧٤] •

وروى عن محمد بن كعب قال : لأهل النار خمس دعوات يجيبهم الله تعالى فى أربعة فاذا كانت الخامسة لم يتكلموا بعدها أبدا •

يقولون (ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل الى خروج من سبيل)[١٧٥] فيجيبهم الله تعالى ذكره (ذلكم بأنه اذا دعى الله وحده كفرتم وان يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلى الكبير)[١٧٦] •

ثم يقولون : (ربنـــا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا انا موقنون)[١٧٧] فيجيبهم الله جل ثناؤه بقوله (فذوقوا العذاب بما نسيتم لقاء يومكم هذا انا نسيناكم وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون)[١٧٨] •

---

(١٧٢) المؤمنون/١٠٦ — ١٠٧ •

(١٧٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ١٢/١٥٣ ، وأخرجه الترمذى مرفوعا بمعناه من حديث أبى الدرداء • والطبرانى والبيهقى فى البعث ، وعبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد ، والحاكم وصححه •

(١٧٤) أخرجه ابن أبى الدنيا فى صفة النار والقرطبى جـ١٩/١٦٦ وروح المعانى للألوسى جـ٢٩/٣٢٤ من المجلد العاشر •

(١٧٥) غافر/١١ •

(١٧٦) غافر/١٢ •

(١٧٧) السجدة/١٢ •

(١٧٨) السجدة/١٤ •

ثم يقولون (ربنا أخرنا الى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل)[179] فيجيبهم الله تعالى بقوله (أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال)[180] ثم يقولون (ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذى كنا نعمل)[181] فيجيبهم الله تعالى (أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا وما للظالمين من نصير)[182] .

ثم يقولون (ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ربنا أخرجنا منها فان عدنا فانا ظالمون)[183] فيجيبهم الله عز شأنه بقوله (اخسئوا فيها ولا تكلمون)[184] فلا يتكلمون بعدها أبدا[185] .

ثم بين سبحانه وتعالى أن فزعهم بأمر يتصل بالمؤمنين ، وهو قوله (انه كان فريق من عبادى يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين فاتخذتموهم سخريا)[186] فوصف الله تعالى ما لأجله عذبوا وبعدوا من الخير ، وهو ما عاملوا به المؤمنين[187] .

ويمكن أن يكون قد أراد بقوله تعالى (اخسئوا فيها ولا تكلمون) أى لا يتكلمون بحجة نافعة ، ومن نطق بما لا ينفع ولا يفيد ، فكأنه ما نطق — قال الحسن : لا ينطقون بحجة وان كانوا ينطقون[188] .

وأما قوله تعالى (ولا يكلمهم الله)[189] مع قوله (وفربك لنسألنهم أجمعين)[190] وقوله (فلنسألن الذين أرسل اليهم ولنسألن المرسلين)،

---

(١٧٩) ابراهيم/٤٤ .
(١٨٠) ابراهيم/٤٤ .
(١٨١) فاطر/٣٧ .
(١٨٢) فاطر/٣٨ .
(١٨٣) المؤمنون/١٠٤ — ١٠٥
(١٨٤) المؤمنون/١٠٨ .
(١٨٥) روح المعانى ج١٨/٦٨
(١٨٦) المؤمنون/١٠٩ — ١١٠
(١٨٧) التفسير الكبير للرازى ج٢٣/١٢٦ والكشاف للزمخشرى ج٣/٤٤ .
(١٨٨) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ج١٩/١٦٦ .
(١٨٩) البقرة/١٧٤ وآل عمران/٧٧ .
(١٩٠) الحجر/٩٢ .

فظاهره أنه لا تكلمهم أصلا ، لكنه لما أوردت مورد الوعيد فهم منه ما يجرى مجرى العقوبة لهم ، **وذكروا فيه عدة أوجه :**

الاول :

أنه قد دلت الدلائل على أنه سبحانه وتعالى يكلمهم ، وذلك قوله (فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون) وقوله (فلنسألن الذين أرسل اليهم ولنسألن المرسلين) ، فعرفنا أنه يسأل كل واحد من المكلفين والسؤال لا يكون الا بكلام فقالوا : وجب أن يكون المراد من الآية أنه تعالى لا يكلمهم بتحية وسلام ، وانما يكلمهم بما يعظم عنده من الغم والحسرة من المناقشة والمساءلة بقوله : (اخسئوا فيها ولا تكلمون)[١٩١] •

الثانى :

أنه تعالى لا يكلمهم وأما قوله تعالى (فوربك لنسألنهم أجمعين) فالسؤال عما يكون من الملائكة بأمره تعالى وانما كان عدم تكليمهم يوم القيامة مذكورا فى معرض التهديد ، لأن يوم القيامة هو اليوم الذى تكلم الله تعالى فيه كل الخلائق بلا واسطة فيظهر عند كلامه السرور فى أوليائه ، وضده فى أعدائه ، ويتميز أهل الجنة بذلك من أهل النار ، فلا جرم كان ذلك من أعظم الوعيد •

والثالث :

أن قوله (ولا يكلمهم) استعارة عن الغضب ، لأن عادة الملوك أنهم عند الغضب يعرضون عن المغضوب عليه ولا يكلمونه كما أنهم عند الرضا يقبلون بالوجه والحديث[١٩٢] •

---

(١٩١) الاعراف/٦ •

(١٩٢) التفسير الكبير للرازى جـ ١٩/٥ • من المجلد الثالث وينظر جـ١١٦/٨ •

والذى نخلص اليه أن المقصود من ذلك بيان شدة سخط الله تعالى عليهم ، لأن من منع غيره كلامه فى الدنيا ، فانما ذلك بسخط الله عليه ، واذا سخط انسان على آخر قال له : لا أكلمك ، وقد يأمر بحجبه عنه، ويقول : لا أرى وجه فلان ، واذا جرى ذكره لم يذكره بالجميل ، فثبت أن هذه الكلمات كنايات عن شدة الغضب نعوذ بالله منه ، ومنهم من قال : لا يبعد أن يكون اسماع الله جل جلاله أولياءه كلامه بغير سفير تشريفا عاليا يختص به أولياءه ، ولا يكلم هؤلاء الكفرة والفساق ، وتكون المحاسبة معهم بكلام الملائكة ، ومنهم من قال : لا يكلمهم كلام يسرهم وينفعهم .

٢ ــ النفخ فى الصور :

ومن ذلك قوله تعالى ذكره (وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون)[١٩٣] مع قوله عز شأنه فى موضع آخر (فاذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون)[١٩٤] فانه لا منافاة بينهما ولا تناقض ، لأنه اذا نفخ فى الصور نفخة واحدة تقطعت الارحام وبطلت الانساب وشغلوا بأنفسهم عن التساءل (فصعق من فى السموات والأرض الا من شاء ربك)[١٩٥] .

وروى عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : اذا كان يوم القيامة جمع الله تعالى الاولين والآخرين وفى لفظ : (يؤخذ بالعبد أو الأمة يوم القيامة على رؤوس الاولين والآخرين ثم ينادى مناد ألا ان هذا فلان ابن فلان فمن كان له حق قبله فليأت الى حقه) . وفى لفظ : من كان له مظلمة فليجىء ليأخذ حقه ، فيفرح والله المرء أن يكون له الحق على

---

(١٩٣) الصافات/٢٧ والطور/٢٥ والمناسب هنا آية الصافات .

(١٩٤) المؤمنون/١٠١ .

(١٩٥) الزمر/٦٨ .

والده أو ولده أو زوجته ، وان كان صغيرا ومصداق ذلك : (فاذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم) .

وهذا الاثر يدل على أن هذا الحكم غير خاص بالكفرة ، بل يعمهم ويعم غيرهم .

فاذا نفخ فى الصور مرة أخرى قاموا ينظرون (وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون)[١٩٦] وقالوا : (من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون)[١٩٧] وهو معنى قول ابن عباس رضى الله تعالى عنهما[١٩٨] .

وعن الشعبى قال : قالت عائشة رضى الله عنها : يارســـول الله ، أما نتعارف يوم القيامة أسمع الله تعالى يقول (فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون) فقال ﷺ : (ثلاث مواطن تذهل فيها كل نفس ، حين يرمى الى كل انسان كتابه ، وعند الموازين ، وعلى جسر جهنم)[١٩٩] .

وقد يقال : ان التساؤل المنفى هنا — (فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون) تساؤل التعارف ونحوه مما يترتب عليه دفع مضرة ، أو جلب منفعة ، والتساؤل المثبت لأهل النار : تساؤل وراء ذلك ، وقد بينه سبحانه بقوله عز من قائل : (قالوا انكم كنتم تأتوننا عن اليمين)[٢٠٠] .. الآية وقد بين الله عز وجل ثناؤه تساؤل أهل الجنة بقوله تعالى ذكره: (قال قائل منهم انى كان لى قرين)[٢٠١] وهو أيضا نوع آخر من التساؤل ليس فيه أكثر من الاستئناس دون دفع مضرة عمن يتكلم معه أو جلب منفعة له .

---

(١٩٧) اقتباس من سورة يس الآية/٥٢ .

(١٩٨) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص٤٧ والجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ ١٥/٤٠ .

(١٩٩) التفسير الكبير للرازى جـ٢٣/١٢٣ .

(٢٠٠) الصافات/٢٨ . (٢٠١) الصافات/٥١ .

وقيل التساؤل المنفى : التساؤل بالانساب ، فكأنه قيل : لا أنساب بينهم ، ولا يسأل بعضهم بعضا بها ، والمراد أنها لا تنفـــع فى نفسها وعندهم • والآية — ولا يتساءلون — فى شأن الكفرة ، وتساؤلهم المثبت فى آية أخرى ليس تساؤلا بالانساب ، وهو ظاهر فلا اشكال •

وروى جماعة عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه سئل عن وجه الجمع بين النفى هنا والاثبات فى قوله سبحانه (وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون) فقال : ان نفى التساؤل فى النفخة الاولى حين لا يبقى على وجه الارض شىء ، واثباته فى النفخة الثانية •

وعلى هذا فالمراد عنده بقوله تعالى (فاذا نفخ فى الصور) فاذا نفخ النفخة الاولى ، وهذه احدى روايتين عنه رضى الله تعالى عنه •
والرواية الثانية حمله على النفخة الثانية ، وحينئذ يختار فى وجه الجمع أحد الاوجه التى أشرنا اليها[٢٠٢] •

وقد روى ابن المبارك عن الحسن قال : قال رسول الله ﷺ (بين النفختين أربعون سنة ، الاولى يميت الله بها كل حى ، والاخرى يحيى الله بها كل ميت)[٢٠٣] •

فان قيل : ان قوله تعالى (يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة) الى أن قال (فانما هى زجرة واحدة)[٢٠٤] وهذا يقتضى أنها ثلاث •

قيل له : ليس كذلك ، وانما المراد بالزجرة النفخة الثانية التى يكون عنها خروج الخلق من قبورهم ، كذا قاله ابن عباس ومجاهد وعطاء

---

(٢٠٢) روح المعانى للالوسى جـ٢٣/٨١ من المجلد الثامن .

(٢٠٣) البخارى عن أبى هريرة فى تفسير سورة الزمر ، باب قوله (ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات) جـ٨/٤٢٤ ، وفى تفسير سورة (عم يتساءلون) ، مسلم فى الفتن ، باب ما بين النفختين رقم ٢٩٩٥ .

(٢٠٤) الصافات/١٩ .

وغيرهم . قال مجاهد : هما صيحتان : أما الاولى فتميت كل شيء ، باذن الله وأما الاخرى فتحيي كل شيء باذن الله .

وعلى ضوء ما سبق يمكننا أن نقول انه لا تناقض بين قوله تعالى (ولا يتساءلون) وقوله (وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون) وأنه يمكن الجواب عنه من وجوه :

أحدها : أن يوم القيامة (مقداره خمسون ألف سنة)[٢٠٥] ففيه أزمنة وأحوال مختلفة فيتعارفون ويتساءلون فى بعضها ، ويتحيرون فى بعضها لشدة الفزع .

وثانيها : أنه اذا نفخ فى الصور نفخة واحدة شغلوا بأنفسهم عن التساؤل فاذا نفخ فيه أخرى أقبل بعضهم على بعض وقالوا : (ياويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن)[٢٠٦] .

وثالثها : المراد لا يتساءلون بحقوق النسب .

ورابعها : أن قوله (لا يتساءلون) صفة للكفار ، وذلك لشدة خوفهم ، أما قوله (فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون) فهو صفة أهل الجنة اذا دخلوها .

وخامسها : أن التساؤل المنفى تساؤل التعارف مما يترتب عليه دفع مضرة أو جلب منفعة والتساؤل المثبت لأهل النار تساؤل وراء ذلك.

كما يمكن أن نقول : لا تناقض بين قوله (فلنسألن الذين أرسل اليهم ولنسألن المرسلين)[٢٠٧] ماذا أجيبوا ، والمراد من هذا السؤال توبيخ الكفرة وتقريعهم ، والمنفى فى قوله (فيومئذ لا يسأل عن ذنبه انس ولا جان[٢٠٨] سؤال الاستعلام ، فلا منافاة بين الآيتين .

---

(٢٠٥) المعارج/٤ .

(٢٠٦) يس/٥٢ .

(٢٠٧) الاعراف/٦ .

(٢٠٨) الرحمن/٣٩ .

وجمع آخرون بينهما بأن للمثبت موقفا وللمنفى آخر •

وقيل انهم لا يسألون عن الاعمال ، أى ما فعلتم ، ولكن يسألون عن الدواعى التى دعتهم الى الاعمال والصوارف التى صرفتهم عنها ، أى لم كان كذا •

وقيل معنى (لا يسأل عن ذنبه انس ولا جان) لا يعاقب بذنبه غـــيره •

وقيل المراد من الذين أرسل اليهم الانبياء ومن المرسلين الملائكة الذين هم بلغوهم رسالات ربهم •

وقيل انه لا حاجة الى التوفيق ، فان المنفى هو السؤال عن الدنيا لا مطلق السؤال • ورد بأن عدم قبول دعوة الرسل عليهم الصـــلاة والسلام ذنب ، وأى ذنب فسؤالهم عنه ينافيه[210] •

٣ ـ طعام أهل النار :

طعن بعض الاحدة فى القرآن وقالوا : ان قوله تعالى فى وصف العام أهل متناقض فهو يقول (ليس لهم طعام الا من ضريع)[211] ويقول فى سورة أخرى (فليس له اليوم هاهنا حميم ولا طعام الا من غسلين)[212] والضريع غير الغسلين •

وقال عز شأنه أيضا فى صفة أهل النار (ثم انكم أيها الضالون لآكلون من شجر من زقوم)[213] •

---

(٢٠٩) روح المعانى للالوسى جـ٨/٨١ •

(٢١٠) روح المعانى للالوسى جـ٨/٨١ •

(٢١١) الغاشية/٦ •   (٢١٢) الحاقه/٣٦ •

(٢١٣) الواقعة/٥١ ـ ٥٢ •

والجواب عن ذلك أن الآية الاولى قد وصفت طعام أهل النـــار بقوله جل ثناؤه (ليس لهم طعام الا من ضريع) والضريع نبت ذو شوك لاصق بالارض تسميه قريش الشبرق اذا كان رطبا ، فاذا ييبس فهـــو لا تقربه دابة ولا بهيمة ولا ترعاه ، وهو سم قاتل ، وهو أخبث الطعام وأشنعه[٢١٤] • على هذا عامة المفسرين •

وروى الضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما قوله : هو شيء يرمى به البحر ، يسمى الضريع من أقوات الانعام ، لا الناس ، فاذا وقعت فيه الابل لم تشبع وهلكت هزلا • والصحيح ما قاله الجمهور أنه نبت •

وقال الزمخشرى : الضريع يبيس الشبرق ، وهو جنس من الشوك ترعاه الابل مادام رطبا ، فاذا ييبس تحامته الابل ، وهو سم قاتل ، قال أبو ذؤيب[٢١٥] •

رعى الشبرق الريان حتى اذا ذوى ضريعا بان عنه النحائص

وقال الهذلى[٢١٦] ، وذكرا بلا وسوء مرعاها :

وحبسن فى هزم الضريع فكلها جدباء دامية اليدين حرود[٢١٧]

وقال الخليل : الضريع نبات أخضر منتن الريح يرمى به البحر • ونقل بعضهم عن ابن عباس أنه شجر من نار ، ولو كانت فى الدنيـــا لأحرقت الارض ومن عليها •

---

(٢١٤) معانى القرآن للفراء ج٣/٢٥٧ واللسان ج١٤/٧ .

(٢١٥) الكشاف للزمخشرى ج٤/٢٤٦ واللسان ج١٤/٧. والنحائص : جمع النحوص (بفتح النون) وهى الاتان الوحشية الحامل ، وقيل هى التى فى بطنها ولد . وقيل : التى لا لبن لها .

(٢١٦) الهذلى : هو قيس بن عيزارة ، كما فى اللسان .

(٢١٧) هزم الضريع : ما تكسر منه ، والحدباء : النـــاقة التى بدت حراقفها وعظم ظهرها . والحرود : التى لا تكاد تدر .

وقال عكرمة : والاظهر أنه شجر ذو شوك حسب ما هو فى الدنيا .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : (الضـــريع شىء يكون فى النار ، يشبه الشوك ، أشد مرارة من الصبر ، وأنتن من الجيفة ، وأحر من النار سماه الله ضريعا) .

وعن أبى الدرداء رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « يلقى على أهل النار الجوع فيعدل ما هم فيه من العذاب ، فيستغيثون ، بالطعام ، فيغاثون بطعام ذى غصة ، فيتذكرون أنهم كانوا يجيزون الغصص فى الدنيا بالشراب ، فيستغيثون بالشراب ، فيدفع اليهم الحميم بكلاليب الحديد ، فاذا أدنى من وجوههم ثوث وجوههم ، فاذا دخل بطونهم ، قطع ما فى بطونهم ، فيقولون : ادعوا خزنة جهنم عســاهم يخففون عنا ، فيقولون لهم : (ألم تك تأتيكم رسلكم بالبينات ؟ قالوا: بلى ، قالوا فادعوا وما دعؤا الكافرين الا فى ضلال)[218] فيقولون : ادعوا مالكا ، فيقولون : (يامالك ليقض علينا ربك) فيجيبهم (انكم ماكثون)[219] .

قال الاعمش : نبئت أن بين دعائهم واجابة مالك لهم مقدار ألف عام فيقولون : ادعوا ربكم ، فلا تجدون خيرا منه ، فيقولون (ربنـــا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ، ربنا أخرجنا منها ، فان عدنا فانا ظالمون)[220] قال فيجيبهم (اخسئوا فيها ولا تكلمون)[221] . فعند ذلك يئسوا من كل خير ، وعند ذلك يأخذون فى الزفير والحسرة والويل[222] .

---

(٢١٨) غافر/٥٠ . (٢١٩) الزخرف/٧٧ .

(٢٢٠) المؤمنون / ١٠٦ — ١٠٧ . (٢٢١) المؤمنون/١٠٨ .

(٢٢٢) الترمذى فى صفة جهنم ، باب ما جاء فى صفة طعام أهل النار رقم ٢٥٨٩ .

وقال خالد بن زياد : سمعت المتوكل بن حمدان يسأل عن هذه الآية (ليس لهم طعام الا من ضريع) قال : بلغنى أن الضريع شجرة من نار جهنم جملها القيح والدم أشد مرارة من الصبر ، فكذلك طعامهم.

وقال الحسن هو بعض ما أخفاه الله من العذاب .

وقال ابن الكيسان هو طعام يضرعون عنده ، ويذلون ويتضرعون منه الى الله تعالى طلبا للخلاص منه ، فسمى بذلك ، لأن آكله يضرع أن يعفى منه لكراهته وخشونته .

قال أبو جعفر النحاس قد يكون مشتقا من الضارع ، وهو الذليل، أى ذو ضراعة أى من شربه ذليل تلحقه ضراعة[٢٢٣] .

وقد قال الله تعالى فى موضع آخر فى صفة طعام أهل النار (فليس له اليوم هاهنا حميم ولا طعام الا من غسلين)[٢٢٤] والغسلين : فعلين من غسلت كأنه الغسالة .

قال الفراء : هو ما يسيل من صديد أهل النار[٢٢٥] .

وقال الزمخشرى : — أيضا — هو غسالة أهل النار ، وما يسيل من أبدانهم من الصديد والدم ، فعلين من الغسل[٢٢٦] .

وقد أشار القرآن الكريم الى طعام آخر من أطعمة أهل النار ، هو طعام الزقوم . قال الله تعالى : (ثم انكم أيها الضالون المكذبون لآكلون من شجر من[٢٢٧] زقوم)[٢٢٨] .

---

(٢٢٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ج ٢٠/٣٠ .

(٢٢٤) الحاقة/٣٦ .

(٢٢٥) معانى القرآن للفراء ج ٣/١٨٣ .

(٢٢٦) الكشاف للزمخشرى ج٤/١٥٤ .

(٢٢٧) الواقعة/٥١ — ٥٢ .

(٢٢٨) من الاولى لابتداء الغاية والثانية لبيان الشجر وتفسيره ، وأنث ضمير الشجر على المعنى وذكره على اللفظ فى قوله : منها وعليه . ومن قرا: (من شجرة من زقوم) فقد جعل الضميرين للشجرة وانما ذكر الثانى على تأويل الزقوم ، لأنه تفسيرها ، وهى فى معناه .

قال الواحدى : لم يذكر المفسرون للزقوم تفسيرا الا الكلبى فانه روى أنه لما نزلت هذه الآية قال ابن الزبعــرى أكثر الله فى بيوتكــم الزقوم ، فان أهل اليمن يسمون التمر والزبد بالزقوم ، فقال أبو جهل لجاريته زقمينا فأتته بزبد وتمر ، وقال : تزقموا . ثم قال الواحدى ومعلوم أن الله تعالى لم يرد بالزقوم هاهنا الزبد والتمر .

قال ابن دريد : لم يكن للزقوم اشتقاق من التزقم وهو الافراط من أكل الشىء حتى يكره ذلك يقال : بات فلان يتزقم .

وظاهر لفظ القرآن يدل على أنهــا شجرة كريهة الطعــم منتنة الرائحة شديدة الخشونة موصوفة بصفات كل من تناولها عظــم من تناولها ، ثم انه تعالى يكره أهل النار على تأول بعض أجزائها(٢٢٩) .

ومعلوم أنه لا خير فى شجرة الزقوم ، ولكن المؤمنين لما اختاروا ما أدى الى الرزق المعلوم ، واختار الكافرون ما أدى الى شــجرة الزقوم قيل لهم : (أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم)(٢٣٠) أى قيــل لهم ذلك توبيخا على سوء اختيارهم(٢٣١) ثم انه تعالى لما ذكر هذه الشجرة وصفها بصفات :

(أ) (انا جعلناها فتنة للظالمين)(٢٣٢) أى محنة وعذابا لهم فى الآخرة أو ابتلاء لهم فى الدنيا ، وذلك أنهم قالوا : كيف يكون فى النار شجرة والنار تحرق الشجر ، فكذبوا والجواب عنه : أن خالق النار قادر على أن يمنع النار من احراق الشجر ، ولأنه اذا جاز أن يكون فى زبانية والله تعالى يمنع النار عن احراقهم فلم لا يجوز مثله فى هذه الشجرة ؟ .

---

(٢٢٩) التفسير الكبير للرازى ج٢٦/١٤١ – ١٤٢ .

(٢٣٠) الصافات/٦٢ – ٦٦ .

(٢٣١) الكشاف للزمخشرى ج٣/٥٠٦ .

(٢٣٢) الصافات/٦٣ .

(ب) وهى شجرة تخرج فى أصل الجحيم ، قيل منبتها فى قعر جهنم ، وأغصانها ترتفع الى دركاتها • قال تعالى : (انها شجرة تخرج فى أصل الجحيم)[٢٣٣] •

(جـ) وهذه الشجرة (طلعها كأنه رؤوس الشياطين) • قال صاحب الكشاف : الطلع للنخلة فاستعير لما طلع من شجرة الزقوم من حملها اما استعارة لفظية أو معنوية[٢٣٤] •

وقال ابن قتيبة : سمى (طلعا) لطلوعه كل سنة ، ولذلك قيل : طلع النخل لأول ما يخرج من ثمره[٢٣٥] •

وأما تشبيه هذا الطلع برؤوس الشياطين ففيه سؤال ، لأنه قيل: انا ما رأينا رؤوس الشياطين ، فكيف يمكن تشبيه شىء بها ؟ •

وأجابوا عنه من وجوه :

الاول : وهو الصحيح أن الناس لما اعتقدوا فى الملائكة كمال الفضل فى الصورة والسيرة واعتقدوا فى الشياطين نهاية القبح والتشويه فى الصورة والسيرة ، فكما حسن التشبيه بالملك عند ارادة تقرير الكمال والفضيلة فى قوله (ان هذا الا ملك كريم)[٢٣٦] • فكذلك وجب أن يحسن التشبيه برؤوس الشياطين فى القبح وتشويه الخلقة •

والحاصل أن هذا من باب التشبيه لا بالمحسوس ، بل بالمتخيل ، كأنه قيل : ان أقبح الاشياء فى الوهم والخيال هو رؤوس الشياطين ، فهذه الشجرة تشبهها فى قبح النظر وتشويه الصورة • والذى يؤكد هذا أن العقلاء اذا رأوا شيئا شديد الاضطراب منكر الصورة قبيح

---

(٢٣٣) الصافات/٦٤ .

(٢٣٤) الكشاف جـ٣/٥٠٦ .

(٢٣٥) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص٤٩ .

(٢٣٦) يوسف/٣١ .

الخلقة ، قالوا : انه شيطان ، واذا رأوا شيئا حسن الصورة والسيرة قالوا : انه ملك ، وقال امروء القيس :

أيقتلني والمشرفي مضاجعي ومسنونة زرق كأنياب أغوال

وان كانت الغول لا تعرف ، ولكن لما تصور من قبحها في النفوس، وقد قال الله تعالى : (شياطين الانس والجن)[٢٣٧] فمرده الانس شياطين مرئية ، وفي الحديث : (ولكأن نخلها رءوس الشياطين)[٢٣٨] .

الثاني : قال الزجاج والفراء : الشياطين حيات لها رءوس وأعراف ، وهي من أقبح الحيات وأخبثها وأخفها جسما ، قال الراجز قد شبه المرأة بحية لها عرف :

بمنجرد تحلف حين أحلف كمثل شيطان الحماط أعرف[٢٣٩]

الثالث : قال الزمخشري : هو شجر خشن منتن مر منكر الصورة يسمى ثمرة رءوس الشياطين .

وقيل الشياطين ضرب من الحيات قباح[٢٤٠] .

والوجه الاول هو الجواب الحق، ولما ذكر الله تعالى هذه الشجرة[٢٤١] وذكر صفتها بين أن الكفار (لآكلون منها فمالئون منها البطون)[٢٤٢] واقدامهم على ذلك الاكل يحتمل وجهين :

---

(٢٣٧) الانعام/١١٢ .

(٢٣٨) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٤/١٠ ونكت الانتصار لنقل القرآن للباقلاني ص١٤٨ .

(٢٣٩) الحماط : الواحدة حماطة . والاعراف الذي له عرف . العنجرد : المرأة الخبيثة السيئة الخلق .

(٢٤٠) التقميح : الاعوجاج في السير ، وسهم عوج : يتلوى في ذهابه: وتعمجت الحية : اذا تلوت في سيرها .

(٢٤١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج ١٥/٢٨ ومعاني القرآن للفراء ج٢/٣٨٧ .

(٢٤٢) الصافات/٦٦ .

ـ أنهم أكلوا منها لشـدة الجـوع ، وهم يأكلونها مع نهـاية خشونتها ونتنها ومرارة طعمها ، لأن الواقع فى الضرر العظيـم ربما استروح منه الى ما يقاربه فى الضرر ، فاذا جوعهم الله الجوع الشديد فزعوا فى ازالة ذلك الجوع الى تناول هذا الشىء وان كان بالصفة المذكورة .

ـ أو أن يقال ان الزبانية يكرهونهم على الاكل من تلك الشجرة تكميلا لعذابهم ، واذا شبعوا فحينئذ يشتد عطشهم ويحتاجون الى الشراب ، فعند هذا وصف الله شرابهم فقال (ثم ان لهم عليها لشوبا من حميم)[٢٤٣] قال الزجاج : الشوب اسم عام فى كل ما خلط بغيره ، والحميم الماء الحار المتناهى فى الحرارة ، والمعنى أنه اذا غلبهم ذلك العطش الشديد شقوا من ذلك الحميم ، فحينئذ يشوب الزقوم بالحميم، نعوذ بالله منهما[٢٤٤] .

والذى نخلص اليه هـو أن تشبيه طلع شـجر الزقوم برءوس الشياطين قد أثار جدلا كثيرا حتى ذهب بعض الطاعنين وقالوا : كيف تكون فى النار شجرة وهى تحـرق الشـجر ؟ . فأنزل الله عز وجل (وما جعلنا الرؤيا التى أريناك الا فتنة للناس والشجرة الملعونة فى القرآن)[٢٤٥] يعنى بالرؤيا ما رآه ﷺ ليلة أسرى به ، وأخبر عنه فأرشد لذلك قوم ، وزاد الله فى بصائر قوم ، وأراد بالشجرة الملعونة شجرة الزقوم[٢٤٦] .

---

(٢٤٣) الصافات/٦٧ .

(٢٤٤) التفسير الكبير للرازى جا٣١/١٥٤ .

(٢٤٥) الاسراء/٦٠ .

(٢٤٦) تأويل مشكل القرآن ص٤٩ ـ ٥٠ .

وقد جعل الله عز وجل هذه الشجرة فتنة للظالمين ، ومنبتها فى قعر جهنم ، وأعضائها ترتفع الى درجاتها ، وحملها — طالعها — الذى يخرج منها مستعار من طلع النخلة لمشاركته له فى الشكل والطلوع من الشجر، قالوا : أول التمر طلع ، ثم خلال ، ثم بلح ، ثم بسر ، ثم رطب ، ثم تمر . وقد شبه الله عز وجل طلعهـا برءوس الشياطين ، اقبحهم ، ورءوس الشياطين مقصود فى النفوس وان كان غير مرئى ، ومن ذلك قولهم لكل قبيح هو كصورة الشيطان ، ولكل صورة حسنة هى كصورة ملك ، وهذا تشبيه تخييلى .

والغسلين غير الضريع ، وغير الزقوم ، ومن أجل هذا قيل : كيف قال (ليس لهم طعام الا من ضريع)[٢٤٧] وقال (ولا طعــام الا من غسلين)[٢٤٨] وقال (ثم انكم أيها الضالون المكذبون لآكلون من شجر من زقوم)[٢٤٩] ؟ .

وأجيب عن ذلك بعدة أوجه :

الاول : أن العــذاب ألوان ، والمعذبون طبقــات ، فمنهم أكلة الزقوم ، ومنهم أكلة الغسلين ، ومنهم أكلة الضريع ، لكل باب منهم جزء مقسوم[٢٥٠] .

ومنهم من شرابه الصديد ، ومنهم من شرابه الحميم ، وهذا نحو قوله جل ثناؤه (سرابيلهم من قطران)[٢٥١] و (سرابيلهم من قطران) قراءة عكرمة ومن تابعه[٢٥٢] والقطر النحاس ، وانى الذى قد بلغ

---

(٢٤٧) الغاشية/٦ . (٢٤٨) الحاقة/٣٦ .

(٢٤٩) الواقعة/٥١ — ٥٢ .

(٢٥٠) التفسير الكبــير للرازى جـ٣١/١٥٤ والكشــاف للزمخشرى جـ٤/١٥٤ . (٢٥١) ابراهيم/٥٠ .

(٢٥٢) القراءات الشاذة ص ٧٠ .

حره[٢٥٣] كأن قوما يسربلون هذا ، وقوما يسربلون هذا ، ويلبسون هذا تارة ، وهذا تارة[٢٥٤] •

الثانى : يحتمل أن يكون الغسلين من الضريع ، ويكون ذلك كقوله (ما لى طعام الا من الشاة) ثم يقول : (ما لى طعام الا اللبن) ولا تناقض لأن اللبن من الشاة[٢٥٥] •

الثالث : يجوز أن تحتمل الآيتان على حالتين ، كما قال الله تعالى (يطوفون بينها وبين حميم آن)[٢٥٦] وكقوله (وان يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل)[٢٥٧] وكقوله (كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها)[٢٥٨] لأنهم يخرجون فيستغيثون فيظهر لهم من بعد شيء مانع هو صديدهم المغلى ، فيظنونه ماء ، فيردون عليه كما يرد العطشان فيقعون ويشربون منه شرب الهيم ، فيجدونه أشد حرا فيقطع أمعاءهم، كما أن العطشان اذا وصل الى ماء مالح لا يبحث عنه ولا يذوقه ، وانما يشربه عبا ، فيحرق فؤاده ، ولا يسكن عطشه ، وقوله (حميم) اشارة الى ما فعل فيه من الاغلاء ، وقوله (آن) اشارة الى ما قبله ، وهو كما يقال : قطعته فانقطع ، فكأنه حمته النار فصار فى غاية السخونة ، وأن الماء اذا انتهى فى الحر نهاية •

ويجوز أن يكون الضريع وشجرة الزقوم نبتين من النار ومن جوهر لا تأكله النار ، وكذلك سلاسل النار وأغلالها ، وعقاربها وحياتها، ولو كانت على ما نعلم ما بقيت على النار • وانما دلنا الله تعالى على

---

(٢٥٣) اللسان جـ٦/٤١٧ وهامش رقم ٣ ص٤٩ من تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة •

(٢٥٤) تأويل مشكل القرآن ص٤٩ •

(٢٥٥) التفسير الكبير للرازى جـ٣١/١٥٤ •

(٢٥٦) الرحمن/٤٤ •

(٢٥٧) الحج/٨٠ •

(٢٥٨) الكهف/٢٩ •

الغائب عنده بالحاضر عندنا ، فالاسماء مشتقة الدلالة والمعانى مختلفة ، وكذلك ما فى الجنة من شجرها وفرشها .

وأمثل من ذلك أن تقول : ان الذى يبقى للكافرين فى النلاليد وعم عليهم العذاب يبقى النبات وشجرة الزقوم فى النار ليعذب بها الكفار .

وزعم بعضهم أن الضريع بعينه لا ينبت فى النار ، ولا أنهم يأكلونه ، فالضريع بين أقوات الانعام ، لا من أقوات الناس ، واذا وقعت الابل فيه لم تشبع ، وهلكت هزلا ، فأراد أن هؤلاء يقتاتون بما لا يشبعم ، وضرب الضريع له مثلا ، أنهم يعذبون بالجوع ، كما يعذب من قوته الضريع .

وهذا نظر سقيم من أهله ، وتأويل دنىء ، كأنه يدل على أنهم تحيروا فى قدرة الله تعالى ، وأن الذى أنبت فى التراب هذا الضريع قادر على أن ينبته فى حريق النار ، جعل لنا فى الدنيا من الشجر الاخضر نارا ، فلا النار تحرق الشجر ، ولا رطوبة الماء فى الشجر تطفىء النار ، فقال تعالى (الذى جعل لكم من الشجر الاخضر نارا فاذا أنتم منه توقدون)[٢٥٩] .

وكما قيل حين نزلت (ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم)[٢٦٠] قالوا : يارسول الله كيف يمشون على وجوههم ؟ .

فقال ﷺ (الذى أمشاهم على أرجلهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم)[٢٦١] فلا يتحير فى مثل هذا الا ضعيف القلب ، أوليس قد أخبرنا أنه (كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها)[٢٦٢] وقال

---

(٢٥٩) يس/٨٠ . (٢٦٠) الاسراء/٩٧ .

(٢٦١) التفسير الكبير جا٣١/١٥٤ .

(٢٦٢) النساء/٦٥ .

عز شأنه (سرابيلهم من قطران)[٢٦٣] وقال جل ثناؤه (ان لدينا أنكالا)[٢٦٤] أى قيودا •

وعلى هذا فان قوله تعالى (ليس لهم طعام الا من ضريع)[٢٦٥]• لا ينافى قوله (ولا طعام الا من غسلين)[٢٦٦] لأن فريقا من أهل النار طعامهم الضريع ، وآخرين طعامهم الغسلين ، وآخرين طعامهم الزقوم• وقوم شراب الحميم (فشاربون عليه من الحميم ، فشاربون شرب الهيم هذا نزلهم يوم الدين)[٢٦٧] وقال عز شأنه (وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم)[٢٦٨] وترى هؤلاء فى جهنم حيارى يطوفون بين الحميم وبين الماء الحار ، يقول الله تعالى (يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، هذه جهنم التى يكذب بها المجرمون يطوفون بينها وبين حميم آن)[٢٦٩] •

والهيم هى الابل العطاش اذا أكلت الحمض[٢٧٠] ، وقيل هى الابل الظماء اذا أخذها الداء الهيام لا تكاد تروى[٢٧١] • وعطش أهل النار الشديد يجعلهم يشربون من الماء المغلى فلا يرتوون ، ومثلهم فى هذا مثل الابل الهيم •

وعلى هذا فان مشهد الابل الهيم يصور لنا بدقة العطش الدائم واللوعة المستمرة التى يعانيها المجرمون يوم القيامة •

---

(٢٦٣) ابراهيم/٥٠ •
(٢٦٤) المزمل/١٢ •
(٢٦٥) الغاشية/٦ •
(٢٦٦) الحاقة/٣٦ •
(٢٦٧) الواقعة/٥٣ — ٥٦ •
(٢٦٨) محمد/١٥ •
(٢٦٩) الرحمن/٤١ — ٤٤ •
(٢٧٠) تفسير الطبرى ج٢٧/١٩٥ •
(٢٧١) تنوير المقياس من تفسير ابن عباس رضى الله تعالى عنهما . تأليف الفيروزآبادى أبى طاهر محمد بن يعقوب ، ت٨١٧هـ . القاهرة ، مطبعة الاستقامة ١٩٦٠م ص٣٣٩ •

٤ ــ عذاب أهل النار :

طعن بعض الملاحدة فقال : ان قوله تعالى (كلما خبت زدناهم سعيرا)[٢٧٢] يناقض قوله (أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون)[٢٧٣] وأيضا قوله (ان المجرمين فى عذاب جهنم خالدون لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون)[٢٧٤] .

والجواب عن ذلك يستلزم تفسير معنى (خبت) والربط بين الآيتين :

قال الواحدى : (الخبو) سكون النار ، يقال : خبت النار تخبو اذا سكن لهبها ومعنى خبت سكنت وطفئت ، يقال فى مصدره : الخبو ، وأخبأها المخبى اخباء ، أى أخمدها[٢٧٥] .

وقال فى البحر : قال ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ كلما فرغت من احراقهم فيسكن اللهيب القائم عليهم قدر ما يعاندون ، ثم يثور ، فتلك زيادة السعير ، فالزيادة فى قبرهم وأما جهنم فعلى حالها من الشدة لا يصيبها فتور ، فعلى هذا يكون خبت مجازا عن سكون لهبها مقدار ما تكون اعادتها ، كأنهم لما كذبوا بالاعادة بعد الافناء جعل الله جزاءهم أن سلط النار على أجزائهم تأكلها وتفنيها ثم يعيدها لا يزالون على الافناء والاعادة ليزيد ذلك فى تحسيرهم على تكذيبهم . ولأنه أدخل فى الانتقام من الجاحد ، وقد دل على ذلك بقوله (ذلك جزاؤهم)[٢٧٦] .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما

---

(٢٧٢) الاسراء/٩٧ .　　(٢٧٣) البقرة/٨٦ .

(٧٤) الزخرف/٧٤ ــ ٧٥ .

(٢٧٥) التفسير الكبير للرازى جـ٢١/٦٢ من المجلد الحادى عشر .

(٢٧٦) البحر المحيط جـ٦/٦٢ والكشاف للزمخشرى جـ٢/٤٦٧ .

أنه قال فى الآية : (ان الكفرة قود النار ، فاذا أحرقتهم فلم يبق شىء صارت جمرا تتوهج ، فذلك خبوها ، فاذا دلوا خلقا جديدا عاودتهم .

ولعل ذلك عقوبة لهم على انكارهم الاعادة بعد الافناء بتكررها مرة بعد الاخرى ليروها برهانا . كما يفصح عنه ما بعده من قوله تعالى شأنه (ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا وقالوا أءذا كنا عظاما ورفاتا أءنا لمبعوثون خلقا جديدا)[٢٧٧] .

واستشكل ما ذكر بأن قوله تعالى (كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها)[٢٧٨] يدل على أن النار لا تتجاوز عن انضاجهم الى احراقهم وافنائهم فيعارض ذلك .

وأجيب عن ذلك بأن تبديلهم جلودا غيرها باحراقها وافنائها وخلق غيرها ، فكأنه قيل : كلما نضجت جلودهم أحرقناها وأفنيناها وخلقنا لهم غيرها .

وقيل : ان المراد كلما نضجت جلودهم كمال النضج بأن يبلغ شيها الى حد لو بقيت عليه لا يحس صاحبها بالعذاب ، وهو مرتبة الاحتراق بدلناهم .. الخ . ويدل على ذلك قوله (ليذوقوا العذاب).

وقيل : انه يجوز أن يحصل تارة لجلودهم النضج ، وتارة الافناء، أو كل منهما فى حق قوم ، على أنه لا سد لباب المجاز بأن يجعل النضج عبارة عن مطلق تأثير النار ، اذ لا يحصل فى ابتداء الدخول غير الاحراق دون النضج[٢٧٩] .

وربما يتوهم ـــ كما قيل ـــ أن بين هذه الآية الكريمة وقوله تعالى (فلا يخفف عنهم العذاب)[٢٨٠] تعارضا ، لأن الخبو يستلزم

---

(٢٧٧) الاسراء/٩٨ . (٢٧٨) النساء/٥٦ .
(٢٧٩) تفسير العلامة أبى السعود جـ٣/٣٥٤ .
(٢٨٠) البقرة/٨٦ .

التخفيف . وهو مدفوع بأن الخبو سكون اللهب ـ كما سبق ـ أى كلما سكن لهبها بأن أكلت جلودهم ولحومهم ولم يبق عنهم ما تتعلق به النار وتحرقه ، زدناهم توقدا ، بأن بدلناهم جلودا غيرها ، فعادت ملتهبة ومستعرة ، واستلزامه تخفيف عذاب النار ممنوع .

على أننا لو سلمنا الاستلزام فالعذاب الذى لا يخفف ليس منحصرا بالعذاب بالنار والايلام بحرارتها ، وحينئذ يمكن أن يعوض ما فات منه بسكون اللهب بنوع آخر من العذاب مما لا يعلمه الا الله.

وقيل ان قوله تعالى (زدناهم سعيرا) يقتضى ظاهرة أن الحالة الثانية أزيد من الحالة الاولى ، فتكون الحالة الاولى تخفيفا بالنسبة الى الحالة الثانية . وأنه حصل فى الحالة الاولى خوف حصول الثانية فكان العذاب شديدا .

ويحتمل أن يقال : لما عظم العذاب صار التفاوت الحاصل فى أثنائه غير مشعور به ، نعوذ بالله تعالى منه .

وقد يقال : ليس فى الآية أكثر من ازدياد توقدهم ، ولعله لا يستلزم ازدياد عذابهم ، والمراد من الآية كلما أحرقوا أعيدوا الا أنه عبر بما عبر عنه للمبالغة ، ويشير الى كون المراد ذلك قوله تعالى (زدناهم) دون زدناها[(٢٨١)] .

قال الباقلانى : يحتمل أن يكون الخبو زيادة حرها ، ونحوه قول الشاعر :

قلت أطعمينى يا عمير تمرا — وكان تمرا كهرة وزبرا

فجعل تفسير الكهرة والزبر تمرا ، فكأن الله تعالى قال : كلما خبت ، أى ازداد حرها وتضرمها زاد عذابهم[(٢٨٢)] .

---

(٢٨١) روح المعانى للالوسى جـ ١٧٧/١٥ من المجلد الخامس .

(٢٨٢) نكت الانتصار لنقل القرآن للباقلانى ص١٦١ .

وعلى ضوء ما سبق فانه يمكننا أن نقول : انه قد أورد بعضهم على قوله (كلما خبت ...) أنه لا يخفف عنهم العذاب وقوله (كلما خبت) يدل على أن العذاب يخف فى ذلك الوقت .

وأجيب عن ذلك بأن قوله (كلما خبت) يقتضى سكون لهب النار، أما لا يدل هذا على أنه يخفف العذاب فى ذلك الوقت .

وأيضا فان ظاهر قوله تعالى (كلما خبت زدناهم سعيرا) ظاهرة يقتضى وجوب أن تكون الحالة الثانية أزيد عن الحالة الاولى ، واذا كان كذلك كانت الحالة الاولى بالنسبة الى الحالة الثانية تخفيفا .

والجواب عن ذلك أن الزيادة التى حصلت فى الحالة الاولى أخف من حصولها فى الحالة الثانية ، فكان العذاب شديدا ويحتمل أن يقال : لما عظم العذاب صار التفاوت الحاصل فى أوقاته غير مشعور به ، نعوذ بالله منه .

ـ خلق السماء والارض أيهما تقدم ؟ :

قال بعض الملاحدة ان قوله تعـالى (قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين ، وجعل فيها رواسى من فوقها ، وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين ، ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللارض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين)(٢٨٣) .

فدلت هذه الآيات على أن الله تعالى خلق الارض قبل السماء ، وكذا قوله (هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ، ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شىء عليم)(٢٨٤) .

وهذا يتناقض مع قوله (أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها رفع سمكها فسواها أغطش ليلهـا وأخرج ضحـاها والأرض بعد ذلك

---

(٢٨٣) فصلت/٩ ـ ١١ .　　(٢٨٤) البقرة/٢٩ .

دحاها)[٢٨٥] فدلت هذه الآيات على أنه خلق السماء قبل الأرض ، كما قال أيضا (الحمد لله الذى خلق السموات والأرض)[٢٨٦] .

والجواب عن ذلك أنه : (ليس على كتاب الله تحريف الجاهلين وغلط المتأولين ، وانما كان يجد الطاعن متعلقا ومقالا لو قال : والارض بعد ذلك خلقها ، أو ابتدأها ، أو أنشأها ، وانما قال : (دحاها) فابتدأ الخلق للأرض على ما فى الآى الاول فى يومين ، ثم خلق السموات وكانت دخانا فى يومين ثم دحا بعد ذلك الارض ، أى بسطها[٢٨٧] وحدها ، وكانت ربوة مجتمعة وأرساها بالجبال ، وأثبت فيها النبات فى يومين ، فتلك ستة أيام سواء للسائلين ، وهو معنى قول ابن عباس رضى الله عنهما .

والعرب تقول : دحوت الى الشىء أدحوه دحوا اذا بسطته .

ويقال لعش النعامة : أدحى ، لأنه مبسوط على وجه الارض .

وقال أمية بن أبى الصلت :

وبث الخلق فيها اذا دحاها ... فهم قطانها حتى التنادى

وأنشد المبرد :

دحاها فلما رآها استوت ... على الماء أرسى عليها الجبالا

وقيل : (دحاها) سواها ، ومنه قول زيد بن عمرو :

وأسلمت وجهى لمن أسلمت ... له الأرض تحمل صخرا ثقالا
دحاها فلما استوت شدها ... بأيد فارس عليها الجبالا

---

(٢٨٥) النازعات/٢٧ — ٣٠ . (٢٨٦) الانعام/١ .
(٢٨٧) اللسان جـ١٨/٢٧٥ .

وقال مجاهد : (بعد ذلك) فى الموضع بمعنى : مع ذلك ، و (مع) (وبعد) فى كلام العرب سواء[288] كأنه قال : والارض مع ذلك دحاها .

ومما يؤيد ذلك قوله تعالى : (عتل بعد ذلك زنيم)[289] ومنه قولهم : أنت أحمق وأنت بعد هذا سيىء الخلق ، قال الشاعر :

فقلت لها عنى اليك فاننى حرام وانى بعد ذاك لبيب

أى مع ذلك لبيب .

وقيل (بعد) بمعنى قبل ، كقوله تعالى (ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون)[290] أى من قبل الفرقان ، قال أبو فراس الهذلى :

حمدت الهى بعد عروة اذ نجا خراش وبعض الشر أهون من بعض

وزعموا أن خراشا نجا قبل مروة .

وقيل : (دحاها) حرثها وشقها . وقيل : (دحاها) مهدها للأقوات .

وقال مجاهد وغيره من المفسرين : أنه تعالى أيبس الماء الذى كان عرشه عليه فجعله أرضا وثار منه دخان فأرتفع ، فجعله سماء فصار خلق الارض قبل خلق السماء ، ثم قصد أمره الى السماء فسواهن سبع سموات ، ثم دحا الارض بعد ذلك وكانت اذ خلقها غير من حوة[291] .

وقال مجاهد فى قوله تعالى : (وهو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا)[292] قال : خلق الله الارض قبل السماء ، كما فى قوله (قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها

---

(288) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص48 .

(289) القلم/13 .

(290) الانبياء/105 .

(291) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ج1/255 .

(292) البقرة/29 .

فى أربعة أيام سواء للسائلين • ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين فقضاهن سبع سموات فى يومين ، وأوحى فى كل سماء أمرها)[٢٩٣] فهذه ، وهذه دالتان على أن الارض خلقت قبل السماء • ثم عقب على ذلك ابن كثير بقوله : (وهذا ما لا أعلم فيه نزاعا بين العلماء الا ما نقله ابن جرير عن قتادة أنه زعم أن السماء خلقت قبل الارض)[٢٩٤] •

وقد توقف فى ذلك القرطبى فى تفسيره لقول الله تعالى (أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها رفع سمكها فسواها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها ، والارض بعد ذلك دحاها)[٢٩٥] فقال : قالوا : فذكر خلق السماء قبل الارض ، وفى صحيح البخارى أن ابن عباس رضى الله عنهما سئل عن هذا بعينه ، فأجاب بأن الارض خلقت قبل السماء ، وأن الارض انما دحيت بعد خلق السماء[٢٩٦] •

وقيل ان (الدحى) مفسر بقوله تعالى (والأرض بعد ذلك دحاها ، أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها)[٢٩٧] ففسر الدحى باخراج ما كان مودعا فيها بالقوة الى الفعل ، لما كملت صورة المخلوقات الارضية ثم السماوية دحى بعد ذلك الارض ، فأخرجت ما كان مودعا فيها من المياه ، فنبتت على اختلاف أصنافها وألوانها وأشكالها ، وكذلك جرت هذه الافلاك فدارت بما فيها من الكواكب الثوابت والسيارة[٢٩٨] •

---

(٢٩٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ١/١٦٨ •

(٢٩٤) ينظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ١/٢٥٥ •

(٢٩٥) النازعات/٢٧ — ٣٠ •

(٢٩٦) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ ٢٠/.

(٢٩٧) النازعات/٣٠ — ٣١ •

(٢٩٨) نكت الانتصار لنقل القرآن للباقلانى ص١٤٩ والمغنى للقاضى عبد الجبار ، اعجاز القرآن جـ١٦/٣١٣ — ٣١٤ •

وجواب آخر وهو أن قوله تعالى (خلق الارض فى يومين)[٢٩٩] و (قدر فيها أقواتها فى أربعة أيام)[٣٠٠] ان هذا كقول القائل : حوطت دارى فى يومين ، وكملت مرافقها كلها فى عشرة أيام ، لا يعنى عشرة غير اليومين ، بل هى داخلة فيها[٣٠١] .

وقال ابن الانبارى : ومثاله قول القائل — أيضا — : خرجت من البصرة الى بغداد فى عشرة أيام والى الكوفة فى خمسة عشر يوما ، أى فى تتمة خمسة عشر يوما ، فيكون المعنى أن حصول جميع ما تقدم من خلق الارض وما بعدها فى أربعة أيام[٣٠٢] .

والذى نخلص اليه أن ظاهر الآيات فى سـورة النازعات[٣٠٣] — التى أشرنا اليها آنفا — يقتضى كون الارض بعد السماء ، وقوله فى حم السجدة (ثم استوى الى السماء)[٣٠٤] يقتضى كون السـماء بعد الارض ، مما دفع بعض الملاحدة الى القول بأن بين الآيات تناقضا وتعارضا .

والجواب عن ذلك يتلخص فيما يلى :

أولا : أن الله تعالى خلق الارض ، ثم خلق السماء ثانيا ، ثم دحى الارض أى بسطها ثالثا ، وذلك ، لأنها كانت أولا كالكرة المجتمعة ، ثم ان الله تعالى مدها وبسطها .

وثانيا : أن لا يكون معنى قوله (دحاها) مجرد البسط ، بل يكون

---

(٢٩٩) فصلت/٩ . (٣٠٠) فصلت/١٠ .

(٣٠١) نكت الانتصار ص١٤٩ واعجاز القرآن للقاضى عبد الجبـار ج١٦/٣١٤ .

(٣٠٢) فتح القدير للشوكانى ج٤/٥٠٧ .

(٣٠٣) النازعات/٢٧ — ٣٠ .

(٣٠٤) فصلت/١٠ — ١١ .

المراد أنه بسطها بسطا مهيأ لنبات الاقوات ، وهذا هو الذى بينه قوله (أخرج منها ماءها ومرعاها) ، وذلك لأن الاستعداد لا يحصل للارض الا بعد وجود السماء •

وثالثها : أن يكون قوله (والأرض بعد ذلك)[٣٠٥] أى (مع ذلك)، كقوله تعالى (عتل بعد ذلك زنيم)[٣٠٦] أى مع ذلك ، وقولك للرجل : أنت كذا وكذا ثم أنت بعدها كذا ، لا تريد به الترتيب •

وقال تعالى (فك رقبة ، أو اطعام فى يوم ذى مسغبة) الى قوله (ثم كان من الذين آمنوا)[٣٠٧] والمعنى وكان مع هذا من أهل الايمان بالله •

ورابعها : أن العطف بـ (ثم يقتضى التراخى فى الزمان ، ولا زمان اذ ذاك ، فقيل أشار بـ (ثم) الى التفاوت الحاصل بين خلق السماء والارض فى القدر • وقيل لما كان بين خلق الارض والسماء أعمال من جعل الرواسى ، والبركة فيها ، وتقدير الاقوات عطف بـ (ثم) اذ بين خلق الارض والاستواء تراخ يدل على ذلك قوله (قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الارض فى يومين) الآية •

٦ ــ كفار مكة :

طعن بعض الملاحدة فقال ان قوله (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون)[٣٠٨] يناقض قوله بعد ذلك : (وما لهم ألا يعذبهم الله)[٣٠٩] •

ولا منافاة بين الآيات الكريمة ، فان النضر بن الحرث [٣١٠] قال:

---

(٣٠٥) النازعات/٣٠ •
(٣٠٦) القلم/١٣ •
(٣٠٧) البلد/١٣ ــ ١٨ •
(٣٠٨) الانفال/٣٣ ــ ٣٤ •
(٣٠٩) الانفال/٣٤ •
(٣١٠) كان قد خرج الى الحيرة فى التجارة ، كليلة ودمنة ، وكسرى =

ما حكاه الله عنه : (اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم)[٣١١] والمعنى : ان القـــرآن ان كان حقا منزلا من عندك فأمطر علينا الحجارة عقوبة على انكارنا ، أو ائتنا بعذاب أليم • واسناده الى الكل ، لما أنه كان رئيسهم وقاضيهم الذى يقولون بقوله ويأخذون برأيه • وقيل قاله الذين ائتمروا فى أمره ﷺ فى دار الندوة ، وهذا كما ترى فى غاية المكابرة ونهاية العنـــاد ، كيف لا ولو استطاعوا شيئا من ذلك فما الذى كان يمنعهم من المشيئة وقد تحدوا عشر سنين وقرعوا على العجز ، وذاقوا من ذلك الامرين ثم قورعوا بالسيف ، فلم يعارضوا بما سواه مع أنفتهم وفرط استنكارهم أن يغلبوا ، لا سيما فى باب البيان •

وروى أنه لما قال : (ان هذا الا أساطير الأولين) قال له النبى ﷺ : (ويلك انه كلام الله تعالى) •

حكى أن ابن عباس رضى الله عنهما لقيه رجل من اليهود ، فقال اليهودى : من أنت ؟ قال من قريش • فقال : أنت من القوم الذين قالوا : (اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك) الآية فهلا عليهم أن يقولوا : ان كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له ! وان هؤلاء قـــوم يجهلون •

=

وقيصر ، فما قص رسول الله ﷺ أخبار حين مضى ، قال النضر : لو شئت لقلت مثل هذا وكان هذا وقاحة وكذبا ، فأنزل الله (واذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثـــل هذا ان هذا الا أســـاطير الأولين) الانفال/٣١ •

وقيل انهم توهموا أنهم يأتون بمثله ، لما توهمت سحرة موسى عليـــه السلام ، ثم راموا ذلك فعجزوا عنه قالوا عنادا : ان هذا الا أســـاطير الاولين •

(٣١١) الانفال/٣٢ •

قال ابن عباس : وأنت يا اسرائيلى من القـوم الذين لم تجف أرجلهم من بلل البحر الذى أغرق فيه فرعون وقومه وأنجى موسى وقومه حتى قالوا : (اجعل لنا الها كما لهم آلهة)[٣١٢] فقال لهم موسى (انكم قوم تجهلون) فأطرق اليهودى مفحما وأنزل الله عز وجل قوله بعد ذلك (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم)[٣١٣] ، [٣١٤] جواب كلمتهم الشنعاء ، وبيان للموجب لامهالهم والتوقف فى اجابة دعائهم . واللام لتأكيد النفى ، والدلالة على أن تعذيبهم عذاب استئصال والنبى ﷺ بين أظهرهم خارج عن عادته تعالى غير مستقيم فى حكمه وقضائه[٣١٥] لأن عادة الله وقضية حكمته أن لا يعذب قوما عذاب استئصال مادام نبيهم بين أظهرهم ، وفيه اشعار بأنهم مرصدون بالعذاب اذا هاجر عنهم ، والدليل على هذا الاشعار قوله (وما لهم ألا يعذبهم الله) وانما يصح هذا بعد اثبات التعذيب كأنه قال : وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وهو معذبهم اذا فارقتهم ، وما لهـم أن لا يعذبهـم : (وهم يستغفرون) فى موضع الحال ، ومعناه نفى الاستغفار عنهـم ، أى ولو كانوا ممن يؤمن ويستغفر من الكفر لما عذبهم ـ كقوله : (وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون)[٣١٦] ولكنهـم لا يؤمنون ولا يستغفرون ولا يتوقع ذلك منهم .

وقيل معناه : وما كان الله معذبهم وفيهم من يستغفر وهم المسلمون

---

(٣١٢) الاعراف/١٣٨ . (٣١٣) الانفال/٣٣ .

(٣١٤) البخارى فى تفسيره سورة الانفـال ، باب قوله (واذ قالوا اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك) وباب (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) جـ٨/٢٣٢ ، مسلم فى صفات المنافقين ، باب قوله تعالى (وما كان الله ليعذبهم) رقم ٢٧٩٦ .

(٣١٥) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص٥١ .

(٣١٦) هود/١١٧ .

بين أظهرهم ممن تخلف عن رسول الله ﷺ بين المستضعفين[٣١٧] .
ثم بين المولى عز وجل سبب استحقاقهم العذاب ، بعد بيان أن المنع ليس من قبلهم فى قوله جل ثناؤه (وما لهم ألا يعذبهم الله) أى وما لهم مما يمنع تعذيبه حتى زال ذلك ، وكيف لا يعذبون (وهم يصدون عن المسجد وما كانوا أولياؤه ان أولياءه الا المتقون)[٣١٨] أى وأى شىء لهم فى انتفاء العذاب عنهم ، يعنى لا حظ لهم فى ذلك ، وهم معذبون لا محالة ، وكيف لا يعذبون وحالهم أنهم يصدون عن المسجد الحرام كما صدوا رسول الله ﷺ عام الحديبية ، واخراجهم رسول الله ﷺ والمؤمنين من الصد ، وكانوا يقولون : نحن ولاة البيت الحرام ، فنصد من نشاء وندخل من نشاء وما استحقوا مع اشراكهم وعداوتهم للدين أن يكونوا ولاة أمره وأربابه (ان أولياؤه الا المتقون) من المسلمين ، ليس كل مسلم أيضا من يصلح لأن يلى أمره ، انما يستأهل ولايته من كان برا تقيا ، فكيف بالكفرة عبدة الاصنام[٣١٩] ؟ .

وقال مجاهد فى قوله (وهم يستغفرون) علم أن فى أصلابهم من يستغفر وقيل ان الاستغفار هنا يراد به الاسلام ، أى « وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) أى يسلمون ، قاله مجاهد وعكرمة[٣٢٠] .

والذى نخلص اليه أن الله تعالى بين فى الآية الاولى أنه لا يعذبهم مادام رسول الله ﷺ فيهم ، وذكر فى الآية التى بعدها أنه يعذبهم ، فكان المعنى أنه يعذبهم اذا خرج رسول الله ﷺ من بينهم ، ثم اختلفوا فى هذا العذاب ، فقال بعضهم : لحقهم هذا العذاب المتوعد به يوم بدر ، وقيل بل يوم فتح مكة ، وقال ابن عباس : هذا العذاب هو عذاب الآخرة ،

---

(٣١٧) الكشاف للزمخشرى جـ٢/١٥٥ — ١٥٦ .

(٣١٨) الانفال/٣٤ .

(٣١٩) الكشاف للزمخشرى جـ٢/١٥٦ .

(٣٢٠) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ٧/٣٩٩ .

والعذاب الذى نفاه عنهم هو عذاب الدنيا ، ثم بين تعـالى ما لأجله يعذبهم فقال (وهم يصدون عن المسجد الحرام) وقد ظهرت الاخبار أنهم كيف صدوا عنه عام الحديبية ، ونبه على أنهم يصدون لادعائهم أنهم أولياؤه ، ثم بين بطلان هذه الدعوى بقوله (وما كانوا أولياءه ان أولياؤه الا المتقون) • الذين يتحرزون عن المنكرات ، كالذى كانوا يفعلونه عند البيت من المكاء والتصدية ، والمقصود بيان أن من كانت هذه حاله لم يكن وليا للمسجد الحرام ، فهم اذن أهل لأن يقتلوا بالسيف ويحاربوا ، فقتلهم الله يوم بدر ، وأعز الاسلام بذلك •

٧ ــ ثواب الدنيا :

ومن ذلك قوله تعالى (ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها)[٣٢١] •

قال الطاعنون فى كتاب الله تعـالى : نرى من يريدها ولا يصل اليها •

والجواب أن من كان عمله للدنيا فقط ناله منها ما قدره الله له ، ولم يكن له فى الآخرة من نصيب ، ومن قصد بعمله الدار الآخرة أعطاه الله منها ، وقسم له فى الدنيا ، كما قال الله جل ثناؤه (من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له فى الآخرة من نصيب[٣٢٢] •

وقال عز شأنه (من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ، ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا ، ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا)[٣٢٣] ولهذا

---

(٣٢١) آل عمران/١٤٥ •
(٣٢٢) الشورى/٢٠١ •
(٣٢٣) الاسراء/١٩ •

قال هنا (وسنجزى الشاكرين) أى سنعطيهم من فضلنا ورحمتنا فى الدنيا والآخرة بحسب شكرهم وعملهم[٣٢٤] .

وقد نزلت هذه الآية — (ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها) — فى الذين تركوا المركز طلبا للغنيمة .

وقيل هى عامة فى كل من أراد الدنيا دون الآخرة ، والمعنى نؤته منها ما قسم له[٣٢٥] .

على أن أفعال الكافر اذا كانت برا كصلة القرابة ، وجبر الكسير واغاثة الملهوف ، لا يثاب عليها ولا ينتفع بها فى الآخرة بيد أنه يلام بها فى الدنيا . دليله ما روى عن عائشة رضى الله عنها قالت : قلت : يارسول الله ابن جدعان كان فى الجاهلية يصل الرحم ، ويطعم المسكين، فهل ذلك نافعة ؟ . قال : (لا ينفعه انه لم يقل رب اغفر لى خطيئتى يوم الدين)[٣٢٦] ، [٣٢٧] ويمكن أن يكون أراد نؤته منها اما قليلا ، واما كثيرا ، فكل من أرادها أوتى منها شيئا)[٣٢٨] .

وقد ذهب أكثر العلماء الى أن هذه الآية — (ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها — مطلقة وكذلك قوله (من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون)[٣٢٩] ، وكذلك قوله (من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها)[٣٣٠] .

---

(٣٢٤) تفسير القرآن العظيم جا/٤١٠ وتفسير العلامة أبى السعود جا/٤٢٦ .

(٣٢٥) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ج٤/٢٢٧ .

(٣٢٦) الشعراء/٨٢ . (٣٢٧) القرطبى ج٤/٢٢٧ .

(٣٢٨) نكت الانتصار لنقل القرآن للباقلانى ص ١٥٠ .

(٣٢٩) هود/١٥ . (٣٣٠) الشورى/٢٠ .

قيدها وفسرها التى فى الاسراء (من يكن يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد)[331] فأخبر سبحانه أن العبد ينوى ويريد والله سبحانه يحكم ما يريد .

وروى الضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله (من كان يريد الحياة الدنيا) أنها منسوخة بقوله (من كان يريد العاجلة)[332] ، .

والصحيح ما ذكرناه ، وأنه من باب الاطلاق والتقييد ، ومثله قوله تعالى : (واذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان)[334] فهذا ظاهره خبر عن اجابة كل داع وانما على كل حال، وليس كذلك لقوله تعالى (فيكشف ما تدعون اليه ان شاء)[335] والنسخ فى الاخبار لا يجوز ، لاستحالة تبدل الواجبات العقلية ، ولاستحالة

---

(٣٣١) الاسراء/١٨ . (٣٣٢) الاسراء/١٨ .

(٣٣٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ج٩/١٤ .

(٣٣٤) البقرة/١٨٦ .

(٣٣٥) الانعام/٤١ . فيكون هذا من باب المطلق والمقيد ، كما أن قوله تعالى : (أجيب) لا يقتضى الاستجابة مطلقا لكل داع على التفصيل ، ولا بكل مطلوب على التفصيل فقد قال الله فى آية أخرى (ادعو ربكم تضرعا وخفية أنه لا يحب المعتدين) الاعراف/٥٥ . وكل من على كبيرة عالما بها ، أو جاهلا فهو معتد ، وقد أخبر أنه لا يحب المعتدين فكيف يستجيب له . وروى عن النبى ﷺ أنه قال : (سيكون قوم يعتدون فى الدعاء) أخرجه ابن ماجه . والاعتداء فى الدعاء على وجوه :

منها أن يدعو الانسان فى أن تكون له منزلة نبى ، أو يدعو فى محال.

ومنها : الجهر الكثير والصياح .

ومنها : أن يدعو الانسان بما ليس فى الكتاب والسنة ، وكل هذا مما يمنع الدعاء .

الكذب على الله تعالى ، فأما الاخبار عن الاحكام الشرعية فيجوز نسخها على خلاف فيه .

٨ ـ فى قصة ابراهيم عليه السلام :

قال الله تعالى (واذ قال ابراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى . قال أولم تؤمن . قال بلى ولكن ليطمئن قلبى)[٣٣٦] .

قال الطاعنون فى القرآن : ان قول ابراهيم فى هذه الآية ينقض قول الله عنه (ان ابراهيم لحليم أواه منيب)[٣٣٧] .

والجواب عن ذلك أن الآية الاولى لا تتناقض مع وصف الله تعالى لابراهيم بأنه (حليم أواه منيب) ، لأنه يحتمل أن يكون أراد قلوب الشاكين غيره ، فذكر نفسه وأرادهم[٣٣٨] .

ولم يكن ابراهيم عليه السلام شاكا فى احياء الله تعالى الموتى قط ، وانمـا طلب المعاينـة ، وذلك أن النفوس مستشرفة الى رؤية ما أخبرت به[٣٣٩] ، ولهذا قال ﷺ « ليس الخبر كالمعاينة »[٣٤٠] .

يقول ابن كثير : انه لما قال للنمرود « ربى الذى يحيى ويميت » أحب أن يترقى من علم اليقين بذلك الى عين اليقين ، وأن يرى ذلك مشاهدة فقال : (رب أرنى كيف تحيى الموتى ...)[٣٤١] .

وقال الاخفش : لم يرد رؤية القلب وانما أراد رؤية العين .

---

(٣٣٦) البقرة/٢٦٠ .　　(٣٣٧) هود/٧٥ .

(٣٣٨) نكت الانتصار لنقل القرآن ص ١٥٠ .

(٣٣٩) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ٣/١٩١ .

(٣٤٠) أحمـد فى المسند جـ١/٢١٥ و ٢٧١ وابن حبـان رقم ٢٠٨٧ و ٢٠٨٨ ص ٥١٠ . والحاكم فى المسند جـ٢/٣٢١ .

(٣٤١) البقرة/٢٦٠ .

وقال الحسن وقتادة وسعيد بن جبير : سـأل ليزداد يقينا الى يقينه .

وترجم الطبرى فى تفسيره فقال : وقال آخرون سأل ذلك ربه ، لأنه شك فى قدرة الله تعالى ، وأدخل تحت الترجمة عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : ما فى القرآن آية أرجى عندى منها(٣٤٢) .

وروى ابن جرير باسناده عن سعيد بن المسيب قال : اتفق عبد الله ابن عباس وعبد الله بن عمرو بن العاص أن يجتمعا . فقال أحدهما لصاحبه : أى آية فى كتاب الله أرجى عندك لهذه الامة(٣٤٣) .

وانتقد ابن عطية ما ترجم به الطبرى حيث يقول : وما ترجم به الطبرى عندى مردود وما أدخل تحت الترجمة متـأول ، فأما قول ابن عباس : (هى أرجى آية) فمن حيث فيها الادلال على الله تعالى وسؤال الاحياء فى الدنيا وليست مظنة ذلك . ويجوز أن يقول : هى أرجى آية لقوله (أولم تؤمن) أى ان الايمان كان لا يحتاج معه الى تنقير وبحث .

وأما قول عطاء : دخل قلب ابراهيم يعلن ما يدخل قلوب الناس . فمعناه من حيث المعاينة على ما تقدم .

وأما قول النبى ﷺ (نحن أحق بالشك من ابراهيم)(٣٤٤) فمعناه

---

(٣٤٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ١/٣١٥ .

(٣٤٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ٣/٣٩١ .

(٣٤٤) البخارى فى الانبياء ، باب قوله (ونبئهم عن ضيف ابراهيم) جـ٦/٢٩٣ وباب (لقد كان فى يوسف واخوته آيات لسائلين) وفى التفسير . باب و (اذ قال رب أرنى كيف تحيى الموتى) ومسلم فى الايمان ، باب زيادة طمأنينة القلب رقم ١٥١ والترمذى فى التفسير ، باب ومن سـورة يوسف رقم ٣١١٥ .

أنه لو كان شاكا لكنا نحـــن أحق به ، ونحـــن لا نشك فابراهيم عليه السلام أحرى ألا يشك ، فالحديث مبنى على نفى الشك عن ابراهيم ، والذى روى فيه عن النبىﷺ أنه قال : « ذلك محض الايمان » انما هو فى الخواطر التى لا تثبت ، وأما الشك فهـــو توقف بين أمرين لا مزية لأحدهما على الآخر وذلك هو المنفى عن الخليل عليه السلام .

واحياء الموتى انما ثبت بالسمع وقد كان ابراهيم عليه السلام أعلم به ، يدلك على ذلك قوله (ربى الذى يحيى ويميت) فالشك يبعد على من تثبت قدمـــه فى الايمان فقط فكيف بمرتبة النبوة والخله ، والانبياء معصومون من الكبائر ومن الصغائر التى فيها رذيلة(٣٤٥) .

واذا تأملت سؤاله عليه السلام وسائر ألفاظ الآية لم تعط شكا ، وذلك أن الاستفهام بكيف انما هو سؤال عن حالة شىء موجود متقرر الوجود عند السائل والمسئول ، نحو قولك : كيف علم زيد ؟ وكيف نسج الثوب ؟ ونحو هذا ومتى قلت : كيف ثوبك وكيف تريد ؟ فانما السؤال عن حال من أحواله .

وقد تكون «كيف» خبرا عن شىء شأنه أن يستفهم عنه بكيف ، نحو قولك : كيف شئت فكن ، نحـــو قول البخارى : كيف كان بدء الوحى .

و (كيف) فى هذه الآية انما هى استفهام عن هيئة الاحياء ، والاحياء متقرر ، ولكن لما وجدنا بعض المنكرين لوجود شىء قد يعـــبرون عن انكاره بالاستفهام عن حالة لذلك الشىء يعلم أنها لا تصح ، فيلزم من ذلك أن الشىء فى نفسه لا يصح ، مثال ذلك أن يقول مدح : أنا أرفع هذا الجبل ، فيقول المكذب له : أرنى كيف ترفعه .

فهذه طريقة مجاز فى العبارة ، ومعناها تسليم جدلى ، كأنه يقول:

---

(٣٤٥) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ج٣/٢٩١ .

(فرض أنك ترفعه ، فأرنى كيف ترفعه) • فلما كانت عبارة الخليل عليه السلام بهذا الاشتراك المجازى ، خلص الله له ذلك وحمله على أن بين له الحقيقة فقال له : « أولم تؤمن قال بلى » فحكى الامر وتخلص من كل شك ، ثم علل عليه السلام سؤاله بالطمأنينة •

وقد أنكر القرطبى هذا القول من ابن عطية حيث قال فى تفسيره: هذا ما ذكره ابن عطية وهو بالغ ، ولا يجوز على الانبياء صلوات الله عليهم مثل هذا الشك فانه كفر ، والانبياء متفقون على الايمان بالبعث، وقد أخبر الله تعالى أن أنبياءه وأولياءه ليس للشيطان عليهم سبيل فقال عز شأنه (ان عبادى ليس لك عليهم سلطان)[٣٤٦] وقال اللعين : « الا عبادك منهم المخلصين » ، واذا لم يكن له عليهم سلطنة فكيف يشككهم ، وانما سأل أن يشاهد كيفية جمع أجزاء الموتى بعد تفريقها وايصال الاعصاب والجلود بعد تمزيقها ، فأراد أن يترقى من علـم اليقين الى عين اليقين ، فقوله : (أرنى كيف) طلب مشاهدة الكيفية •

وقال بعض علماء المعانى : انما أراد ابراهيم عليه السلام من ربه أن يريه كيف يحيى القلوب • وهذا فاسد مردود بما تعقبه من البيان ، وليست الالف فى قوله (أولم تؤمن) ألف استفهام وانما هى ألف ايجاب وتقرير كما قال جرير :

ألستم خـير من ركب المطايا

والواو واو الحال و (تؤمن) معناه ايمانا مطلقا دخل فيه فصل أحياء الموتى[٣٤٧] •

٩ ــ فى قصة موسى عليه السلام :

قال الله جل ثناؤه فى قصة موسى عليه السلام (فاذا هى ثعبان

---

(٣٤٦) الحجر/٤٢ •

(٣٤٧) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ٣/٢٩٢ •

مبين)[٤٣٨] وهى أكبر الحيات مع قوله (تهتز كأنها جان)[٣٤٩] والجان أصغر الحيات ، وانما أراد فى خفتها وحركتها كأنها جان وهذا من جيد التشبيه •

ويحتمل أن يكون أراد فى قبح صورتها والهلع منها عنـــد رؤيتها كأنها جان[٣٥٠] •

وأما قوله تعالى رد (فأوجس فى نفسه خيفة موسى)[٣٥١] مع اخبار الله تعالى بيقينه وسكون قلبـــه ، فان تلك الخيفة تسرية غـــير مكتسبة ، وليست من الشك فى شيء •

ويمكن أن يكون أراد فأوجس فى نفسه فى غير الوقت الذى قيل له أقبل ولا تخف بل ذلك هو الواجب • ويحتمل أن يكون انما خاف افتتان قومه ، وأن يظنوا أن ما أتى به سحر فقال له : لا تخف انك أنت الأعلى ، أى انك تكشف عن صدقك[٣٥٢] •

وقال بعض أهل الحقائق : انما كان السبب أن موسى عليه السلام لما التقى بالسحرة وقال لهم : (ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب)[٣٥٣] التفت فاذا جبريل على يمينه فقال له : يا موسى ترفق بأولياء الله • فقال موسى : يا جبريل هؤلاء سحرة جاءوا بسحر عظيم ليبطلوا المعجزة ، وينصروا دين فرعون ، ويردوا دين الله ، تقول : ترفق بأولياء الله • فقال جبريل : هم من الساعة الى صلاة العصـــر

---

(٣٤٨) الاعراف/١٠٧ والشعراء/٣٢ •

(٣٤٩) النمل/١٠ والقصص/٣١ •

(٣٥٠) نكت الانتصار لنقل القرآن للباقلانى ص١٦١ •

(٣٥١) طه/٦٧ •

(٣٥٢) نكت الانتصار للباقلانى ص١٦٢ •

(٣٥٣) طه/٦١ •

عندك ، وبعد صلاة العصر فى الجنة . فلما قال له ذلك ، أوجس فى نفس موسى ، وخطر أن ما يدريني ما يعلم الله فى فعلى أكون الآن فى حاله ، وعلم الله فى على خلافها كما كان هؤلاء ، فلما علم الله ما فى قلبه أوحى الله اليه (لا تخف انك أنت الأعلى) أى الغالب لهم فى الدنيا ، وفى الدرجات العلا فى الجنة ، للنبوة والاصطفاء الذى أتاك الله به[٣٥٤] .

١٠ ــ وأما قوله تعالى : (واذ آتينا موسى الكتاب والفرقان)[٣٥٥] مع اخباره بأنه أتى محمدا ﷺ الفرقان . فانه جائز أن يكون آتاهما جميعا الفرقان[٣٥٦] .

وقال الفراء وقطرب : المعنى آتينا موسى التوراة ، ومحمد عليه السلام الفرقان .

قال النحـــاس : هذا خطـــأ فى الاعراب والمعنى ، **أما الاعراب** فان المعطوف على الشيء مثله ، وعلى هذا القول يكون المعطوف على الشيء خلافه . **وأما المعنـــى** فقد قال الله تعالى (ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان)[٣٥٧] قال أبو اسحاق الزجاج : يكون الفـــرقان هو الكتاب ، أعيد ذكره باسمين تأكيدا ، وحكى عن الفراء ، ومنه قول الشاعر :

وقدمت[٣٥٨] الاديم لراهشيه   وألفى قولهـــا كذبا ومينـــا

---

(٣٥٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ١١/٢٢٢ .

(٣٥٥) البقرة/٥٣ .

(٣٥٦) نكت الانتصار للباقلانى ص١٥٨ .

(٣٥٧) الانبياء/٤٨ .

(٣٥٨) الرواية المشهورة فى البيت : « قددت الاديم » وهو لعـــدى بن زيد . والقد : القطع ، والأديم : الجلد والرهشان : عرقان فى باطن الذراع .

وقال الحطيئة :

ألا حبذا هند وأرض بهـــا هند وهند أتى من دونها النأى والبعد

فنسق البعد على النأى ، والمين على الكذب ، لاختلاف اللفظين تأكيدا، ومنه قول عنترة :

حييت من طلل تقـــادم عهـــده أقوى وأقفـــر بعد أم الهيثـــم

قال النحاس : هذا فى الشعر •

وأحسن ما قيل فى هذا قول مجاهد : فرقا بين الحق والباطل ، أى الذى علمه اياه •

وقال بعض العلماء : الفرقان انفراق البحر له حتى صار فرقا فعبرا •

وقيل : الفرقان الفرج من الكرب ، لأنهـم كانوا مستعبدين مع القبط ، ومنه قوله تعالى (أن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا)[٣٥٩] أى فرجا ومخرجا •

وقيل : الواو صلة ، والمعنى آتينا موسى الكتاب والفرقان ، والواو قد تزاد فى الثبوت ، كقولهم : فلان حسن وطويل ، وأنشد :

الى الملك القـــرم وابن الهمام وليث الكتيبـــة فى المزدحـــم

أراد الى الملك القرم ابن الهمام ليث الكتيبة ، ودليل هذا التأويل قوله عز وجل : (ثم آتينا موسى الكتاب تماما على الذى أحسن وتفصيلا لكل شىء)[٣٦٠] أى بين الحرام والاحلال والكفر والايمان والوعد والوعيد، وغير ذلك •

وقيل : الفرقان : الفرق بينهم وبين قوم فرعون ، أنجى هؤلاء

---

(٣٥٩) الانفال/٩ •

(٣٦٠) الانعام/١٥٤ •

وأغرق أولئك ، ونظيره « يوم الفرقان »(٣٦١) فقيل : يعنى به يوم بدر، نصر الله فيه محمدا ﷺ وأصحابه وأهلك أبا جهل وأصحابه(٣٦٢) .

١١ — وأما قوله تعالى (ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير)(٣٦٣) مع اخباره بأنه أعلمه ما كان وما يكون : فان تأويل ذلك أن لا أعلم وقت موتى فأستكثر من الطاعات وهو وان علم بعض الغيوب بالوحى فليس يعلمها كلها .

ويحتمل أن يكون أراد أن أهل مكة لما قالوا للنبى ﷺ ألا يخبرك ربك بالبيع الرضيعى فنشتريه فنتربح فيه ، ويخبرك بالارض التى تريد أن تجدب فترحل عنا الى الخصيف ، فأنزل الله تعالى الآية ، أى لا أعلم هذا ولا يجب على الله تعالى اعلامى به(٣٦٤) .

وقيل : المعنى : لو كنت أعلم الغيب لأجبت عن كل ما أسأل عنه.
وقيل : لو كنت أعلم متى يكون لى النصر فى الحرب لقاتلت فلم أغلب(٣٦٥) .

١٢ — وأما قوله تعالى : (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة)(٣٦٦) مع قوله تعالى : (فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا)(٣٦٧) فانه لم يرد بالآية الثانية نفى الوزن والموازين ، وانما أراد لا نقيم لهم جاها ولا نخلطهم بمن له قدر كأنه قال : فلا قدر لهم عندنا يومئذ لأن مدار الاعتياد والاعتناء الاعمال وقد حبطت بالمرة ، وحيث كان هذا الازدراء

---

(٣٦١) الانفال/٤١ .

(٣٦٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ١/٣٩٩ والكشاف للزمخشرى جـ١/٢٨ .

(٣٦٣) الاعراف/١٨٨ .

(٣٦٤) نكت الانتصار لنقل القرآن ص ١٦٠ والقرطبى جـ٧/٣٣٦ .

(٣٦٥) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ٧/٣٣ .

(٣٦٦) الانبياء/٤٧ . (٣٦٧) الكهف/١٠٥ .

والاحتقار من عواقب حبوط الاعمال عطف عليه بطريق التقريع • أو يكون أراد لهم نقيم لهم وزنا مستقيما ، لأن موازينهم شائلة لا شيء يردها من الطاعات •

وقيل : انهم لا ثواب لهم ، وأعمالهم مقابلة بالعذاب ، فلا حسنة لهم توزن فى موازين القيامة ومن لا حسنة له فهو فى النار • روى عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « انه ليأتى الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة اقرءوا ان شئتم : (فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا) »[٣٦٨] ، [٣٦٩] •

كتمان المشركين حالهم وافشاؤه :

١٣ــ وأما قوله تعالى (ثم لم تكن فتنتهم الا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين)[٣٧٠] وقال (ولا يكتمون الله حديثا)[٣٧١] •

قال ابن عباس رضى الله عنهما : قوله تعالى (ثم لم تكن فتنتهم) فانهم لما رأوا العذاب يوم القيامة ، وأن الله لا يغفر لأهل الاسلام ويغفر الذنوب ولا يغفر شركا ، ولا يتعاظمه ذنب أن يغفره ، جحده المشركون رجاء أن يغفر لهم ، فقالوا : والله ربنا ما كنا مشركين فختم الله على أفواههم ، وتكلمت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ، فعند ذلك يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الارض ولا يكتمون الله حديثا[٣٧٢] •

وحاصل جواب ابن عباس رضى الله عنهما أنهم يكتمون بألسنتهم فتنطق أيديهم وأرجلهم وأخرج ابن جرير عن الضحاك بن حزام : ان

---

(٣٦٨) أخرجه البخارى مرفوعا •

(٣٦٩) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ١١/٦٦ •

(٣٧٠) الانعام/٢٣ • (٣٧١) النساء/٤٢ •

(٣٧٢) معترك الاقران فى اعجاز القرآن جـ١/٩٥ •

نافع ابن الازرق أتى ابن عباس فقال : قول الله (ولا يكتمون الله حديثا) وقوله (والله ربنا ما كنا مشركين) فقال : انى أحسبك قمت من عند أصحابك ، قلت لهم : أتى ابن عباس ألقى عليه متشابه القرآن، فأخبرهم أن الله اذا جمع الناس يوم القيامة قال المشركون : ان الله لا يقبل الا ممن وحده ، ويسألهم فيقولون : والله ربنا ما كنا مشركين. قال : فيختم الله على أفواههم ويستنطق جوارحهم[٣٧٣] .

ويؤيده ما أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه فى أثناء الحديث ، وفيه : ثم يلقى الثالث ، فيقول : يارب ، آمنت بك وبكتابك وبرسولك ، ويثنى ما استطاع ، فيقول : الآن نبعث عليك شاهدا ، فيقول فى نفسه : من الذى يشهد على : فيختم على فيه وتنطق جوارحه .

١٤ — وأما قوله تعالى : (واذا أنعمنا على الانسان أعرض ونأى بجانبه واذا مسه الشر كان يؤوسا)[٣٧٤] . مع قوله تعالى (واذا مسه الشر فذو دعاء عريض)[٣٧٥] ومن لوازم الاياس نفى مطلق الدعاء وأثبته فى سورة فصلت .

وقد رام بعض المتأخرين الجمع بينهما فى تأليف بديع ، مقتضاه أن الدعاء فى أول الامر والاياس فى ثانى الحال .

١٥ — وأما قوله تعالى (لا بيع فيه ولا خلة)[٣٧٦] فلا تناقض بينه وبين قوله (الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو)[٣٧٧] لأنه عنى عز وجل

---

(٣٧٣) معترك الاقران فى اعجاز القرآن جا/٩٦ .

(٣٧٤) الاسراء/٨٣ .

(٣٧٥) فصلت/٥١ . وقد استعير العرض لكثرة الدعاء ودوامه وهو من صفة الاجرام ، ويستعار له الطول أيضا كما استعير الغلظ لشدة العذاب (ولنذيقهم عذاب غليظ) فصلت/٥٠ .

(٣٧٦) البقرة/٢٥٤ . (٣٧٧) الزخرف/٦٧ .

لا خلة فيه تنفع ، وان كانت هناك خلة تنفع • أو يكون أراد لا خلة فيه مستأنفة •

ويحتمل أن يكون أراد لا خلة بين أهل النار ، فكأنه قال : الاخلاء فى الدنيا يومئذ أعداء[٣٧٨] • أو أن الله تعالى أخبر ألا خلة فى الآخرة ولا شفاعة الا باذن الله • وحقيقتها رحمة منه تعالى شرف بها الذى أذن له فى أن يشفع[٣٧٩] •

١٦ ــ وقولهم أين قوله تعالى (جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس والشهر الحرام والهدى والقلائد)[٣٨٠] من قوله (ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الارض وأن الله بكل شىء عليم)[٣٨١] وتأويل هذا أن أهل الجاهلية كانوا يتفاودون ويسفكون الدماء بغير حقها ، ويأخذون الاموال بغير حلها ، ويخيفون السبل ، ويطلب الرجل منهم الثأر فيقتل غير قاتله ، ويصيب غير الجانى عليه ولا يبالى من كان بعد أن يراه كفأ لوليه ويسميه الثأر المنميم ، وربما قتل أحدهم حميمه تجميمه • فجعل الله الكعبة البيت الحرام وما حولها من الحرم ، والشهر الحرام ، والهدى والقلائد ، قواما للناس ، أى أمنا لهم ، فكان الرجل اذا خاف على نفسه لجأ الى الحرم فأمن يقول الله عز وجل : (أولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم)[٣٨٢] واذا دخل الشهر الحرام تقسمتهم الرحل وتوزعتهم النجع ، وانبسطوا فى متاجرهم ، وأمنوا على أموالهم وأنفسهم •

واذا أهدى الرجل منهم هديا أو قلد بعيره من لحاء شجر الحرم، أمن كيف تصرف وحيث سلك •

---

(٣٧٨) نكت الانتصار لنقل القرآن للباقلانى ص١٥٢ •

(٣٧٩) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ج٣/٢٦٦ •

(٣٨٠) المائدة/٩٧ •　　　(٣٨١) المائدة/٩٧ •

(٣٨٢) العنكبوت/٦٧ •

ولو ترك الناس على جاهليتهم وتغاورهم فى كل موضـع وكل شـهر ، لفسدت الارض ، وفنى النـاس ، وتقطعت السبل ، وبطلت المتاجر ، ففعل الله ذلك لعلمه بما فيه من صلاح شئونهم وليعلموا أنه كما علم ما فيه من الخير لهم أنه يعلم أيضـا ما فى السموات وما فى الارض من مصالح العباد ، ومرافقهم ، وأنه بكل شيء عليم(٣٨٣) .

١٧ ـ قوله تعالى (ادخلوا آل فرعون أشد العذاب)(٣٨٤) مع اخباره عن موتهم فى الدنيا ومع قوله : (ان المنافقين فى الدرك الأسفل من النار)(٣٨٥) فانه يحتمل أن يكونوا يحيون فى قبورهم ويعذبون عذابا أخف من عذابهم فى الآخرة ، فذلك قوله : (ادخلوا آل فرعون أشد العذاب) هو الذى توعدوا به ، كقول القائل : أدخله أضيق مجلس ، وذلك المجلس هو الذى أعد له(٣٨٦) .

وفى الحديث عن ابن مسعود : أن أرواح آل فرعون ومن كان مثلهم من الكفار تعرض على النار الغـداة والعشى فيقـال : هذه داركم ـ وعنه أيضا : ان أرواحهم فى أجواف طير سود تغدو على جهنم وتروح كل يوم مرتين فذلك مرتين .

وفى حديث صخر بن جويرة عن نافع عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « ان الكافر اذا مات عرض على النار بالغداة والعشى » ثم تلا (النار يعرضون عليها غدوا وعشيا) وان المؤمن اذا مات عرض روحه على الجنة بالغداة والعشى »(٣٨٧) .

وأخرج البخارى ومسلم عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « ان أحدكم اذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشى ان كان من أهل

---

(٣٨٣) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة تحقيق السيد احمد صقر ص٥٢ .

(٣٨٤) غافر/٤٦ . (٣٨٥) النساء/١٤٥ .

(٣٨٦) نكت الانتصار لنقل القرآن للباقلانى ص١٥٩ .

(٣٨٧) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ج ١٥/٣١٩ .

الجنة فمن أهل الجنة ، وان كان من أهل النار فمن أهل النار فيقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله اليه يوم القيامة »[٣٨٨] .

ويحتمل أن يكون المنافقون وآل فرعون فى الدرك الاسفل من النار، وهو طبقات وآل فرعون فى أشوه ألما وأعظمه نكالا[٣٨٩] وهذه الآية أصل كبير فى استدلال : أهل السنة على عذاب البرزخ فى القبور ، وهى قوله تعالى : (النار يعرضون عليها غدوا وعشيا) .

ولكن هنا سؤال ، وهو أنه لاشـــك أن هذه الآية مكيـــة ، وقد استدلوا بها على عذاب القبر فى البرزخ ، وقد روى عن عائشة رضى الله عنها قالت : سألتها امرأة يهودية فأعطتها فقالت لها وقاك الله من عذاب القبر ، فأنكرت عائشة رضى الله عنها ذلك فلما رأت النبى ﷺ قالت له : فقال ﷺ : فقالت عائشة رضى الله عنها ثم قال لنا رسول الله ﷺ بعد ذلك « وانه أوحى الى أنكم تفتنون فى قبوركم » وفى لفظ أنه قال « القبر كقطع الليل المظلم أيها الناس لو تعلمون ما أعلم بكيتم كثيرا وضحكتم قليلا ، أيها الناس استعيذوا بالله من عذاب القبر فان عذاب القبر حق »[٣٩٠] .

---

(٣٨٨) أخرجه البخارى فى الجنائز ، باب الميت يعرض عليه مقعده بالغداة والعشى جـ٣/١٩٣ وفى بدء الخلق ، باب ما جاء فى صفة العرض ، وفى الرقاق ، باب سكرات الموت .

ومسلم فى الجنة ، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه رقم ٢٨٦٦ ، والموطأ جـ١/٢٣٩ وفى الجنائز باب جامع الجنائز ، والترمذى فى الجنائز باب ما جاء فى عذاب القبر رقم ١٠٧٢ ، والنسائى فى الجنائز باب وضع الجريدة على القبر .

(٣٨٩) تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ٤/١ ٨ .

(٣٩٠) أخرجه مسلم بلفظ « دخل على رسول الله ﷺ وعندى امرأة من يهود وهى تقول : هل شعرت أنكم تفتنون فى القبر ؟ قالت : فارتاع =

والجواب أن الآية دلت على عرض الارواح على النـار غدوا وعشيا فى البرزخ وليس فيها دلالة على اتصال تألمها بأجسادها فى القبور اذ قد يكون ذلك مختصا بالروح ، فأما حصول ذلك للجسد فى البرزخ وتألمه بسببه فلم يدل عليه الا السنة فى الاحاديث المرضية الآتى ذكرها.

وقد يقال : ان هذه الآية انما دلت على عذاب الكفار فى البرزخ ولا يلزم من ذلك أن يعذب المؤمن فى قبره بذنب .

ومما يدل على ذلك ما رواه الامام أحمد بسنده عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ دخل عليها وعندها امرأة من اليهود وهى تقول : أشعرت أنكم تفتنون فى قبوركم . فارتاع رسول الله ﷺ وقال : « انما يفتن اليهود » قالت عائشة رضى الله عنها فلبثنا ليالى ثم قال رسول الله ﷺ : « ألا انكم تفتنون فى القبور » وقالت عائشة رضى الله عنها فكان رسول الله ﷺ بعد يستعيذ من عذاب القبر[٣٩١] .

وقد يقال : ان هذه الآية دلت على عذاب الارواح فى البرزخ ، ولا يلزم من ذلك أن يتصل فى الاجساد فى قبورها ، فلما أوحى الى النبى ﷺ فى ذلك بخصوصه استعاذ منه والله سبحانه وتعالى أعلم[٣٩٢] .

وقد روى البخارى اسناده عن عائشة أن يهودية دخلت عليها فقالت نعوذ بالله من عذاب القبر ، فسألت عائشة رضى الله عنها رسول الله ﷺ

=

لذلك رسول الله ﷺ وقال انما تفتن يهود ، قالت عائشة : فلبثت ليالى ثم قال رسول الله ﷺ : هل شعرت أنه أوحى الى أنكم تفتنون فى القبر ؟ قالت: فسمعته يتعوذ من عذاب القبر » رقم ٥٨٤ فى المساجد باب التعوذ من عذاب القبر .

(٣٩١) مسلم فى المساجد باب استحباب التعوذ من عذاب القبر رقم ٥٨٤ والنسائى فى الجنائز باب التعوذ من عذاب القبر جـ٤/١٠٤ — ١٠٥ .

(٣٩٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ١/٨١ .

عن عذاب القبر ، فقال ﷺ : « نعم عذاب القبر حق » قالت عائشة رضى الله عنها : فما رأيت رسول الله ﷺ بعد صلى صلاة الا تعوذ من عذاب القبر »[٣٩٣] فهذا يدل على أنه بادر ﷺ الى تصديق اليهودية فى الخبر وقرر عليه ، وفى الاخبار المتقدمة أنه أنكر ذلك حتى جاءه الوحى، فلعلهما قضيتان والله سبحانه أعلم .

١٨ ــ قوله تعالى (فلنسألن الذين أرسل اليهم ولنسألن المرسلين)[٣٩٤] مع قوله تعالى : (ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون)[٣٩٥] فانه أراد بالآية الثانية أنهم يسألون سؤال استعتاب كما قال (ولا هم يستعتبون)[٣٩٦] (فما هم من المعتبين)[٣٩٧] وانما يسألون سؤال تقريع وتوبيخ لقوله تعالى (فوربك لنسألنهم أجمعين)[٣٩٨] .

وقال مجاهد : لا تسأل الملائكة غدا عن المجرمين ، فانهم يعرفونهم بسيماهم ، فانهم يحشرون سود الوجوه زرق العيون .

وقال قتادة : لا يسأل المجرمون عن ذنوبهم لظهورها وكثرتها ، بل يدخلون النار بلا حساب .

وقيل : يسأل مجرموا هذه الامة عن ذنوب الامم الخالية الذين عذبوا فى الدنيا .

وقيل: أهلك من أهلك من القرون عن علم منه بذنوبهم فلم يحتج الى مسألتهم عن ذنوبهم[٣٩٩] .

---

(٣٩٣) البخارى فى الجنائز ، باب عذاب القبر جـ٣/١٨٦ ــ ١٨٧ والنسائى جـ٤/١٠٤ ــ ١٠٥ فى الجنائز باب التعوذ من عذاب القبر .

(٣٩٤) الاعراف/٦ .

(٣٩٥) القصص/٧٨ .

(٣٩٦) الجاثية/٣٥ .

(٣٩٧) فصلت/٢٤ .

(٣٩٨) الحجر/٩٢ .

(٣٩٩) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ١٣/٣١٦ .

وأراد بقوله جل ثناؤه (فلنسألن الذين أرسل اليهم ولنسألن المرسلين) سؤال تقرير الحجة على قومهم ، أو تخصيصا للرسل على الشهادة على قومهم ويكون السؤال تعريفا بالعجز ، كقولك : هل تعلم من الغيب شيئا ، ويكون السؤال توبيخا وتفنيدا ، كقول الشاعر :

ألم أك جـاركم فتركتمونى

يريد التوبيخ لهم لتضيعهم جارهم[400] .

والآية دليل على أن الكفار يحاسبون ، وفى التنزيل (ثم ان علينا حسابهم)[401] وفى سورة القصص (ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون) يعنى اذا استقروا فى العذاب والآخرة مواطن : موطن يسألون فيـه للحساب . وموطن لا يسألون فيه . وسؤالهم سؤال تقرير وتوبيخ وافضاح ، وسؤال الرسل سؤال استشهاد بهم وافصاح أى عن جواب القوم لهم ، وهو معنى قوله تعالى (ليسأل الصادقين عن صدقهم)[402] أى ليسأل الافواه الصادقة عن القلوب المخلصة .

وأما قوله تعالى : (فى يوم كان مقداره ألف سنة)[403] مع قوله (كان مقداره خمسين ألف سنة)[404] فان آية (سأل سائل) اشارة الى يوم القيامة بخلاف الآية الاولى ، والمعنى : أن الله تعالى جعله فى صعوبته على الكفار كخمسين ألف سنة ، قاله ابن عباس ، والعـرب تصف أيام المكروه بالطول وأيام السرور بالقصر ، قال الشاعر :

ويوم كظل الرمح قصـر طوله   دم الزق عنا واصطفاق المزاهر

وقيل : ان يوم القيامة فيه أيام ، فمنه ما مقداره ألف سنة ، ومنه ما مقداره خمسون ألف سنة .

---

(٤٠٠) نكت الانتصار لنقل القرآن للباقلانى ص ١٥٩ .

(٤٠١) الغاشية/٢٦ .   (٤٠٢) الاحزاب/٨ .

(٤٠٣) السجدة/٥ .   (٤٠٤) المعارج/٤ .

وقيل : أوقات القيامة مختلفة ، فيعذب الكافر بجنس من العذاب ألف سنة ، ثم ينتقل الى جنس آخر مدته خمسون ألف سنة .

وقيل : مواقف القيامة خمسون موقفا ، كل موقف ألف سنة ، فمن « يعرج اليه فى يوم كان مقداره ألف سنة » أى مقدار وقت ، أو موقف من يوم القيامة .

وقيل : ان اليوم فى اللغة بمعنى الوقت ، فالمعنى : تعرج الملائكة والروح اليه فى وقت كان مقداره ألف سنة ، وفى وقت آخر كان مقداره خمسين ألف سنة .

وعن وهب بن منبه : « فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » قال : ما بين أسفل الارض الى العرش .

وروى عن مجاهد فى قوله « تعرج الملائكة والروح اليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » أراد من الارض الى سدرة المنتهى التى فيها جبريل ، يقول تعالى : يسير جبريل والملائكة الذين معه من أهل مقامه مسيرة خمسين ألف سنة فى يوم واحد من الدنيا[٤٠٥] .

١٠ — وأما قوله تعالى « ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام ، والبحر يمده من بعده سبعة أبحر)[٤٠٦] الآية مع قوله تعالى : (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم الا قليلا)[٤٠٧] .

وضمير «يسألون» لليهود فقد أخرج الشيخان عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : بينما أنا مع رسول الله ﷺ وهو يتوكأ على عسيب[٤٠٨] مر بنفر من اليهود ، فقال بعضهم : سلوه عن الروح ؟ وقال بعضهم :

---

(٤٠٥) فتح القدير جـ٤/٢٤٨ — ٢٤٩ .

(٤٠٦) لقمان/٢٧ .

(٤٠٧) الاسراء/٨٥ .

(٤٠٨) العسيب : مسعف النخل ، وأهل العراق يسمونه : الجريد .

لا تسألوه لا يسمعكم ما تكرهون ، فقاموا اليه فقالوا : يا أبا القاسم، حدثنا عن الروح ، فقام ساعة ينظر ، فعرفت أنه يوحى اليه ، فتأخرت حتى صعد الوحى ، ثم قال : « ويسألونك عن الروح ؟ قل الروح من أمر ربى[٤٠٩] ، وما أوتيتم من العلم الا قليلا » فقال بعضهم لبعض : قد قلنا لكم : لا تسألوه[٤١٠] .

وأخرج الترمذى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قالت قريش لليهود أعطونا شيئا فسأل عنه هذا الرجل : فقالوا : سلوه عن الروح ، فسألوه عن الروح ؟ فأنزل الله تعالى : (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم الا قليلا) قالوا : أوتينا علما كثيرا ، أوتينا التوراة ومن أوتى التوراة فقد أوتى خيرا كثيرا ، فأنزل الله عز وجل (قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا)[٤١١] ، [٤١٢] .

---

(٤٠٩) قال ابن القيم : ليس المراد هنا بالامر الطلب ، اتفاقا ، وانما المراد به المأمور ، والامر يطلق على المأمور كالخلق على المخلوق ومنه (ولما جاء أمر ربك) وقال ابن بطال : معرفة حقيق الروح مما استأثر الله بعلمه بدليل هذا الخبر ، والحكمة فى ابهامه اختبار الخلق ليعرفهم عجزهم عن علم ما لا يدركونه حتى يضطرهم الى رد العلم اليه .

(٤١٠) البخارى فى العلم ، باب قوله (وما أوتيتم من العلم الا قليلا) جـ١٩٨/١ وفى سورة بنى اسرائيل باب ويسألونك عن الروح وفى الاعتصام باب ما يكره من كثرة السؤال ، وفى التوحيد باب (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين) .

ومسلم فى صفات المنافقين باب سؤال اليهود النبى ﷺ عن الروح رقم ٢٧٩٤ .

والترمذى فى التفسير باب ومن سورة بنى اسرائيل رقم ٣١٤٠ وأحمد فى المسند ٣٦٨٨ وابن كثير فى تفسيره جـ ٢٢٧/٥ .

(٤١١) الكهف/١٠٩ .

وأخرج ابن اسحاق وابن جرير عن عطاء بن يسار قال : نزلت هذه الآية بحكمة فلما هاجر ﷺ الى المدينة أتاه أخبار اليهود ، فقالوا: يا محمد ألم يبلغنا عنك أنك تقول : (وما أوتيتم من العلم الا قليلا) أفعنيتنا أم قومك ؟ قال : كلا عنيت . قالوا فانك تتلو انا أوتينا التوراة وفيها تبيان كل شيء ، فقال رسول الله ﷺ هي في علم الله تعالى قليل وقد آتاكم الله تعالى ما ان عملتم به انتفعتم فأنزل الله تعالى (ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام — الى قوله سبحانه — ان الله سميع بصـــير)(٤١٣) وكأنه ﷺ أشـــار الى أن المراد في الآية (تبيانا لكل شيء)(٤١٤) من الامور الدينية ، ولا شك أنها أقل قليل بالنسبة الى معلومات الله تعالى التي لا نهاية لها ، وبهذا يرد على القائل بالعموم الحقيقي(٤١٥) .

ولا يخفى أن هذا لا يلزم منه التناقض ، لأن الكثرة والقلة من الامور الاضافية فالشيء يكون قليلا بالنسبة الى ما فوقه وكثيرا بالنسبة الى ما تحته ، فما في التوراة قليل بالنسبة الى ما في علم الله تعالى شأنه كثير بالنسبة الى أمر آخر .

٢١ — وأما قوله تعالى : (أو لا يذكر الانسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا)(٤١٦) مع قوله سبحانه (سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون)(٤١٧) فانه يمكن

---

(٤١٢) أخرجه الترمذي في التفسير ، باب ومن سورة بني اسرائيل رقم ٣١٣٩ ، واسناده حسن . وقال الترمذي : حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه ، وأحمد في المسند رقم ٢٣٠٩ والسيوطي في الدر المنثور ج٤/١٩٩ .

(٤١٣) لقمان/٢٧ — ٢٨ . (٤١٤) لقمان/٢٧ — ٢٨ .

(٤١٥) روح المعاني للالوسي ج ١٥/١٥٣ من المجلد الخامس .

(٤١٦) مريم/٦٧ . (٤١٧) يس/٣٦ .

أن يكون أراد : ولم يك شيئا مذكورا ولا محسوسا ، وان كان قبل طينا ان كان على آدم عليه السلام أو نطفته ان كان عنى نبيه • وقول المسلمين انه خلق الانسان لا من شيء صحيح ، لأنه أراد عناصر الاشياء التى هى الماء والنار والهواء والتراب وقد يقول القائل لمن يسمع كلامه : ما قلت شيئا اذا لم يرض ما قاله[٤١٨] •

وأما قوله تعالى (ان الله لا يظلم مثقال ذرة)[٤١٩] وقوله (ان الله لا يظلم الناس شيئا)[٤٢٠] وقوله (وما ربك بظلام للعبيد)[٤٢١] وقوله (ولا تزر وازرة وزر أخرى)[٤٢٢] مع قوله تعالى (كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها)[٤٢٣] • فانها كلما احترقت جلودهم بدلهم الله جلودا غيرها ، أى أعطاهم مكان كل جلد محترق جلدا آخر غير محترق فان ذلك أبلغ فى العذاب للشخص ، لأن احساسه لعمل النار فى الجلد الذى لم يحترق أبلغ من احساسه لعملها فى الجلد المحترق •

وقيل المراد بالجلود : السرابيل التى ذكرها فى قوله (سرابيلهم من قطران)[٤٢٤] ، [٤٢٥] ولا موجب لترك المعنى الحقيقى هاهنا ، وان جاز اطلاق الجلود على السرابيل مجازا ، كما فى قول الشاعر :

كسا اللومتيماخضرة فى جلودها فويل لتيم من سرابيلها الخفر

والذى يبدو لى أن المعنى فى الآية : تبدل الجلود جلودا أخر • فان

---

(٤١٨) نكت الانتصار لنقل القرآن للباقلانى ص١٦٧ •
(٤١٩) النساء/٤٠ •
(٤٢٠) يونس/٤٤ •
(٤٢١) فصلت/٤٦ •
(٤٢٢) الانعام/١٦٤ •
(٤٢٣) النساء/٥٦ •
(٤٢٤) ابراهيم/٥٠ •
(٤٢٥) تفسير القرآن العظيم لابن كثير جا/٥١٤ •

قال بعض فى القرآن من الزنادقة : كيف جاز أن يعذب جلدا لم يعصه؟. قيل له : ليس الجلد بمعذب ولا معاقب ، وانما الالم واقع على النفوس ، لأنها هى التى تحس وتصرف فتبديل الجلود زيادة فى عذاب النفوس ، يدل عليه قوله تعالى (ليذوقوا العذاب)[٤٢٦] وقوله (كلما خبت زدناهم سعيرا)[٤٢٧] فالمقصود تعذيب الابدان وايلام الارواح ، ولو أراد الجلود لقال : ليذقن العذاب[٤٢٨] .

وقيل : المعنى أعدنا الجلد الاول جديدا ، كما تقول للصائغ : منع من هذا الخاتم خاتما غيره ، فيكسره ويصوغ لك منه خاتما ، فالخاتم المصوغ هو الاول ، الا أن الصياغة تغيرت والفضة واحدة ، وهذا كالنفس اذا صارت ترابا وصارت لا شىء ، ثم أحياها الله تعالى. وكعهدك بأخ لك صحيح ثم تراه بعد ذلك سقيما مدنفا فتقول له : كيف أنت ؟ فيقول : أنا غير الذى عهدت . فهو هو ، ولكن حاله تغيرت ، فقول القائل : أنا غير الذى عهدت ، وقوله تعالى (غيرها) مجاز ، ونظيره قوله تعالى (يوم تبدل الارض غير الارض)[٤٢٩] وهى تلك الارض بعينها الا أنها تغير آكامها وجبالها وأنهارها وأشجارها ، ويزاد فى سعتها ويسوى ذلك منها[٤٣٠] .

٢٣ ــ وأما قوله تعالى (ويخشونه ولا يخشون أحدا الا الله)[٤٣١] مع قوله جل ثناؤه : (وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه)[٤٣٢] ، فان فى الناس من قال : ان الله تعالى أخبر عن قول النبى ﷺ لزيد بن حارثة (وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه) وأن هذا ليس هو عتاب من الله تعالى لنبيه ، وذلك ممكن[٤٣٣] .

---

(٤٢٦) النساء/٥٦ .
(٤٢٧) الاسراء/٩٧.
(٤٢٨) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ج ٥/٢٥٤ .
(٤٢٩) ابراهيم/٤٨ .
(٤٣٠) القرطبى ج ٥/٢٥٤ .
(٤٣١) الاحزاب/٣٩ .
(٤٣٢) الاحزاب/٣٧ .
(٤٣٣) نكت الانتصار ص والالوسى ج٢٢/٢٥ من المجلد الثامن .

ووجه آخر وهو أنه كان أوحى اليه ﷺ أن امرأة زيد ستكون زوجة لك ، فكتم ذلك ولم يخبر به ، كى لا يقول المنافقون : انظروا كيف أمر أن يفارق زوجته ويتزوجها ، فأنزل الله تعالى (وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه) لما تجنب الاخبار بما أنزل عليه لئلا يظهر به ما يقدح فيه ، وأمر بالخشية ، وان كان متمسكا وليس فى الامر بالشىء ما يدل على أن المأمور به فاعل له .

ويحتمل أن يكون كره اظهار ذلك لئلا يقول المنافقون : زيد ابنه وقد تزوج حليلته ، فأنزل عليه (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم)[٤٣٤] أى ليس زيد ابنه بنوة تمنع من تزوج حليلته ثم قال : قل لهم ولا تخشهم فالله أحق أن تخشاه ، وذلك ليس بركوب دائم .

عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت : لو كان رسول الله ﷺ كاتما شيئا من الوحى ، لكتم هذه الآية (واذ تقول للذى أنعم الله عليه)[٤٣٥] يعنى بالاسلام (وأنعمت عليه) : بالعتق فأعتقته : (أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى فى نفسك ما الله مبديه ، وتخشى الناس ، والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم اذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا)[٤٣٦] فان رسول الله ﷺ لما تزوجها قالوا : تزوج خليلة ابنه ، فأنزل الله تعالى : (وما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين)[٤٣٧] وكان رسول الله ﷺ تبناه وهو صغير ، فلبث حتى صار رجلا ، يقال له : زيد بن محمد ، فأنزل الله تعالى : (ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ، فان لم تعلموا آباءهم فاخوانكم فى الدين ومواليكم)[٤٣٨] . فلان مولى فلان ، وفلان أخو فلان ، (هو أقسط

---

(٤٣٤) الاحزاب/٤٠ .
(٤٣٥) الاحزاب/٣٧ .
(٤٣٦) الاحزاب/٣٧ .
(٤٣٧) الاحزاب/٤٠ .
(٤٣٨) الاحزاب/٥ .

عند الله) يعنى أعدل عند الله[٤٣٩] .

وفى رواية مختصرا : لو كان رسول الله ﷺ كاتما شيئا من الوحى لكتم هذه الآية واذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه لم يزد[٤٤٠].

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : جاء زيد بن حارثة يشكوا ، فجعل رسول الله ﷺ يقول : « اتق الله ، وأمسك عليك زوجك » قال أنس : لو كان رسول الله ﷺ كاتما شيئا من الوحى لكتم هذه الآية ، قال : وكانت تفخر على أزواج رسول الله ﷺ تقول : زوجكن أهاليكن ، وزوجنى الله من فوق سبع سموات .

وفى رواية قال : « وتخفى فى نفسك ما الله مبديه » نزلت فى شأن زينب بنت جحش وزيد بن حارثه . أخرجه البخارى .

وفى رواية الترمذى قال : لما نزلت هذه الآية وتخفى فى نفسك ما الله مبديه فى شأن زينب بنت جحش جاء زيد يشكو ، فهم بطلاقها ، فاستأمر النبى ﷺ ، فقال النبى ﷺ : أمسك عليك زوجك واتق الله[٤٤١].

---

(٤٣٩) اخرجه الترمذى فى التفسير ، باب ومن سورة الاحزاب رقم ٣٢٠٥ ، وقال : حديث غريب .

(٤٤٠) الترمذى ٣٢٠٦ وقال : هذا حديث حسن صحيح ، مسلم فى الايمان ، باب معنى قول الله عز وجل (لقد رآه نزلة أخرى) رقم ١٧٧ ، والبخارى من حديث أنس جـ٣٤٧/١٣ فى التوحيد باب (وكان عرشه على الماء) والطبرى جـ١١/٢٢ .

(٤٤١) البخارى فى التوحيد ، باب (وكان عرشه على الماء) جـ٣٤٧/١٣، وفى تفسير سورة الاحزاب باب (وتخفى فى نفسك مالله مبديه) والترمذى فى التفسير ، باب ومن سورة النساء رقم ٣١١٢ و ٣٢١٠ ، والنسائى فى النكاح ، باب صلاة المرأة اذا خطبت واستخارتها ربها والحاكم فى المستدرك جـ٤١٧/٢ .

قال الحافظ فى الفتح : وقد أخرج ابن أبى حاتم هذه القصة من طريق السدى فساقها سياقا واضحا حسنا ، ولفظه : بلغنا أن هذه الآية نزلت فى زينب بنت جحش ، وكانت أمها أمية بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ ، وكان رسول الله ﷺ أراد أن يزوجها زيد بن حارثة ، فكرهت ذلك ، ثم انها رضيت بما صنع رسول الله ﷺ فزوجها اياه ، ثم أعلم الله عز وجل نبيه ﷺ بعد أنها من أزواجه فكان يستحى أن يأمر بطلاقها ، وكان لا يزال يكون من زيد وزينب ما يكون من الناس، فأمره رسول الله أن يمسك عليه زوجه وأن يتقى الله ، وكان يخشى الناس أن يعيبوا عليه ويقولوا : تزوج امرأة ابنه ، وكان قد تبنى زيدا ، وروى عبد الرزاق عن معمر عن قتادة قال : جاء زيد بن حارثة فقال : يارسول الله أن زينب اشتد على لسانها ، وأنا أريد أن أطلقها ، فقال له : اتق الله وأمسك عليك زوجك ، قال : والنبى ﷺ يحب أن يطلقها ويخشى قالة الناس .

قال الحافظ : ووردت آثار أخرى أخرجها ابن أبى حاتم والطبرى ونقلها كثير من المفسرين لا ينبغى أســأل بها ، والذى أوردته هو المعتمد (٤٤٢) .

والحاصل أن الذى كان يخفيه النبى ﷺ هو اخبار الله اياه انها ستصير زوجته ، والذى كان يحمله على اخفاء ذلك خشية قول الناس : تزوج امرأة ابنه ، وأراد الله ابطال ما كان أهل الجاهلية عليه من أحكام التبنى بأمر لا أبلغ فى الابطال منه ، وهو تزوج امرأة الذى يدعى ابنا ، ووقوع ذلك من امام المسلمين ليكون أدعى لقبولهم .

بقى لنا فيما يتعلق بالآية شىء وهو ما قيل : انه سبحانه وصف المرسلين الخالين عليهم الصلاة والسلام بأنهم لا يخشون أحدا الا الله، وقد أخبر الله عز وجل عن موسى عليه السلام بأنه قال : (اننا نخاف

---

(٤٤٢) فتح البارى ج١٣/٣٤٧ — ٣٤٨ .

أن يفرط علينا)[٤٤٣] وهل خوف ذلك الا خشية غير الله تعالى ، فما وجه الجمع ؟ .

أجيب بأن الخشية أخص من الخوف . قال الراغب : الخشية خوف يشوبه تعظيم وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه ، ونفى الخاص لا يستلزم نفى العام ، فقد يجتمع مع اثباته .

وأجاب آخر بأن المراد بالخشية المنفية الخوف الذى يحدث بعد الفكر والنظر وليس من العوارض الطبيعية البشرية ، والخوف المثبت هو الخوف العارض بحسب البشرية بادى الرأى ، وكم قد عرض مثله لموسى عليه السلام ولغيره من اخوانه وهو مما لا نقض فيه كما لا يخفى على كامل [٤٤٤] .

٢٤ ــ وأما قوله تعالى : (فان كنت فى شك مما أنزلنا اليك)[٤٤٥] مع قوله (آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه)[٤٤٦] فالخطاب للنبى ﷺ والمراد غيره ، أى لست فى شك ولكن غيرك شك .

قال أبو عمر محمد بن عبد الواحد الزاهد سمعت الا ما بين ثعلبـا والمبرد يقولان : معنى « فان كنت فى شك » أى قل يا محمد للكافر فان كنت فى شك مما أنزلنا اليك (فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك) أى ياعابد الوثن ان كنت فى شك من القرآن فاسأل من أسلم من اليهود ، يعنى عبد الله بن سلام وأمثاله لأن عبدة الاوثان كانوا يقرون لليهود أنهم أعلم منهم من أجل أنهم أصحاب كتاب ، فدعاهم الرسول ﷺ الى أن يسألوا من يقرون بأنهم أعلم منهم ، هل يبعث الله برسول من بعد موسى .

---

(٤٤٣) طه/٤٥ .

(٤٤٤) روح المعانى للالوسى جـ٢٢/٢٩ من المجلد الثامن .

(٤٤٥) يونس/٩٤ .　　(٤٤٦) البقرة/٢٨٥ .

وقال القتبى : هذا خطاب لمن كان لا يقطع بتكذيب محمد ولا بتصديقه ﷺ ، بل كان فى شك .

وقيل : الشك ضيق الصدر ، أى ان ضاق صدرك بكفر هؤلاء فاصبر واسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك يخبروك بصبر من قبلك من الانبياء على أذى قومهم . والشك فى اللغة أصله الضيق ، يقال : شك الثوب أى ضمه بخلال حتى يصير كالوعاء . وكذلك السفرة تمد علائقها حتى تنقبض ، فالشك يقبض الصدر ويضمه حتى يضيق[٤٤٧] .

وقيل معنى الآية : الغرض والتقدير ، كأنه قال له : فان وقع لك شك مثلا وخيل لك الشيطان خيالا منه تقديرا ، فاسأل الذين يقرءون الكتاب ، فانهم سيخبرونك عن نبوتك وما نزل عليك ، ويعترفون بذلك لأنهم يجدونه مكتوبا عندهم ، وقد زال فيمن أسلم منهم ما كان مقتضيا لكتم عندهم[٤٤٨] .

وقيل : ان الفاء مع حروف الشرط لا توجب الفعل ولا تثبته ، والدليل عليه ما روى عن النبى ﷺ أنه قال لما نزلت هذه الآية : « والله لا أشك »[٤٤٩] ثم استأنف الكلام . فقال عز شأنه (لقد جاء الحق من ربك فلا تكونن من الممترين) فى هذا بيان ما يقلع الشك من أصله ويذهب به بجملته ، وهو شهادة الله سبحانه بأن هذا الذى وقع الشك فيه على اختلاف التفاسير فى الشك هو الحق الذى لا يخالطه باطل ولا تشوبه شبهة ، ثم عقبه بالنهى للنبى ﷺ عن الافتراء فيما أنزل الله عليه ، بل يستمر على ما هو عليه من اليقين وانتفاء الشك .

ويمكن أن يكون هذا النهى له تعريضا لغيره كما فى مواطن من

---

(٤٤٧) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ٨/٣٨٢ .

(٤٤٨) فتح القدير للشوكانى جـ٢/٤٧٣ .

(٤٤٩) القرطبى جـ٨/٣٨٣ .

الكتاب العزيز وهكذا القول فى نهيه ﷺ التكذيب بآيات الله ، فان الظاهر فيه التعرض ولا سيما بعد تعقيبه بقوله : (فتكون من الخاسرين) ، وفى هذا التعريض من الزجر للممترين والمكذبين ما هو أبلغ وأوقع من النهى لهم أنفسهم لأنه اذا كان بحيث ينتهى عنه من لا يتصور صدوره عنه فكيف يمكن منه ذلك[٤٥٠] .

٢٥ — وأما قوله تعالى (هذا بيان للناس)[٤٥١] و (تبيانا لكل شىء)[٤٥٢] وما أشبه هذه الآى مع قوله تعالى (أخر متشابهات)[٤٥٣] فانه يحتمل أن يكون بيانا لكل شىء وبيانا للناس على قول من وقف على قوله (وما يعلم تأويله الا الله) أى أنه بيان لما كلفوه وألزموه لا بيان لما لا نهاية له من شرائع من تقدم وصفهم ، كما قال تعالى : (ومنهم من لم نقصص عليك)[٤٥٤] ولا أراد أنه بين لما لا يعلم تأويله الا الله نحو فواتح السور عند من يقف على ما ذكرناه ، والآية عندهم مخصصة ، نحو قوله تعالى : (والله على كل شىء قدير)[٤٥٥] .

وقد اختلف أهل العلم فى قوله تعالى : (والراسخون فى العلم) هل هو ابتداء كلام مقطوع بما قبله أو هو معطوف على ما قبله فتكون الواو للجمع .

فالذى عليه الاكثر أنه مقطوع عما قبله ، وأن الكلام تم عند قوله (الا الله) هذا قول ابن عمر وابن عباس وعائشة وعروة بن الزبير وعمر ابن عبد العزيز وغيرهم ، وهو مذهب الكسائى والاخفش والفراء وأبى عبيد وغيرهم .

---

(٤٥٠) فتح القدير للشوكانى ج٢/٤٧٤ .

(٤٥١) آل عمران/١٣٨ . (٤٥٢) النحل/٨٩ .

(٤٥٣) آل عمران/٧ . (٤٥٤) غافر/٧٨ .

(٤٥٥) نكت الانتصار لنقل القرآن للباقلانى ص١٧٩ .

قال أبو نهيك الاسدى : انكم تصلون هذه الآية وانها مقطوعة • وما انتهى علم الراسخين الا الى قولهم (آمنا به كل من عند ربنا) وقال مثل هذا عمر بن عبد العزيز[456] •

وحكى الطبرى نحـــوه عن يونس بن أشهب عن مالك بن أنس و (يقولون) على هذا خبر : (الراسخون) • قال الخطابى : وقد جعل الله تعالى آيات كتابه الذى أمرنا بالايمان به والتصديق بما فيه قسمين: محكما ومتشابها ، فقال عز من قائل (هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات) • الى قوله (كل من عند ربنا) فاعلم أن المتشابه من الكتاب قد استأثر الله بعلمه ، فلا يعلم آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات) • الى قوله (كل من يقولون (آمنا به) ولولا صحة الايمان منهم لم يستحقوا الثناء عليه•

ومذهب أكثر العلماء أن الوقف التام فى هذه الآية انما هو عند قوله تعالى (وما يعلم تأويله الا الله) ، وأن ما بعده استئناف كلام آخر ، وهو قوله (والراسخون فى العلم يقولون آمنا به) •

قال الباقلانى : « والذى نختاره نحن ونذهب اليه أن جميع ما فى القرآن يعرف تأويله ، لأن الله تعالى قال : (وهذا لسان عربى مبين)[457] وما أشبه هذه الآية • والواو عندنا واو نسق فى قوله : (والراسخون فى العلم)[458] فكل من قال من أهل التفسير فى شىء منه أنى لا أعلم تأويله فان غيره يعلمه •

واحتج له بعض أهل اللغة فقال : معناه والراسخون فى العـــلم يعلمونه قائلين آمنا به ، وزعم أن موضع (يقولون) نصب على الحال •

---

(٤٥٦) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ٤/١٦ •

(٤٥٧) نكت الانتصار لنقل القرآن للباقلانى ص١٧٨ •

(٤٥٨) آل عمران/٧ •

وعامة أهل اللغة ينكرونه ويستبعدونه ، لأن العرب لا تضمر الفعل والمفعول معا ، ولا تذكر حالا الا مع ظهور الفعل ، فاذا لم يظهر فعل فلا يكون حال .

ولو جاز ذلك لجاز أن يقال : « عبد الله راكبا » بمعنى أقبل عبد الله راكبا ، وانما يجوز ذلك مع ذكر الفعل كقوله : « عبد الله يتكلم يصلح بين الناس » فكان «يصلح» حالا له ، كقول الشاعر[٤٥٩] :

أرسلت فيها قطما لكالكا يقصر يمشى ويطول باركا

أى يقصر ماشيا ، فكان قول عامة العلماء مع مساعدة مذاهب النحويين له أولى من قول مجاهد وغيره .

وأيضا فانه لا يجوز أن ينفى الله سبحانه شيئا عن الخلق ويثبته لنفسه ، ثم يكون له فى ذلك شريك . ألا ترى قوله عز وجل : (قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب الا الله)[٤٦٠] وقوله (كل شىء هالك الا وجهه)[٤٦١] وقوله (لا يجليها لوقتها الا هو)[٤٦٢] فكان فكان هذا كل مما استأثر الله سبحانه بعلمه لا يشركه فيه غيره ، وكذلك قوله تبارك وتعالى (وما يعلم تأويله الا الله) ، ولو كانت الواو فى قوله

---

(٤٥٩) أبو العباس ثعلب . والقطم : الغضبان ، وفحل قطم وقطيم : صؤول . والقطم أيضا المشتهى اللحم وغيره . واللكالك ــ بضم الاولى وكسر الثانية ــ الجمل الضخم المرمى باللحم .

قال أبو على الفارسى : « يقصر اذا مشى لانخفاض بطنه وضخمه وتقاربه من الارض فاذا برك رأيته طويلا لارتفاع سنامه ، فهو بباركا أطول منه قائما » . (اللسان مادة لكك) .

(٤٦٠) النمل/٦٥ . (٤٦١) القصص/٨٨ .

(٤٦٢) الاعراف/١٨٧ .

تعالى (والراسخون) للنسق لم يكن لقوله (كل من عند ربنا فائدة)[٤٦٣].

قال القرطبى : ما حكاه الخطابى من أنه لم يقل بقول مجاهد غيره ، فقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن الراسخين معطوف على اسم الله عز وجل وأنهم داخلون فى علم المتشابه ، وأنهم مع علمهم به يقولون آمنا به ، وقاله الربيع بن محمد بن جعفر بن الزبير والقاسم ابن محمد وغيرهم ، و (يقولون) على هذا التأويل نصب على الحال من الراسخين كما قال :

الريح تبكى شجوها　　　والبرى يلمع فى الغمامة

وهذا البيت يحتمل المعنيين ، فيجوز أن يكون «والبرق» مبتدأ ، والخبر يلمع على التأويل أولا ، فيكون مقطوعا ما قبله . ويجوز أن يكن معطوفا على الريح ، و (يلمع) فى موضع الحال على التأويل الثانى أى لامعا ، ولا يخفاك أن ما قاله الخطابى فى وجه امتناع كون قوله (يقولون آمنا به) حالا من أن العرب لا تذكر حالا الا مع ظهور الفعل الى آخر كلامه لا يتم الا على فرض أنه لا فعل هنا ، وليس الامر كذلك ، فالفعل مذكور ، وهو قوله (وما يعلم تأويله) ولكنه جاء الحال من المعطوف ، وهو قوله (والراسخون) دون المعطوف عليه وهو قوله (الا الله) ذلك جائز فى اللغة العربية ، وقد جاء مثله فى الكتاب العزيز ، ومنه قوله تعالى : (للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون والذين تبؤوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون والذين

---

(٤٦٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ٤/١٦ وفتح القدير للشوكانى جـ١/٢١٥ .

جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا)[٤٦٤] وكقوله (وجاء ربك والملك صفا صفا)[٤٦٥] أى وجاءت الملائكة صفا صفا ، ولكن هاهنا مانع آخر من جعل ذلك حالا ، وهو أن تقييد عامهم بتأويله بحال كونهم قائلين آمنا به ليس بصحيح ، فان «الراسخين» فى العلم على القول بصحة العطف على الاسم الشريف يعلمونه فى كل حال من الاحوال لا فى هذه الحالة الخاصة ، فاقتضى هذا أن جعل قوله : (يقولون آمنا به) حالا غير صحيح ، فتعين المصير الى الاستئناف والجزم بأن قوله (والراسخون فى العلم) مبتدأ خبره (يقولون) .

ومن جملة ما استدل به القائلون بالعطف أن الله سبحانه وتعالى مدحهم بالرسوخ فى العلم ، فكيف مدحهم وهم لا يعلمون ذلك ؟ .

ويجاب عن هذا بأن تركهم لطلب علم ما لم يأذن الله به ، ولا جعل لخلقه الى علمه سبيلا هو من رسوخهم ، لأنهـم علموا أن ذلك مما استأثر الله بعلمه ، وأن الذين يتبعونه ثم الذين فى قلوبهم زيغ ، وناهيك بها من رسوخ وأصل الرسوخ فى لغة العرب : الثبوت فى الشىء وكل ثابت راسخ ، وأصله فى الاجرام أن ترسخ الخيل أو الشجر فى الارض ومنه قول الشاعر :

لقد رسخت فى الصدر منى مودة ... لليلى أبت آيائهـا أن تغـيرا

فهؤلاء ثبتوا فى امتثال ما جاءهم عن الله من ترك اتباع المتشابه ، وارجاع علمه الى الله سبحانه[٤٦٦] .

ومن أهل العلم من توسط بين المقامين فقال : التأويل يطلق ويراد به فى القرآن شيئان :

---

(٤٦٤) الحشر/٨ — ١٠ .   (٤٦٥) الفجر/٢٢ .

(٤٦٦) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ج٤/١٦ .

أحدهما : التأويل بمعنى حقيقة الشيء ، وما يقول أمره اليه ومنه قوله تعالى : (هذا تأويل رؤياى)[٤٦٧] وقوله (هل ينظرون الا تأويله يوم يأتي تأويله)[٤٦٨] أى حقيقة ما أخبروا به من أمر المعاد ، فان أريد بالتأويل هذا فالوقف على الجلالة ، لأن حقائق الامور وكنهها لا يعلمه الا الله عز وجل ، ويكون قوله تعالى (والراسخون فى العلم) مبتدأ ، (ويقولون آمنا به) خبره .

وأما ان أريد بالتأويل المعنى الآخر وهو التفسير والبيان والتعبير عن الشيء كقوله (نبئنا بتأويله)[٤٦٩] . أى بتفسيره ، فالوقف على (والراسخون فى العلم) يعلمون ويفهمون ما خوطبوا به بهذا الاعتبار ، وان لم يحيطوا علما بحقائق الاشياء على كنه ما هى عليه . وعلى هذا فيكون قوله (يقولون آمنا به) حالا منهم .

ورجح بعض العلماء أن الراسخين يعلمون تأويله . قال القرطبي : وهو الصحيح فان تسميتهم راسخين تقتضى بأنهم يعلمون أكثر من المحكم الذى يسقون فى علمه جميع من يفهم كلام العرب ، وفى أى شيء هو رسوخهم اذا لم يعلموا الا ما يعلم الجميع ، لكن المتشابه يتنوع ، فمنه ما لا يعلم البتة كأمر الروح والساعة ، مما استأثر الله بعلمه ، وهذا لا يتعاطى علمه أحد ، فمن قال من العلماء الحذاق بأن الراسخين لا يعلمون علم المتشابه فانما أراد هذا النوع .

وأما ما يمكن حمله على وجوه فى اللغة فيتأول ، ويعلم تأويله المستقيم ، ويزال ما فيه من تأويل غير مستقيم[٤٧٠] .

وعلى أية حال فان القرآن الكريم قد دل على أنه بكليته محكم ،

---

(٤٦٧) يوسف/١٠٠ .

(٤٦٨) الاعراف/٥٣ .

(٤٦٩) يوسف/٣٦ .

(٤٧٠) فتح القدير للشوكانى جـ١/٣١٧ .

ودل على أنه بكلتيه متشابه ، ودل على أن بعضه محكـم ، وبعضه متشابه :

أما ما دل على أنه بكليته محكم ، فهو قوله تعالى : (الر تلك آيات الكتاب الحكيم)[٤٧١] وقوله جل ثناؤه (آلر كتاب أحكمت آياته)[٤٧٢] فذكر فى هاتين الآيتين أن جميعه محكم ، والمراد من المحكم بهذا المعنى كونه كلاما حقا فصيح اللفظ صحيح المعانى وكل قول وكلام يوجد كان القرآن أفضل منه فى فصاحة اللفظ وقوة المعنى ، ولا يتمكن أحد من اتيان كلام يساوى القرآن الكريم فى هذين الوصفين ، والعرب تقـول فى البناء الوثيق والعقد الوثيق الذى لا يمكن حله : محكم ، فهذا معنى وصف جميعه بأنه محكم .

وأما ما دل على أنه بكليته متشابه ، فهو قوله (كتابا متشابها مثانى)[٤٧٣] والمعنى أنه يشبه بعضه بعضا فى الحسن ويصدق بعضه بعضا ، واليه الاشارة بقوله تعالى (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا)[٤٧٤] أى لكان بعضه واردا على نقيض الآخر ولتفاوت نسق الكلام فى الفصاحة والركاكة[٤٧٥] .

وأما ما دل على أن بعضه محكم وبعضه متشابه ، فهو هذه الآية — التى نحن فى تفسيرها والتى أشرنا اليها أول الامر — (هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله الا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر الا أولوا الألباب)[٤٧٦] فقد أشارت هذه الآية

---

(٤٧١) يونس/١ .
(٤٧٢) هود/١ .
(٤٧٣) الزمر/٢٣ .
(٤٧٤) النساء/٨٢ .
(٤٧٥) التفسير الكبير للرازى ج٧/١٨٠ .
(٤٧٦) آل عمران/٧.

الكريمة الى أن القرآن الكريم منزل من عند الله سبحانه وتعالى ، ثم قسمته الى قسمين : محكم ومتشابه ، وبينت أن المحكم يعتمد عليه الراسخون فى العلم ، وأن المتشابه يتبعه الذين فى قلوبهم زيغ(٤٧٧) .

ولما بين الله جل ثناؤه أن الزائغين يتبعون المتشابه ، بين أن لهم فيه غرضين فالأول هو قوله تعالى (ابتغاء الفتنة) ، والثانى هو قوله (ابتغاء تأويله) .

وقد طعن بعض الملاحدة فى القرآن الكريم من أجل اشتماله على المتشابهات وقال : انكم تقولون أن تكاليف الخلق مرتبطة بالقرآن الى قيام الساعة ، ثم انا نراه بحيث يتمسكوا به كل صاحب مذهب على مذهبه وربما آل الامر فى ترجيح بعضها على بعض الى ترجيحات خفية ، ووجوه ضعيفة فكيف يليق بالحكيم أن يجعل الكتاب الذى هو المرجوع اليه فى كل الدين الى قيام الساعة هكذا ، أليس أنه لو جعله ظاهرا جليا نقيا عن هذه المتشابهات كان أقرب الى حصول الغرض .

وللاجابة على هذه الشبهة ، فان العلماء قد ذكروا عدة فوائد لوجود المتشابهات فى القرآن الكريم(٤٧٨) .

(أ) أنه متى كانت المتشابهات موجودة ، كان الوصول الى الحق أصعب وأشق ، وزيادة المشقة توجب مزيد الثواب ، قال الله تعالى : (أم حسبتم أن تدخلوا الجنه ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين)(٤٧٩) .

(ب) لو كان القرآن محكما بالكلية لما كان مطابقا الا لمذهب واحد، وكان تصريحه مبطلا لكل ما سوى ذلك المذهب ، وذلك ما ينفر أرباب

---

(٤٧٧) يقال : زاغ زيغا : أى مال ميلا .

(٤٧٨) التفسير الكبير للرازى ج٧/١٨٤ — ١٨٥ من المجلد الرابع .

(٤٧٩) آل عمران/١٤٢ .

المذاهب عن قبوله ، وعن النظر فيه ، فالانتفاع به انما حصل لما كان مشتملا على المحكم وعلى المتشابه ، فحينئذ يطمع صاحب كل مذهب أن يجد فيه ما يقوى مذهبه ، ويؤثر مقالته ، فحينئذ ينظر فيه جميع أرباب المذاهب ويجتهد فى التأمل فيه كل صاحب مذهب ، فاذا بالغوا فى ذلك صارت التكلمات مفسرة للمتشابهات ، فبهذا الطريق يتخلص المبطل من باطله ويصل الى الحق .

(ج) أن القرآن اذا كان مشتملا على المحكم والمتشابه ، افتقر الناظر فيه الى الاستعانة بدليل العقل ، وحينئذ يتخلص من ظلمة التقليد ، ويصل الى ضياء الاستدلال والبينة ، أما لو كان كله محكما لم يفتقر الى التمسك بالدلالة العقلية ، فحينئذ كان يبقى فى الجهل والتقليد .

(د) لما كان القرآن مشتملا على المحكم والمتشابه ، افتقروا الى تعلم طرق التأويلات وترجيح بعضها على بعض ، وافتقر تعلم ذلك الى تحصيل علوم كثيرة من علم اللغة والنحو ، وعلم أصول الفقه ، ولو لم يكن الامر كذلك ما كان يحتاج الانسان الى تحصيل هذه العلوم الكثيرة فكان ايراد هذه المتشابهات لأجل هذه الفوائد الكثيرة .

يقول ابن قتيبة : ان القرآن نزل بألفاظ العرب ، ومذاهبها فى الايجاز والاختصار والاطالة والتوكيد ، والاشارة الى الشىء ، واغماض بعض المعانى حتى لا يظهر عليه الا اللقن(٤٨٠) واظهار بعضها ، وضرب الامثال لما خفى .

ولما كان القرآن كله ظاهرا مكشوفا حتى يستوى فى معرفته العالم والجاهل لبطل التفاضل بين الناس ، وسقطت المحنة ، وماتت الخواطر . ومع الحاجة تقع الفكرة والحيلة ، ومع الكفاية يقع العجز والبلادة .

---

(٤٨٠) اللقن : سريع الفهم . ينظر اللسان ج١٧/٢٧٥ .

وكل باب من أبواب العلم : من الفقه والحساب والفرائض والنحو، فمنه ما يجل ومنه ما يعوق ، ليرتقى المتعلم فيه رتبة بعد رتبة ، حتى يبلغ منتهاه ، ويدرك أقصاه ، ولتكون للعالم فضيلة النظر ، وحسن الاستخراج ، وليقع المثوبة من الله على حسن العناية • ولو كان كل فن من العلوم شيئا واحدا لم يكن عالم ولا متعلم ، ولا خفى ولا جلى، لأن فضائل الاشياء تعرف بأضدادها فالخير يعرف بالشر ، والنفع بالضر ، والحلو بالمر ، والقليل بالكثير ، والصغير بالكبير ، والباطن بالظاهر[481] •

(هـ) ان القرآن الكريم كتاب مشتمل على دعوة الخواص والعوام الى تدبره والعمل بما فيه ، وطبائع العوام تنبو فى أكثر الامر عن ادراك الحقائق •

فمن سمع من العوام فى أول الامر : اثبات موجود ليس بجسم ولا بمتحيز ولا مشار اليه : وهو الله عز وجل ، ظن أن هذا عدم ونفى فوقع فى التعطيل ، فكان الاصلح أن يخاطب بألفاظ دالة على بعض ما يناسب ما يتخيله ، ويكون ذلك مخلوطا بما يدل على الحق الصريح وهو أسلم لدينه وعقيدته •

فالآيات المحكمة هى التى تشتمل على المعنى الواضح الذى لا اشتباه فيه ، وهى كافية ببيان العقيدة والشريعة ، والحلال والحرام ، ومعالم الخير والهدى • بينما الآيات المتشابهة هى التى تحتمل أكثر من معنى[482] •

٢٦ ـ الهداية والاضلال :

ادعت الملاحدة أن فى القرآن تناقضا واحالة ، لأن الله تعالى ذكر

---

(٤٨١) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص٦٢ •

(٤٨٢) التفسير الكبير للرازى جـ٧/٨٦ •

الهدى والضلال ، وأضاف الهدى مرة الى نفسه ، ومرة الى أنبيائه ، ومرة أضاف الضلال الى نفسه ، ومرة أضاف الضلال الى الشياطين والى فرعون والى السامرى[٤٨٣] .

وأجيب عن ذلك بأن هذا من الملاحدة ضعف تمييز وجهل بالمعانى وغباوة عن الحق ، فأول ما نبينه من ذلك — ان شاء الله تعالى — معنى الهدى والهداية ، ثم معنى الاضلال والضلال .

فى حقيقة الهـــدى :

الهدى لغة الدلالة ويجىء لما يأتى :

— فالهدى : يأتى مصدرا ، تقول ، ان هدى الله عصمة من الضلال .

— والهدى : الرشاد ، وهو فى معنى الاهتداء . تقول : المؤمن أهل هدى والفاسق أهل ضلالة .

— والهدى : الهادى وهو من وضع المصدر موضع اسم الفاعل ، ويأتى فى الطريق الحسى المستقيم ، وفى الدين القويم ، وفى الواعى الى الحق المرشد اليه وهذا يجىء فى شأن الكتب السماوية كالقرآن والتوراة والانجيل ، وفى شأن الانبياء والصالحين ، وفى شأن الحجـة والنظر العقلى والاخلاق الفاضلة . ويقال : هداه الشىء واليه وله هديا وهداية وهدى فهو هاد ، ويجىء لما يأتى :

— فيقال هداه الطريق ونحـــوه ، واليه وله : عرفه له ، وأزال حيرته فيما يسلك تقول : هديت الحاج طريق مكة . وقد يحذف أحد المفعولين أو كلاهما للعلم به .

— ويقال : هداه الحق ونحوه ، واليه وله أرشده اليه ودل عليه بلطف ودلالة من شأنها أن توصل الى البغية ، ويكون ذلك فى الخير ،

---

(٤٨٣) نكت الانتصار لنقل القرآن للباقلانى ص٢١٦ .

وهذا مجاز عن المعنى السابق اذ هذا فى المعانى وذلك فى الحسيات ، تقول : هديته الى الرشاد فاهتدى ، وهديته الى الرشاد فما ارعوى عن غيه .

ومن هذا الهدى المنسوب الى الانبياء والكتب السماوية ، وكذا الى الوعاظ ومن جرى مجراهم .

ويقال هداه الى الايمان دله عليه وأدخله فيه ووصله اليه ، وهذا للهدى المضاف الى الله سبحانه . وأكثر ما يكون ذلك فى مقابلة الاضلال، وهذا فى غالب الامر ، وقد وردت نصوص فيها الهدى من المعنى الثانى . ويصح أن يفسر به الهدى المنسوب الى الانبياء والكتب السماوية على المجاز فانها أسباب لهذا الهدى اذا شاء الله ذلك .

واذا نفى الهدى عن الانبياء أو الكتب السماوية فالمراد هذا المعنى اذا لم تصاحبه المشيئة . تقول هدى الله المؤمنين الى الخير والايمان والواعظ لا يهدى ، والهادى هو الله ، وتقول : هدى الله كل شيء خلقه الى ما يصلحه والى ما يصدر عنه .

ويقال : هدى الله المؤمن : ثبته على هداه أو زاده هداه .

ويقال : سوء عمل فلان يهديه الى ما فيه حتفه أى يقوده اليه ، وهذا على سبيل التهكم ، فان الهداية فى أصل وضعها تكون للخير كما سبق .

ويقال : هدى له الامر : بينه له وأوضحه .

قال الرازى : الهدى عبارة عن الدلالة[٤٨٤] .

وقال صاحب الكشاف : الهدى هو الدلالة الموصلة الى البغية[٤٨٥] . واحتج بأمور ثلاثة :

---

(٤٨٤) التفسير الكبير للرازى ج٢/٢٢ .
(٤٨٥) الكشاف للزمخشرى ج١/١١٦ .

أولها : وقوع الضلالة فى مقابلة الهدى ، قال تعالى (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى)[٤٨٦] وقال (لعلى هدى أو فى ضلال مبين)[٤٨٧] .

وثانيها : يقول مهدى فى موضع المدح كمهتدى ، فلو لم يكن من شرط الهدى كون الدلالة موصلة الى البنية لم يكن الوصف بكونه مهديا مدحا لاحتمال أنه هدى فلم يهتدوا .

وثالثها : أن (اهتدى) مطاوع (هدى) يقال : هديته فاهتدى كما يقال : كسرته فانكسر ، وقطعته فانقطع ، فكما أن الانكسار والانقطاع لازمان للكسر والقطع ، وجب أن يكون الاهتداء من لوازم الهدى[٤٨٨] .

وانتقد الرازى صاحب الكشاف وقال والذى يدل على صحة القول الاول أنه لو كان كون الدلالة موصلة الى البغية معتبرا فى مسمى الهدى لامتنع حصول الهدى عند عدم الاهتداء ، لأن كون الدلالة موصلة الى الاهتداء حال عدم الاهتداء محال، لكنه غير ممتنع بدليل قوله تعالى : (وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى)[٤٨٩] أصبت الهدى مع عدم الاهتداء ، ولأنه يصح فى لغة العرب أن يقال : هديته فلم يهتد، وذلك يدل على قولنا . ثم رد استدلال صاحب الكشاف ، وأجاب عن أدلته بما يأتى :

والجواب عن الاول : أن الفرق بين الهدى وبين الاهتداء معلوم بالضرورة فمقابل الهدى هو الاضلال ومقابل الاهتداء هو الضلال ، فجعل الهدى فى مقابلة الضلال ممتنع .

وعن الثانى : أن المنتفع بالهدى سمى مهديا ، وغير منتفع به

---

(٤٨٦) البقرة/١٦ . (٤٨٧) سبأ/٢٤ .

(٤٨٨) الكشاف للزمخشرى جا/١١٦ .

(٤٨٩) فصلت/١٧ .

لا يسمى مهديا ، ولأن الوسيلة اذا لم تفض الى المقصود كانت نازلة منزلة المعدوم(٤٩٠) .

وعن الثالث : أن ائتمار مطاوع الامر قال : أمرته فائتمر ، ولم يلزم منه أن يكون من شرط كونه آمرا حصول الائتمار ، فكذا هذا لا يلزم من كونه هدى أن يكون مفضيا الى الاهتداء ، على أنه معارض بقوله : هديته فلم يهتد(٤٩١) .

تعريف الهدى اصطلاحا :

الهدى فى الاصطلاح هو ما جاء به النبىﷺ من الاخبار الصادقة والايمان الصحيح ، والعلم النافع ، والعمل الصالح .

وينقسم الى هدى دلالة وبيان وارشاد ، وهدى توفيق والهـام واعانة .

فالأول : هو الذى يقدر عليه الرسل وأتباعهم من الدعاة المخلصين، والهداة المرشدين ، ومن ذلك قوله جل ثناؤه (انما أنت منذر ولكل قوم هاد)(٤٩٢).

وقال عز شأنه للنبىﷺ (وانك لتهدى الى صراط مستقيم)(٤٩٣). وأورد على ذلك قوله تعالى فى آية أخرى (انك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء)(٤٩٤) .

وأجيب عن ذلك بأنه لا تنافى بينهما ، فان الذى أثبته وأضافه اليه الدعوة والبيان والذى نفى عنه هداية التوفيق ، وشرح الصدر ،

---

(٤٩٠) ، (٤٩١) التفسير الكبير للرازى جـ٢/٢٢ .
(٤٩٢) الرعد/٧ .
(٤٩٣) الشورى/٥٢ .
(٤٩٤) القصص/٥٦ .

وهو نور تصنيف فى القالب فيحيا به القلب ، كما قال عز شأنه (أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا)[٤٩٥] .

والثانى وهو هدى التوفيق والالهام ، ومنه قوله تعالى (ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء)[٤٩٦] وقوله جل ثناؤه (أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون)[٤٩٧] .

ويأتى — بناء على ذلك — الهدى بمعنى خلق الايمان فى القلب ، قال الله جل ثناؤه : (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء ، كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون)[٤٩٨] أى فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ، أى يوسعه له ويوفقه ويزين عنده ثوابه ، ويقال : شرح شق ، وأصله التوسعة وشرح الله صدره وسعه بالبيان لذلك ، وشرحت الامر بينته وأوضحته .

(ومن يرد أن يضله) يغويه (يجعل صدره ضيقا حرجا) وهذا رد على القدرية . ونظير هذه الآية من السنة قوله ﷺ « من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين »[٤٩٩] ولا يكون ذلك الا بشرح الصدر وتنويره .

وروى أن عبد الله بن مسعود قال : يارسول الله ، وهل ينشرح الصدر ؟ فقال : (نعم يدخل القلب نور) فقال : وهل لذلك من علامة ؟

---

(٤٩٥) الانعام/١٢٢ .
(٤٩٦) البقرة/٢٧٢ .
(٤٩٧) البقرة/٥ .
(٤٩٨) الانعام/١٢٥ .
(٤٩٩) البخارى فى الجهاد ، باب قوله تعالى (فان لله خمسة وللرسول) جـ٦/١٥٢ ، وفى العلم ، باب من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين ، وفى الاعتصام باب قول النبى ﷺ « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق ومسلم فى الامارة باب فضل الرمى والحث عليه وذم من علمه ثم نسيه » .

فقال ﷺ : (التجافى عن دار الغرور والانابة الى دار الخـلود ، والاستعداد للموت قبل نزوله)(٥٠٠) .

وقد تكون الهداية الى الشيء بمعنى التقدم اليه من قولهم : هودى الابل أى مقدماتها ، ويقال أعناقها ، وتسمى العصا هادية ، فأما قول من زعم أن الهداية تكون بمعنى الزيادة ، واعتل لذلك بقوله تعـالى (والذين اهتدوا زادهم هدى)(٥٠١) فانه باطل ، لأن هذه الزيادة زيادة ارشاد . وقد قيل ان الهدى ثواب الجنة لقوله تعـالى (فلن يضل أعمالهم)(٥٠٢) شهادتهم (ويصلح بالهم) وهذا لو صح يعنى وجه التشبيه بالثواب فى نفعه نفع الهدى والهداية التى أضافها الله تعالى الى نفسه ، ينفرد بها هو تعالى ، فلا يشركه فيها أحد من خلقه .

والهداية المضافة الى غير الله تعالى انما هى تزيين وارشاد ودعاء الى الحق ، وليس لأحد منهم تسلم على القلوب ، ولا خلق شيء فيها وتكون هداية واحدة تضاف الى الله تعالى من جهة الاختراع ، وتضاف الى الخلق من جهة الاكتساب . ولا تناقض فى اضافة الهداية الى الله تعالى من جهة خلقة اياها ، واضافتها الى الانبياء تارة ، لدعائهم اليها .

وكذلك الاضلال يضاف مرة الى الله لأجل خلقه اياه ، ويضاف مرة الى ابليس لدعائه اليه ، ولو قدر ابليس أو فرعون على اضلال أحد لأضلا الخلق جميعا بل قال النبى ﷺ (خلق ابليس مزينا)(٥٠٣) وليس اليه من الضلال شيء ، ويصدق هذا قوله تعالى (ان عبـادى ليس لك عليهم سلطان)(٥٠٤) ، (٥٠٥) .

---

(٥٠٠) أخرجه ....
(٥٠١) محمد/١٧ .
(٥٠٢) محمد/٤ .
(٥٠٣) أخرجه .
(٥٠٤) الحجر/٤٢ .
(٥٠٥) نكت الانتصار لنقل القرآن ص٢١٩ — ٢٢٠ .

والهداية قد يتعدى فعلها بنفسه ، أو قد يتعدى بالى أو باللام ، فمن الاول قوله تعالى (انا هديناه السبيل اما شاكرا واما كفورا)[٥٠٦] • وقال عز شأنه : (وهديناه النجدين)[٥٠٧] أى بينا له طريق الخير وطريق الشر •

ومن الثانى قوله تعالى (ان ابراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا وما كان من المشركين شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه الى صراط مستقيم)[٥٠٨] وقوله تعالى ذكره (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم الى صراط الجحيم)[٥٠٩] •

ومن الثالث قوله تعالى (ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا)[٥١٠] • وقوله عز وجل (ونزعنا ما فى صدورهم من غل تجرى من تحتهم الأنهار وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون)[٥١١] •

وأما الفرق بين الاضلال والضلال ، فان الفعل (ضل) كضرب ، ضل كتعب ، والاولى هى الفصيحة ، وقد قرىء بهما (قل ان ضللت)[٥١٢] بفتح اللام وكسرها — (فانما أضل على نفسى) ، ومنهم من يقرأ كل شىء فى القرآن الكريم : ضللت وضللنا ، بكسر اللام •

والمصدر الضلال والضلالة ، والثلاثى اللازم : ضل الشىء : خفى وغاب والمتعدى : ضل الطريق : خفى عليه • وأضله : جعله ضالا ،

---

(٥٠٦) الانسان/٣ •
(٥٠٧) البلد/١٠ •
(٥٠٨) النحل/١٢٠ — ١٢١ •
(٥٠٩) الصافات/٢٢ — ٢٣ •
(٥١٠) الاسراء/٩ •
(٥١١) الاعراف/٤٣ •
(٥١٢) سبأ/٥٠ •

وأضله : وجده ضالا ، كما يقال : أحمدته وأنجلته ، أى وجدته محمودا ونجيلا .

وبهذين المعنيين يمكن تفسير ما ورد من اسناد اضلال الضالين الى الله تعالى فى مثل (فيضل الله من يشاء)[٥١٣] وقوله (ومن يضلل الله فما له من هاد)[٥١٤] فاضلال الله على معنى الجعل هو : وضع جبلة الانسان على أنه اذا راعى طريقا محمودا كان أو مذموما ألفه ولزمه وتعذر صرفه وانصرافه عنه ، ويصير ذلك كالطبع الذى يأبى على الناقل، والعادة طبيعة ثانية ، وكل شىء يكون سببا فى وجود فعل تصح نسبة ذلك الفعل اليه ، فصح لذلك نسبة الضلال الناجم عن ألف الانسان لعادته السيئة الى الله الذى جعل فيه تلك الفطرة ، فصحت نسبة الاضلال الى الله على هذا الوجه .

ولهذا البيان فى الاضلال يرد فى القرآن ذلك الاضلال الى الله ، فى الكافر والفاسق ، يألفهما الضلال ، ولم يرد فى المؤمن ، بل نفى الله عن نفسه اضلال المؤمن بمثل قوله (وما كان الله ليضل قوما بعد اذ هداهم)[٥١٥] ومثل قوله (فلن يضل أعمالهم سيهديهم ويصلح بالهم)[٥١٦] .

وعلى هذا الوجه تقليب الله الأفئدة ، وحكمه على القلوب ، وزيادته مرض القلوب المريضة ، وهكذا ينتهى الامر الى أن الاضلال سببه ضلال الانسان ، فيحكم الله عليه بذلك فى الدنيا ويعدل به الى نتيجة ذلك فى الآخرة .

ولما فى معنى الضلال اللغوى من النسيان والخفاء والغيبوبة كاطلاقه على مقابل الهداية ، أمكن أن يطلق الضلال القليل والكثير

---

(٥١٣) ابراهيم/٤ .

(٥١٤) الرعد/٣٣ .

(٥١٥) التوبة/١١٥ .

(٥١٦) محمد/٤ .

والسهو والعمد والخطأ اليسير للأنبياء ، مع البـون البعيد بين هذا الضلال اللغوى اليسير والضلال البعيد والمبين من الكفار .

وعلى هذا الوجه ورد فى النبى ﷺ قول الله تعالى (ووجدك ضالا فهدى)[٥١٧] أى حائرا فى حال قومك .

ومن ذلك ما ورد فى النبى يعقوب عليه السلام ، قول أبنائه له (انك لفى ضلالك القديم)[٥١٨] أى شغفه بيوسف وشوقه اليه . وقول موسى عليه السلام (وأنا من الضالين)[٥١٩] وهو السهو منه ، وقوله تعالى فى المرأتين الشاهدتين : (أن تضل احداهما)[٥٢٠] أى تنسى ، وفرود الضلال بتلك المعانى المتفاوتة ، كما يفهم من السياق ، ومن أشخاص من ينسب اليهم الضلال .

وقيل ان الضلال يكون بمعنى العذاب ، واستشهد قائل ذلك بقوله تعالى (ان المجرمين فى ضلال وسعر)[٥٢١] وهذا ليس بصحيح ، لأنه يجوز أن يكون أراد أن المجرمين فى الدنيا فى ضلال وفى الآخرة فى سعر ، أو فى ضلال فى الدنيا عن الحق ، وسعر هو نفس ضلالهم عن الحق ، وسميت أعمالهم سعرا ، لأنها تستحق لها السعير ، كما قال تعالى : (فما أصبرهم على النار)[٥٢٢] يعنى على عمل أهل النار ، لا أنه سمى العذاب ضلالا : بل انه بذهاب صاحبه عن اللذات والثواب، وهو على وجه التشبيه بالذهاب عن الحق[٥٢٣] .

وأما الاضلال فانه متعلق بالمضل للضال دون الضال بنفسه ، وان قيل : زيد ضلل نفسه فعلى معنى التشبيه باضلال غيره له .

---

(٥١٧) الضحى/٧ .
(٥١٨) يوسف/٩٥ .
(٥١٩) الشعراء/٢٠ .
(٥٢٠) البقرة/٢٨٢ .
(٥٢١) القمر/٤٧ .
(٥٢٢) البقرة/١٧٥ .
(٥٢٣) نكت الانتصار لنقل القرآن للباقلانى ص٢١٧ .

وقولنا تزيين الباطل وتقبيح الحق انما هو الحيلولة بين المرء وقلبه ، وخلق الباطل فى القلب • وقولنا : طبع ، وختم ، وغشى ، وصمم، وغمى وشك وهو عبارة عن خلق الباطل فى القلوب ، والله تعالى المنفرد بخلق ذلك لا يشاركه فيه أحد من خلقه وقد سمى الدعاء الى الباطل والوسوسة اضلالا ، فاغواء الشيطان اضلال لمن قبله دون من لم يقبله ، ولما كانت التسمية للغير بالضلال تؤذيه وتضره سمعت الوسوسة كذلك اضلالا ، وان لم تكن اضلالا على الحقيقة بل على التشبيه بالضلال •

قال الشاعر :

مازال يهدى قومه ويضلنا حقا وينسبنا الى الكفار

يعنى مازال يسمينا ضالين[٥٢٤] •

وأما الاضلال المضاف الى ابليس فيكون بمعنى الدعاء ويكون بمعنى الوسوسة ، قال تعالى (الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء)[٥٢٥] وقال النبى ﷺ « ما منكم الا وله شيطان ، قالوا : وأنت يارسول الله ؟ قال : وأنا ، ولكن الله سبحانه يعيننى عليه » •

وفى رواية أخرى ، ولكن الله أعاننى عليه[٥٢٦] فأضاف الهدى والضلال الى الله تعالى •

٢٧ ــ قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وأنتم مسلمون)[٥٢٧] مع قوله تعالى (فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيرا لأنفسكم)[٥٢٨] •

---

(٥٢٤) نكت الانتصار لنقل القرآن للباقلانى ص٢١٨ •

(٥٢٥) البقرة/١٦٨ • (٥٢٦) •••

(٥٢٧) آل عمران/١٠٢ • (٥٢٨) التغابن/١٦ •

ما وجه قوله تعالى فى سورة التغابن (فاتقوا الله ما استطعتم) ؟ وكيف يجوز اجتماع الامر باتقاء الله حق تقاته ، والامر باتقائه ما استطعنا ؟ والامر باتقائه حق تقاته ايجاب القرآن بغير خصوص ولا وصل بشرط ، والامر باتقائه ما استطعنا أمر باتقائه موصولا بشرط ؟ .

والجواب عن ذلك أن قوله تعالى (فاتقوا الله ما استطعتم) بمعزل عما دل عليه قوله تعالى (اتقوا الله حق تقاته) ، وانما عنى بقوله (فاتقوا الله ما استطعتم) فاتقوا الله أيها الناس وراقبوه فيما جعل فتنة لكم من أموالكم وأولادكم أن تقبلكم فتنتهم ، ويعتدكم عن الواجب لله عليكم من الهجرة من أرض الكفر الى أرض الاسلام فتتركوا الهجرة ما استطعتم ، بمعنى وأنتم للهجرة مستطيعين ، وذلك أن الله جل ثناؤه قد كان عذر من لم يقدر على الهجرة بتركها بقوله تعالى (ان الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا . الا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا ، فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوا غفورا)[٥٢٩] فأخبر أنه قد عفا عمن لا يستطيع حيلة ولا يهتدى سبيلا بالاقامة فى دار الشرك ، فكذلك معنى قوله : (فاتقوا الله ما استطعتم) فى الهجرة من دار الشرك الى دار الاسلام أن نتركوها بفتنة أموالكم وأولادكم .

ومما يدل على صحة هذا أن قوله (فاتقوا الله ما استطعتم » عقيب قوله (يا أيها الذين آمنوا ان من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم) .

ولا خلاف بين السلف من أهل العلم بتأويل القرآن أن هذه

---

(٥٢٩) النساء/٩٧ — ٩٩ .

الآيات نزلت بسبب قوم كفار تأخروا عن الهجرة من دار الشرك الى دار الاسلام لتثبيط أولادهم اياهم عن ذلك ، حسب ما تقدم ، وهذا كله اختيار الطبرى[٥٣٠] .

وقيل : (فاتقوا الله ما استطعتم) فيما تطوع به من نافلة أو صدقة ، فانه لما نزل قوله تعالى (اتقوا الله حق تقاته) اشتد على القوم فقاموا حتى وريت عراقيبهم وتقرحت جباههم ، فأنزل الله تخفيفا عنهم (فاتقوا الله ما استطعتم) فنسخت الاولى ، قاله ابن جبير .

وقيل هى محكمة لا نسخ فيها ، وقال ابن عباس ، فى قوله تعالى (اتقوا الله حق تقاته) انها لم تنسخ ، ولكن حق تقاته أن يجاهدوا لله حق جهاده ولا يأخذهم فى الله لومة لائم ، ويقوموا لله بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم[٥٣١] .

٢٨ ــ وأما قوله تعالى (يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب)[٥٣٢] ثم قال جل ثناؤه (وفاكهة مما يتخيرون ولحم طير مما يشتهون وحور عين)[٥٣٣] والفاكهة لا يطوف بها الولدان ، والعطف يقتضى ذلك ، والجواب عنه من وجهين :

أحدهما : أن الفاكهة واللحم فى الدنيا يطلبان فى حالتين : أحدهما : حالة الشرب والاخرى حال عدمه ، فالفاكهة من رؤوس الاشجار تؤخذ ، كما قال تعالى (قطوفها دانية)[٥٣٤] وقال (وجنى الجنتين دان)[٥٣٥] الى غير ذلك .

---

(٥٣٠) جامع البيان فى تفسير القرآن للطبرى ج٤/٣٠ طبعة بولاق ، الطبعة الاولى .

(٥٣١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ج١٨/١٤٤ ــ ١٤٥ .

(٥٣٢) الواقعة/١٧ .

(٥٣٣) الواقعة/٢٠ ــ ٢٢ .

(٥٣٤) الحاقة/٢٣ .

(٥٣٥) الرحمن/٥٤ .

وأما حالة الشرب فجاز أن يطوف بها الولدان فيناولوهم الفواكه الغريبة واللحوم العجيبة لا للأكل بل للاكرام ، كما يضع المكرم للضيف أنواع الفواكه بيده عنده ، وان كان كل واحد منهما مشاركا للآخر فى القرب منها .

والوجه الثانى : أن يكون عطفا فى المعنى على جنات النعيم ، أى هم المقربون فى جنات وفاكهة ، ولحم وحور ، أى فى هذه النعم يتقلبون، والمشهور أنه عطف فى اللفظ للمجاورة لا فى المعنى ، وكيف لا يجوز هذا ، وقد جاز تقلد سيفا ورمحا .

٢٩ — وأما قوله تعالى (وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم)[٥٣٦] فانه لا يتناقض مع قوله جل ثناؤه (ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين)[٥٣٧] كما أنه لا يتناقض أيضـــا مع قوله تعالى (ما فرطنا فى الكتاب من شىء)[٥٣٨] ، وذلك لما يأتى :

أولا : أن الله تعالى ذكره قد أوجب علينا طاعة الرسول ﷺ فى آيات كثيرة من كتابه .

ثانيا : النظر الى ما دل عليه الكتاب فى الجملة ، وأنه موجود فى السنة على الكمال ، زيادة الى ما فيها من البيان والشرح .

وفيما يلى بيان ذلك :

أولا : أن الله تعالى ذكره قد أوجب علينا طاعة الرسول ﷺ فى آيات كثيرة من كتابه ، يقول عز شأنه (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجـــدوا فى أنفسهم حرجا ما قضيت ويسلموا تسليما)[٥٣٩] وقد روى فى سبب نزول هذه الآية الكريمة قولان :

---

(٥٣٦) النحل/٤٤ .

(٥٣٧) النحل/٨٩ .

(٥٣٨) الانعام/٣٨ .

(٥٣٩) النساء/٦٥ .

(١) أحدهما : وهو قول عطاء ومجاهد والشعبى أن هذه الآية نازلة فى قصة اليهودى والمنافق ، فهذه الآية متصلة بما قبلها[٥٤٠] .

وقال الطبرى : قوله (فلا) رد على ما تقدم ذكره ، تقديره فليس الامر كما يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل اليك ، ثم استأنف القسم بقوله (وربك لا يؤمنون)[٥٤١] .

وقال غيره : انما قدم (لا) على القسم اهتماما بالنفى واظهارا لقوته ، ثم كرره بعد القسم تأكيدا للتهمم بالنفى[٥٤٢] .

وقال بعض العلماء : انها — لا — مفيدة ، وعلى هذا التقدير ذكر الواحدى فيه وجهين :

---

(٥٤٠) عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كان بين رجل من المنافقين — يقال له بشر — وبين يهودى خصومة ، فقال اليهودى : انطلق بنا الى محمد ﷺ وقال المنافق : بل الى كعب بن الاشرف — وهو الذى سماه الله (الطاغوت) — أى ذو الطغيان — فأبى اليهودى أن يخاصمه الا الى رسول الله ﷺ فلم أرى ذلك المنافق أتى معه الى رسول الله ﷺ ، فقضى لليهودى ، فلما خرجا قال المنافق : لا أرضى انطلق بنا الى أبى بكر ، فحكم لليهودى فلم يرض ، ، وقال انطلق بنا الى عمر ، فأقبلا على عمر فقال اليهودى : انا صرنا الى رسول الله ﷺ ثم الى أبى بكر فلم يرض ، فقال عمر للمنافق : أكذاك هو ؟ قال : نعم . قال : رويدكما حتى أخرج اليكما ، فدخل وأخذ السيف ، ثم ضرب به المنافق حتى برد أى مات . وقال هكذا اقضى على من لم يرض بقضاء الله وقضاء رسوله ﷺ ، وهرب اليهودى ونزلت الآيات ٦٠ — ٦١ من سورة النساء .

(٥٤١) جامع البيان للطبرى ج ٥/١٠٠ .

(٥٤٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ج ٥/٢٦٦ .

(٥٤٣) الجدر : هو ما رفع حول المزرعة كالجدار .

الأول : أنه يفيد نفى أمر سابق ، والتقدير : ليس الامر كما يزعمون أنهم آمنوا وهم يخالفون حكمك ، ثم استأنف القسم بقوله (فوربك لا يؤمنون حتى يحكموك) •

والثانى : أنها لتوكيد النفى الذى جاء فيما بعد ، لأنه اذا ذكر فى أول الكلام وفى آخره كان أوكد وأحسن •

(ب) والثانى : أنها مستأنفة نازلة فى قصة أخرى ، وهو ما روى عن عروة بن الزبير أن رجلا من الانصار خاصم الزبير فى ماء يسقى به النخل ، فقال ﷺ للزبير : (اسق أرضك ثم أرسل الماء الى أرض جارك) •

فقال الانصارى : لأجل أنه ابن عمتك ، فتلون وجه رسول الله ﷺ ، ثم قال للزبير : اسق ، ثم احبس الماء حتى يبلغ الجدار[٥٤٣] •

وعلى هذا فان معنى الآية الكريمة أنهم لا يؤمنون حتى يرضوا بحكم النبى ﷺ ، فانه أولا أقسم سبحانه بنفسه مؤكدا لهذا القسم بحرف النفى أنهم لا يؤمنون ، فنفى عنهم الايمان الذى هو رأس مال صالحى عباد الله حتى تحصل لهم غاية تحكيم رسول الله ﷺ ، ثم لم يكتف جل ثناؤه بذلك حتى قال : (ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت) فضم الى التحكيم أمرا آخر ، هو عدم وجود حرج ، أى حرج فى صدورهم ، فلا يكون مجرد التحكيم والاذعان كافيا حتى يكون من صميم القلب عن رضا واطمئنان ، وانثلاج قلب ، وطيب نفس ، ثم لم يكتف بهذا كله ، بل ضم اليه قوله عز شأنه (ويسلموا) أى يذعنوا وينقادوا ظاهرا وباطنا • ثم لم يكتف بذلك بل ضم اليه المصدر المؤكد فقال : (تسليما) ، فلا يثبت الايمان لعبد حتى يقع منه هذا التحكيم ، ولا يجد الحرج فى صدره بما قضى عليه ويسلم لحكم الله وشرعه تسليما لا يخالطه رد ، ولا تشوبه مخالفة •

ومن الآيات القرآنية الكريمة التى توجب علينا طاعة الرسول ﷺ قوله جل ثناؤه (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو

---

(٥٤٣) الجدر : هو ما رفع حول المزرعة كالجدار .

يصبهم عذاب أليم)[٥٤٤] • وقد اختلف فى (عن) هنا :

فقيل : انها زائدة وهذا ضعيف ، أى يخالفون أمره ، قال أبو عبيدة والاخفش[٥٤٥] •

وقال ابن عطية : (عن) هنا بمعنى بعد ، والمعنى يقع خلافهم بعد أمره ، كما تقول ، كان المطر عن ريح ، وأطعمته عن جوع[٥٤٦] • والى ذلك ذهب الخليل وسيبويه ، قال الشاعر :

وتضحى فتيت المسك فوق فراشها نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضل

ومنه قوله تعالى (ففسق عن أمر ربه)[٥٤٧] أى بعد أمر ربه[٥٤٨] •

وقال ابن الحاجب : عدى يخالفون بـ (عن) لما فى المخالفة من معنى التباعد والحيد ، كأنه قيل : الذين يحيدون عن أمره بالمخالفة وهو أبلغ من أن يقال : يخالفون أمره •

وقيل : على تضمين معنى الصد ، وقيل : اذا عدى بعن يراد به الصد دون تضمين ، ويتعدى الى مفعول بنفسه يقال : خالف زيدا عن الامر ، أى صده عنه والمفعول عليه هنا محذوف ، أى يخالفون المؤمنين، أى يصدونهم عن أمره وحذف المفعول لأن المراد تقبيح حال المخالف ، وتعظيم أمر المخالف عنه ، فذكر الاهم وترك ما لا اهتمام به ، وقد يتعدى بالى ، فيقال : خالف اليه اذا أقبل نحوه •

وضمير (أمره) لله عز وجل ، فان الامر له سبحانه فى الحقيقة ، أو للرسول ﷺ ، فانه المقصود بالذكر[٥٤٩] •

---

(٥٤٤) النور/٦٣ •

(٥٤٥) التسهيل لكلبى جـ٣/٧٢ والجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ١٢/ ٣٢٣ •

(٥٤٦) روح المعانى للالوسى جـ١٨/٢٢٦ •

(٥٤٧) الكهف/٥٠ •

(٥٤٨) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ١٢/٣٢٣ •

(٥٤٩) روح المعانى للالوسى جـ١٨/٢٢٦ من المجلد السادس •

والفاء فى قوله تعالى (فليحذر) لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، أى يخالفون أمر النبى ﷺ بترك العمل بمقتضاه .

قال القرطبى : احتج الفقهاء على أن الامر للوجوب بهذه الآية ، ووجه ذلك أن الله سبحانه قد حذر من مخالفة أمره ، ويتوعد بالعقاب عليها بقوله (أن تصيبهم فتنة) الآية فيجب امتثال أمره وتحرم مخالفته، والفتنة هنا غير مقيدة بنوع من أنواع الفتن . وقيل هى : القتل ، وقيل : الزلازل ، وقيل : تسلط سلطان جائر عليهم ، وقيل الطبع على قلوبهم[٥٥٠] .

وبحق فانه لا يتم ولا يكمل ايمان من آمن بالله ورسوله ، الا بأن يكون من الرسول ﷺ سامعا غير معنت فى أن يكون الرسول ﷺ كمال أمر فيريد هو افساده بزواله فى وقت الجمع ، ونحو ذلك ، قال الله تعالى: (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، واذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه ان الذين يستأذنوك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسـوله ، فاذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهـم واستغفر لهم الله ان الله غفور رحيم)[٥٥١] .

ومن ذلك قوله تعالى (قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله)[٥٥٢] فقد جعل المولى عز وجل اتباع النبى ﷺ علامة على محبة العبد لله تعالى وشرط فى محبة الله للعبد ومغفرته له .

---

(٥٥٠) الجامع لأحكام القـرآن للقرطبى جـ١٢/٣٢٣ وفتـح القـدير للشوكانى جـ٤/٥٨ .

(٥٥١) النور/٦٢ .　　(٥٥٢) آل عمران/٣١ .

والحب : المحبة ، وكذلك الحب بالكسر ، والحب أيضا الحبيب ، مثل الحدن والخدين يقال : أحبه فهو محب ، وحبه يحبه ـــ بالكسر ـــ فهو محبوب . قال الجوهرى : وهذا شاذ ، لأنه لا يأتى فى المضاعف للفعل بالكسر .

ويروى أنه ﷺ وقف على قريش وهم فى المسجد الحرام يسجدون للاصنام فقال : يا معشر قريش والله لقد خالفتم ملة ابراهيم ، فقالت قريش : انما نعبد هذه حبا لله ليقربونا الى الله زلفى ، فنزلت هذه الآية[553] .

ويروى أن النصارى قالوا : انما نعظم المسيح حبا لله ، فنزلت هذه الآية وبالجملة فكل واحد من فرق العقلاء يدعى أنه يحب الله ، ويطلب رضاه وطاعته فقال لرسوله ﷺ : قل ان كنتم صادقين فى ادعاء محبة الله تعالى فكونوا منقادين لأوامره محترزين عن مخالفته ، وتقدير الكلام أن من كان محبا لله تعالى لابد وأن يكون فى غاية الحذر مما يوجب سخطه ، واذا قامت الدلالة القاطعة على نبوة محمد ﷺ وجبت متابعته، فان لم تحصل هذه المتابعة دل ذلك على أن تلك المحبة ما حصلت .

ومحبة العبد لله ورسوله طاعته لهما واتباعه أمرهما ، قال الله تعالى (قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى) .

= قال أبو الفتح : والاصل فيه حب كظرف ، فاسكنت الباء وأدغمت فى الثانية .

قال ابن الدهان : فى حب لغتان حب ، وأحب ، وأصل حب فى هذا الباب حب كطرق ، وأصل (حب) فى هذا الباب حبب كطرق ، يدل على ذلك قولهم : حببت ، وأكثر ما ورد فعيل من فعل . والدلالة على أحب قوله تعالى (يحبهم ويحبونه) بضم الياء ، وقوله (اتبعونى يحببكم الله) و (حب) يرد على فعل لقولهم حبيب . وعلى فعل كقولهم محبوب ، ولم يرد اسم الفاعل حب المتعدى ، فلا يقال : أنا حاب ولم ير اسم المفعول من أفعل الا قليلا : كقوله :

منى بمنزلة المحب المكـــرم

(ينظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ٤/٦٠ وفتح القدير للشوكانى جـ١/٣٣٣) .

(٥٥٣) التفسير الكبير للرازى جـ٨/١٨ من المجلد الرابع .

ومحبة الله للعباد انعامه عليهم بالغفران ، قال الله تعالى (فان الله لا يحب الكافرين)(٥٥٤) أى لا يغفر لهم ، وروى أبو الدرداء عن رسول الله ﷺ فى قوله تعالى (قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله) قال : (على البر والقوى والتواضع وذلة النفس)(٥٥٥) وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ان الله اذا أحب عبدا دعا جبريل فقال : انى أحب فلانا فأحبه ، قال : فيحبه جبريل ، ثم ينادى فى السماء فيقول : ان الله يحب فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء — قال — ثم يوضع له القبول فى الارض ، واذا أبغض عبدا دعا جبريل فيقول : انى أبغض فلانا فأبغضه فيبغضه جبريل ، ثم ينادى فى أهل السماء ان الله يبغض فلانا فأبغضوه قال : فيبغضونه ثم توضع له البغضاء فى الارض »(٥٥٦) .

هذا وقد ادعى القوم انهم محبون لله تعالى ، وكانوا يظهرون الرغبة فى أن يحبهم الله جل ثناؤه ، والآية الكريمة مشتملة على أن الالزام من وجهين :

أحدهما : ان كنتم تحبون الله فاتبعونى ، لأن المعجزات دلت على أنه تعالى أوجب عليكم متابعتى ، أى متابعة الرسول ﷺ .

الثانى : ان كنتم تحبون أن يحبكم الله فاتبعونى لأنكم اذا اتبعتمونى فقد أطعتم الله ، والله تعالى يحب كل من أطاعه ، وأيضا فليس فى متابعتى الا أنى دعوتكم الى طاعة الله تعالى وتعظيمه وترك تعظيم غيره ومن أحب الله كان راغبا فيه ، لأن المحبة توجب الاقبال بالكلية على المحبوب ، والاعراض بالكلية عن غير المحبوب(٥٥٧) .

---

(٥٥٤) آل عمران/٣٢ . (٥٥٥) الترمذى

(٥٥٦) مسلم .

(٥٥٧) التفسير الكبير للرازى جـ٨/١٩ ومن المجلد الرابع .

والى جانب الآيات السابقة هناك آيات أخرى مثل قوله تعالى (وما كان لمؤمن ولا لمؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا)[558].

وقال الله جل ثناؤه (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله والرسول وأولى الامر منكم ، فان تنازعتم فى شيء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا)[559] .

وقال تبارك وتعالى ذكره (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا فان توليتم فانما على رسولنا البلاغ المبين)[560] .

وقال عز وجل (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فان توليتم فانما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم وان تطيعوه تهتدوا)[561] .

ان هذه الآيات الكريمة السابقة توضح لنا وجوب الايمان بما يصدر عن الرسول ﷺ قرآنا كان أو غير قرآن ، كما أنها تحذرنا من مخالفة الله عز وجل ومن معصيته ، كما أنها تحذرنا — أيضا — من معصية الرسول ﷺ ، وتحرم علينا مخالفته ﷺ ، عن العرباض[562] بن سارية رضى الله عنه أنه حضر رسول الله ﷺ يخطب الناس وهو يقول: (أيحسب أحدكم متكئا على أريكته ، قد يظن أن الله تعالى لم يحرم شيئا الا ما فى هذا القرآن ، ألا وانى والله قد أمرت ووعظت ونهيت عن أشياء انها كمثل القرآن)[563] . وعن المقدام بن معدى كرب قال : قال رسول

---

(558) الاحزاب/16 .

(559) النساء/59 .

(560) المائدة/92 .

(561) النور/54 .

(562) صحابى جليل يكنى أبا نجيح ، أسلم قبل الفتح (الطبقات لابن سعد ج4/19) القسم الثانى .

(563) ، (564) أبو داود فى السنة ، باب لزوم السنة ، وفى الخراج والامارة والفىء باب تعشير أهل الذمة اذا اختلفوا بالتجارات ، والترمذى

الله ﷺ : (يوشك رجل منكم متكئا على أريكته يحدث بحديث عنى ، فيقول ، بيننا وبينكم كتاب الله فما وجدنا فيه من حلال استحللناه ، وما وجدنا فيه من حرام حرمناه ألا وان ما حرم رسول الله ﷺ مثل الذى حرم الله[٥٦٤] .

وعن عبد الله بن مسعود قال : (لعن الله الواشمات ، والمستوشمات والمتنمصات ، والمتفلجات للحسن ، المغيرات خلق الله ، فبلغ ذلك امرأة من بنى أسد ، يقال لها أم يعقوب فجاءت فقالت : انه بلغنى أنك لقنت كيت وكيت ، فقال : ومالى لا ألعن من لعن رسول الله ﷺ ومن هو فى كتاب الله ؟ فقالت : لقد قرأت ما بين اللوحين ، فما وجدت فيه ما تقول؟ فقال : لئن كنت قرأتيه لقد وجدتيه ، أما قرأت (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) . قالت : بلى . قال : فانه قد نهى عنه ، قالت : فانى أرى أهلك يفعلونه ، قال : فاذهبى : فانظرى فذهبت، فنظرت فلم ترهن شيئا)[٥٦٥] .

وعلى هذا فانه يمكن أن نقول : أن الشريعة تتكون من الأصلين معا : الكتاب والسنة ، وأن فى السنة ما ليس فى الكتاب ، وأنه يجب الاخذ بما فى السنة ، كما يجب الاخذ بما فى الكتاب الكريم ، لأن الحديث صريح فى أن الذى أحله أو حرمه رسول الله ﷺ ، مثل الذى أحله أو

=

بلفظ قريب منه فى كتاب العلم ، باب ما نهى عنه أن يقال عند حديث النبى ﷺ ، ابن ماجه فى المقدمة ، باب تعظيم حديث رسول الله ﷺ بلفظ قريب منه ، أحمد فى المسند جـ٤/١٣٠ عن المقدام بن معديكرى بلفظ قريب ط. الميمنة .

(٥٦٥) البخارى فى اللباس ، باب المتفلجات للحسن ، وفى اللباس ، باب فعل الواصلة ، النسائى فى الزينة ، باب لعن المتنمصات والمتفلجات ، أبو داود فى الترجل ، باب صلة الشعر .

والترمذى فى الادب ، باب فى الواصلة .

وابن ماجه فى النكاح باب الواصلة والواشمة .

حرمه الله فى الحكم لأن الله تعالى أوجب طاعته ودل عليها القرآن بمختلف الدلالات ، وفى شتى المناسبات وبمختلف الصيغ والعبارات(٥٦٦) .

وعليه أود أن أحصر عدة نقاط فى الآيات الكريمة السابقة أتناولها بالحديث فيما يلى :

١ ــ ما تفيده واو العطف حيثما تعطف مفردين اشتركا فى عامل واحد كما فى قوله (أطيعوا الله والرسول) .

٢ ــ تكرار العامل مع العطف بالواو ، وما يفيده ذلك من تأكيد عموم الطاعة فيما يصدر عن الرسول ﷺ كتابا كان أو سنة ، كقوله تعالى (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول) .

٣ ــ تكرار العامل مع العطف فى شيئين مع العطف على الاخير بدون تكرار العامل كقوله تعالى (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) بدون تكرار العامل فى عطف (أولى الأمر) على (الرسول) .

٤ ــ ما يفيده الامر أو النهى المحفوف بالقرائن من الايجاب أو التحريم .

٥ ــ ما يفيده التزام اقتران الامر بطاعة الرسول ﷺ ، مع الامر بطاعة الله ، وكذلك فى النهى عن المعصية فى كل آية وردت فى القرآن الكريم أمر الله فيها بطاعته أو نهى عن معصيته(٥٦٧) . وفيما يلى بيان ذلك :

ان آيات النوع الاول التى قرن الله فيها طاعة الرسول ﷺ بطاعته بواو العطف من غير تكرار العامل ، وكذلك النهى عن المعصية يفيد

---

(٥٦٦) السنة ومكانتها فى التشريع الاسلامى للشيخ عباس متولى حمادة ص١٢٦ .

(٥٦٧) السنة ومكانتها فى التشريع الاسلامى للشيخ عباس متولى حمادة ص٥٦ .

العطف فيهـا مطلق الاشتراك والجمـع بين المتعاطفين[٥٦٨] لأنهما مفردان[٥٦٩] .

والمراد من الاشتراك المطلق والجمع المطلق أنها لا تدل على أكثر من التشريك فى المعنى العام ، فلا تفيد الدلالة على ترتيب زمنى بين المتعاطفين وقت وقوع المعنى ولا مصاحبة ، ولا على تعقيب[٥٧٠] أو مهلة[٥٧١] .

ففى قوله تعالى (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول) و (أطيعوا الله والرسول) فان الواو قد « أفادت التشريك فى الطاعة ، أو لا توجد قرينة تعارض التشريك فى العامل ، فطاعة الرسول ﷺ مأمور بها كطاعة الله عز وجل » .

هذا وقد ذكر الله تعالى أيضا مقابل الامر بالطاعة ، وهو النهى عن المعصية وان كانت مفهومة من الامر بالطاعة غير أن دلالة التنصيص أقوى من دلالة المفهوم ، أو بيان الضرورة ، وذلك لمزيد الاهتمام بهذا الرسول ﷺ الذى شرفه باقترانه معه فى الامر بطاعته ، والنهى عن معصيته .

---

(٥٦٨) هما المعطوف ــ وهو الذى بعد حرف العطف مباشرة ، والمعطوف عليه وهو المتبوع ولابد أن يسبق حرف العطف . ينظر : حروف المعانى . والنحو الوافى جـ٣/٥٥٧ الطبعة الرابعة .

(٥٦٩) المفرد فى باب العطف هو ما ليس جملة ولا شبه جملة ، فهو كالمفرد فى باب الخبر والنصب والحال .

(٥٧٠) الترتيب الزمنى تقدم أحدهما على الآخر وقت وقوع المعنى . والمصاحبة : تقتضى اشتراكهما فى المعنى فى وقت واحد .

(٥٧١) النحو الوافى جـ٣/٥٥٧ ــ ٥٥٨ .

وما جاء من الآيات بأسلوب الشرط كما فى قوله تعالى (ومن يطع الله ورسوله)[٥٧٢] و (من يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا)[٥٧٣] وان كان بلفظ الاخبار فهو انشاء فى المعنى كأن الله تعالى يقول آمرا : أطيعوا ، وناهيا : لا تعصوا[٥٧٤] .

ويقول الصبان فى حاشيته على شرح الاشمونى (ان من خصائص العطف بالواو عطفها ما تضمنه الاول لمزية فى المعطوف مثل قوله تعالى (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى)[٥٧٥] وفيه مزية أن هذا من عطف الخاص على العام[٥٧٦] .

واذا طبقنا ما قاله الصبان هنا كان العطف دالا على ميزة خص الله تعالى بها رسوله ﷺ ومنحها اياه ، لأنه مبلغ عنه ، والا فالطاعة العامة له تبارك وتعالى ، وطاعة الرسول ﷺ من اذنه ، فعطف الله الامر بطاعة الرسول على الامر بطاعته لينبه تبارك وتعالى عباده على ميزة فى طاعة الرسول ﷺ خاصة ، لأنه مبين كتابه الكريم ، اذا كان مبلغا عن دينه ، فأبان لنا بهذا العطف أن كمال طاعة الله لا تتم ولا تتحقق عنده الا بطاعة رسوله ، اذ أن الرسول ﷺ معصوم وأن كل ما يجرى على لسانه ، أو يبدو من عمله — فى الشريعة — انما هو بالوحى السماوى ، أو الالهام الصادق ، وما كان للرسول ﷺ أن يشرع شرعا يتعبد الناس به من عند نفسه (وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحى يوحى)[٥٧٧] .

---

(٥٧٢) الاحزاب/٧١ .

(٥٧٣) الاحزاب/٣٦ .

(٥٧٤) السنة ومكانتها فى التشريع الاسلامى ص ٥٥ .

(٥٧٥) البقرة/٢٣٨ .

(٥٧٦) حاشية الصبان جـ٣/٧٧ .

(٥٧٧) النجم/٣ ، ٤ .

وعلى هذا فان أمر الرسول ﷺ — وكذا نهيه — لا يختلف عن أمر القرآن ونهيه ، وكلاهما معصوم ، والقرآن الكريم ، والرسول ﷺ لا يفرضان شيئا — (ليس لك من الأمر شيء)[٥٧٨] وانما الذى يفرض هو الله الحكيم وطاعته هى الطاعة العامة . غير أن مظهر هذا الفرض على العباد والتكليف به اما أن يجرى على لسان النبى ﷺ ، أو يتجلى فى لفظ القرآن الكريم ، وليس الامر بطاعتهما ، انما الامر بطاعة الله ، اذ أن الرسول ﷺ هو الواسطة الينا فى نقل حكم الله قرآنا أو غير قرآن ، فهو المبلغ للاثنين ، ومصدرهما الوحى ، الا أن القرآن لفظه معجز متعبد به ، والسنة شارحة ، ومبينة لمعانيه ، ومقاصده ، ولهذا كرمه الله تعالى بالعطف على اسمه الكريم لميزة فى الرسول ﷺ أرادها له ، ومظهره المتجلى لنا ختم الرسالات وبعثته للناس كافة[٥٧٩] .

ان المولى عز وجل قد أكد لنا — أيضا — عموم طاعة الرسول ﷺ فى الآيات التى كرر فيها العامل — (أطيعوا) — (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول)[٥٨٠] ، واللغويون والمفسرون قد أجمعوا على أن تكرار العامل — أطيعوا — يدل على تأكيد عموم طاعته فى جميع ما يصدر عنه .

قال الرازى : فان قيل أليس أن طاعة الرسول ﷺ هى طاعة الله فما معنى هذا العطف ؟ .

قلنا : الفائدة فى ذلك فى بيان الدلالتين :

فالكتاب : يدل على أمر الله تعالى ، ثم نعلم منه أمر الرسول ﷺ لا محالة .

والسنة : تدل على أمر الرسول، ثم نعلم منه أمر الله لا محالة ،

---

(٥٧٨) آل عمران/١٢٨ .

(٥٧٩) السنة مكانتها فى التشريع ص٥٧ بتصرف يسير .

(٥٨٠) النساء/٥٩ .

فثبت بما ذكرنا أن قوله (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول) يدل على وجوب متابعة الكتاب للسنة[581] .

وفى قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم)[582] .

أكثر من دليل على أن للرسول ﷺ طاعة منحها الله اياه فيما يصدر عنه من بيان للكتاب ، أو غير بيان له ، لعدة أمور :

(أ) أنه كرر العامل وقرن طاعته بطاعته .

(ب) وأنه عطف أولى الامر على الرسول ﷺ بواو العطف ، ولم يكرر العامل عند ذكر أولى الامر ، وذلك دليل على أن أولى الامر ليس لهم طاعة مستقلة ، وليس لهم تشريع يصدر عنهم ، وانما يطاعون فيما شأنه أن يتولوه ويباشروه فى اطار من الدين الذى شرعه الله قرآنا كان أو سنة .

(جـ) ما أبانه تعالى مما يجب أن يتبعه المؤمنون عند التنازع من وجوب الرد الى الله والرسول ، وكما يكون الرد الى الله مفهوما منه الرد الى كتابه الكريم من وقت نزوله الى يوم القيامة ، فكذلك يكون الرد الى الرسول من وقت تبليغه الى أن تقوم القيامة ، لأنه لم يزل عنه وصف الرسالة بانتقاله الى الرفيق الاعلى ، ولأنه مبين للكتاب الكريم ، ومظهر للمراد منه[583] .

وعلى ضوء ما سبق يمكن أن نقول : ان الله عز وجل فرض علينا طاعة الرسول ﷺ ، وانما كانت طاعته كطاعة الله تبارك وتعالى ، لأنه يأمر وينهى عن الله عز وجل .

---

(581) التفسير الكبير للرازى جـ ١٠/١٤٨ من المجلد الخامس .

(582) النساء/٥٩ .

(583) السنة النبوية ومكانتها فى التشريع ص٥٨ .

قال الامام الشاطبى : (ان الله قد قال فى كتابه « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » ، وتكراره يدل على عموم الطاعة بما أتى به مما فى الكتاب ومما ليس فيه مما هو من سنته)[٥٨٤] .

ويقول الطبرى فى تفسيره لآية المائدة (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول) فى اجتنابكم ذلك — الخمر والميسر والانصاب والازلام — واتباعكم أمره فيما أمركم به من الانزجار عما زجركم عنه وخالفوا الشيطان فى أمره اياكم بمعصية الله) .

ويقول الشافعى فى الرسالة (وما سن رسول الله ﷺ فيما ليس لله فيه حكم فبحكم الله سنة) وكذلك أخبرنا الله فى قوله (وانك لتهدى الى صراط مستقيم صراط الله)[٥٨٥] .

وقد سن رسول الله ﷺ مع كتاب الله ، وسن فيما ليس فيه بعينه نص كتاب وكل ما سن ، قد ألزمنا الله اتباعه ، وجعل فى أتباعه طاعته ، وفى القعود عن اتباعها معصيته التى لم يعذر بها خلقا ، ولم يجعل له من أتباع سنن رسول الله مخرجا[٥٨٦] .

وقد دل الاستقراء على أن فى السنة النبوية أشياء لا تحصى كثرة لم ينص عليها فى القرآن ، وذلك مثل :

— تحريم نكاح المرأة على عمتها أو خالتها .

— تحريم أكل ذى ناب من السباع ، ومخلب من الطير .

— تحريم بيع المنابذة والملامسة .

---

(٥٨٤) الموافقات للشاطبى ج٣/٤٢ .

(٥٨٥) الشورى/٥٢ — ٥٣ .

(٥٨٦) الرسالة/٨٨ — ٨٩ .

ـ تحريم بيع الخمر ٠

ـ تحريم الحمر الاهلية ٠ وفيما يلى بيان ذلك :

ـ تحريم نكاح المرأة على عمتها أو خالتها :

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال (لا يجمع لا بين المرأة وعمتها ولا بين المرأة وخالتها)(٥٨٧) وفى لفظ آخر عن أبى هريرة أيضا قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تنكح المرأة على عمتها ، ولا العمة على بنت أخيها ، ولا المرأة على خالتها ولا الخالة على بنت أختها ، ولا تنكح الكبرى على الصغرى ، ولا الصغرى على الكبرى »(٥٨٨) ٠ وعن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى ﷺ : « انه كره أن يجمع بين العمتين والخالتين »(٥٨٩) ٠

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « نهى رسول الله ﷺ أن تنكح المرأة على عمتها ، والمرأة على خالتها »(٥٩٠) ٠

---

(٥٨٧) ، (٥٨٨) البخارى فى النكاح ، باب لا تنكح المرأة على عمتها ، مسلم فى النكاح ، باب تحريم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها فى النكاح ، مالك فى الموطأ فى النكاح ، باب ما لا يجتمع فيه من النساء ، أبو داود فى النكاح باب ما يكره أن يجمع بينهن من النساء ، الترمذى فى النكاح ، باب لا تنكح المرأة على عمتها وقال : حسن صحيح ٠

(٥٨٩) أبو داود فى النكاح ، باب ما يكره أن يجمع بينهن من النساء ، والترمذى فى النكاح باب لا تنكح المرأة على عمتها ، أحمد فى المسند من طريق ضعيف عن عكرمة رقم ١٨٧٨ ٠

(٥٩٠) البخارى فى النكاح باب لا تنكح المرأة على عمتها ، مسلم فى النكاح ، باب تحريم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها ، أبو داود فى النكاح ، باب ما يكره أن يجمع بينهن من النساء ٠

تحريم أكل ذى ناب من السباع ومخلب من الطير :

روى عن ابن عباس رضى الله عنهما « نهى النبى ﷺ عن أكل كل ذى ناب من السباع ، وعن كل ذى مخلب من الطير »(٥٩١) وعن أبى هريرة رضى الله عنه بلفظ « كل ذى ناب من السباع فأكله حرام »(٥٩٢).

تحريم بيع المنابذة والملامسة(٥٩٣) :

أحل الله تعالى البيع ، فقال عز شأنه (وأحل الله البيـــع وحرم الربا)(٥٩٤) ولكن السنة النبوية الشريفة خصصت هذا العموم بتحريم

---

(٥٩١) مسلم فى كتاب الصيد والذبائح ، باب تحريم كل ذى ناب من السباع وكل ذى مخلب من الطير ، أبو داود فى الاطعمة ، باب النهى عن اكل السباع ، ابن ماجه فى كتاب الصيد ، باب اكل كل ذى ناب من السباع والنسائى فى الصيد والذبائح ، باب اباحة اكل لحوم الدجاج ، الطيالسى فى مسنده فى الاطعمة ، باب النهى عن اكل كل ذى ناب من سبع ، وكل ذى مخلب من الطير ، الدارقطنى عن خالد بن الوليد رضى الله عنه مرفوعا بلفظ: نهى يوم خيبر عن أكل لحوم الخيل والبغال والحمر وكل ذى ناب من السباع ومخلب من الطير ج٤/٢٨٧ والترمذى عن جابر رضى الله عنه فى الاطعمة باب ما جاء فى كراهية كل ذى ناب .

(٥٩٢) البخارى عن أبى ثعلبة الخشنى فى الطب ، باب ألبان الاتن ، مسلم فى الطب أيضا ، باب ألبان الاتن ، الترمذى ، عن أبى ثعلبة فى كتاب السير باب ما جاء فى الانتفاع بآنية المشركين، وفى الطب ، باب ألبان الاتن، والترمذى عن أبى ثعلبة فى السير ، باب ما جاء فى الانتفاع بآنية المشركين، وفى الطب ، باب ألبان الأتن ، ابن ماجه فى كتاب السير باب ما جاء فى الانتفاع بآنية المشركين ، النسائى فى البر ، باب تحريم أكل السباع ، ومالك كما فى الموطأ فى الصيد ، باب تحريم كل ذى ناب من السباع ، والشافعى فى الاطعمة، باب النهى عن كل ذى ناب ... الخ .

(٥٩٣) المنابذة : طرح الرجل ثوبه بالبيع الى رجل قبل أن يقطعه او ينظر اليه ، والملامسة : لمس الثوب لا ينظر اليه .

(٥٩٤) البقرة/٢٧٧ .

بيع المنابذة والملامسة • عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : « نهى رسول الله ﷺ عن لبستين ، وعن بيعتين ، أما البيعتان : الملامسة والمنابذة ، واللبستان : اشتمال الصماء ، والاحتباء فى ثوب واحد ليس على فرجة منه شىء »(٥٩٥) •

تحريم بيع الخمر :

حرم الشارع الحكيم الخمر فى قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون)(٥٩٦) وجاءت السنة النبوية الشريفة فخصصت هذا العموم بتحريم بيع الخمر ، عن عائشة رضى الله عنها قالت : لما نزلت الآيات الاواخر من سورة البقرة(٥٩٧) خرج رسول الله ﷺ فقرأهن علينا وقال : « حرمت التجارة فى الخمر »(٥٩٨) •

---

(٥٩٥) البخارى فى الصلاة ، باب ما يستر العورة ، وفى مواقيت الصلاة ، باب الصلاة بعد الفجر حتى ترتفع الشمس ، وفى البيوع ، باب بيع المنابذة ، وفى اللباس ، باب اشتمال العماء ، وباب الاحتباء فى ثوب واحد ، وفى الاستئذان ، باب الجلوس كيفما تيسر وفى الصوم ، باب الصوم يوم النحر ، وفى البيوع ، باب بيع الملامسة والمنابذة .

مسلم فى البيوع ، باب النهى عن بيع الملامسة والمنابذة ، وأبو داود فى البيوع باب فى بيع الغر ، وفى الصيام ، باب صوم العيدين ، النسائى فى البيوع ، باب تفسير ذلك ، وفى الزينة ، باب النهى عن اشتمال الصماء وباب النهى عن الاحتباء فى ثوب واحد ، الدارمى فى البيوع ، باب النهى عن المنابذة والملامسة ، البيهقى فى البيوع ، باب النهى عن بيع الملامسة والمنابذة ، وفى الصلاة ، باب وجوب ستر العورة فى الصلاة ، واحمد فى المسند جا/٤١٩ و ٤٦٤ و ٤٩١ و ٥٢٩ عن أبى هريرة .

(٥٩٦) المائدة/ ٩٠ .

(٥٩٧) الآيات ٢٧ ــ ٢٨ من سورة البقرة .

(٥٩٨) البخارى فى المساجد ، باب تحريم تجارة الخمر فى المسجد ، وفى =

تحريم الحمر الاهلية :

عن البراء بن عازب رضى الله عنهما قال : أمرنا رسول الله ﷺ فى غزوة خيبر أن نلقى الحمر الاهلية ــ نيئة ونضيحة ــ ثم لم يأمرنا بأكله بعد »[٥٩٩] .

والتحقيق عندى أن جميع ما عند النبى ﷺ من الاسرار الالهية ، وغيرها من الاحكام الشرعية قد اشتمل عليه القرآن المنزل فقد قال سبحانه (ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء)[٦٠٠] وقال تعالى (ما فرطنا فى الكتاب من شىء)[٦٠١] وقال ﷺ فيما أخرجه الترمذى وغيره « ستكون فتن ، قيل : وما المخرج منها ؟ قال : كتاب الله تعالى فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما فيكم »[٦٠٢] .

وقد قال الشافعى رضى الله عنه : جميع ما حكم به النبى ﷺ فهو مما فهمه من القرآن ، ويؤيد ذلك ما رواه الطبرانى فى الاوسط من

البيوع ، باب أكل الربا وشاهده ... الخ وباب تحريم التجارة فى الخمر ، وفى تفسير سورة البقرة ، باب وأحل الله البيع ، وباب يمحق الله الربا ، مسلم فى المساقاة ، باب تحريم بيع الخمر ، وأبو داود فى الاجارة ، باب فى ثمن الخمر والميتة .

(٥٩٩) البخارى فى الغزوات ، باب غزوة خيبر ، مسلم فى الصيد والذبائح ، باب تحريم أكل لحوم الحمر الاهلية ، النسائى فى الصيد ، باب تحريم أكل لحوم الحمر الاهلية ، ابن ماجه فى الذبائح ، باب لحوم الحمر الوحشية ، وأحمد فى المسند ج٤/٣٠١ طبعة الميمنية ، البيهقى فى الضحايا، باب ما جاء فى أكل لحوم الحمر الاهلية ، والطحاوى فى شرح معانى الآثار وعده من المتواتر ج٤/٢٠٥ .

(٦٠٠) النحل/٨٩ . (٦٠١) الانعام/٣٨ .

(٦٠٢) الترمذى .

حديث عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « انى لا أحل الا ما أحل الله تعالى فى كتابه ، ولا أحرم الا ما حرم الله تعالى فى كتابه »(٦٠٣) .

ثانيـا :

النظر الى ما دل عليه الكتاب فى الجملة ، وأنه موجود فى السنة على الكمال زيادة الى ما فيها من البيان والشرح ، وذلك أن القرآن الكريم أتى بالتعريف بمصالح الدارين جلبا لها ، والتعريف بمفاسدها رفعا لها ، وهذه المصالح لا تعدو الثلاثة الاقسام وهى : الضروريات ويلحق بها مكملاتها والحاجيات ويضاف اليها مكملاتها ، والتحسينات ويليها مكملاتها ، واذا نظرنا الى السنة وجدناها لا تزيد على تقرير هذه الامور ، فالكتاب أتى بها أصولا يرجع اليها ، والسنة أتت بها تفريقا على الكتاب وبيانا لما فيه منها فلا تجد فى السنة الا ما هو راجع الى تلك الاقسام .

فالضروريات الخمس كما تأصلت فى الكتاب تفصلت فى السنة ، فان : (**حفظ الدين**) حاصلة فى ثلاثة معان ، وهى الاسلام والايمان والاحسان فأصلها فى الكتاب وبيانها فى السنة ومكملة ثلاثة أشياء وهى: الدعاء اليه بالترغيب والترهيب وجهاد من عاداه أو رام افساده وتلافى النقصان الطارىء فى أصله ، وأصل هذه الكتاب وبيانها فى السنة على الكمال .

(**وحفظ النفس**) حاصله فى ثلاثة معان وهى اقامة أصله بشرعية التناسل وحفظ بقائه بعد خروجه من العدم الى الوجود من جهة المأكل والمشــرب ، وذلك ما يحفظه من داخل ، والملبس والمســكن ، وذلك

---

(٦٠٣) الطبرانى فى الاوسط وروح المعانى للالوسى ج٦/١٩٠ — ١٩١ من المجلد الثانى .

ما يحفظه من خارج ، وجميع هذا مذكور أصله فى القرآن ومبين فى السنة • ومكملة ثلاثة أشياء وذلك حفظه عن وصفه فى حرام كالزنا ، وذلك بأن يكون على النكاح الصحيح ، ويلحق به كل ما هو من متعلقاته كالطلاق والخلع واللعان وغيرها ، وحفظ ما يتغذى به أن يكون مما لا يضر أو يقتل أو يفسد ، واقامة ما لا تقوم هذه الامور الا به من الذبائح والصيد ، وشرعية الحد والقصاص ، ومراعاة العوارض اللاحقة وأشباه ذلك •

وقد دخل (حفظ النسل) فى هذا القسم ، وأصوله فى القرآن والسنة بينتها •

(وحفظ المال) راجع الى مراعاة دخوله فى الاملاك وكتنميته أن لا يفنى ومكملة دفع العوارض ، وتلافى الاصل بالزجر والحد والضمان ، وهو فى القرآن والسنة •

(وحفظ العقل) يتناول ما لا يفسده ، وهو فى القرآن ، ومكملة شرعية الحد أو الزجر ، وليس فى القرآن له أصل على الخصوص ، فلم يكن له فى السنة حكم على الخصوص أيضا ، فيبقى الحكم فيه الى اجتهاد الأمة •

وان ألحق بالضروريات (حفظ العرض) فله فى الكتاب أصل شرحته السنة فى اللعان والقذف •

القسم الثانى : الحاجات وهى كل ما يؤدى فى الدين الى التوسعة ورفع الحرج والمشقة على الناس ، كالرخص المخففة للمرض والسفر •

والعادات كاباحة الصيد ، والتمتع بالطيبات مما هو حلال ، وفى المعاملات كالقراض والسلم ، وفى الجنايات كالحكم باللون ، وضرب الدية على العاملة وتضمين الصناع ، وغير ذلك وتضاف اليها مكملاتها •

القسم الثالث : التحسينات وهى الاخذ بما يليق من محاسن

العادات وتجنب ما من شأنه أنه يدنس النفس ويقذرها ، ويجمع ذلك كل ما يتصل بمكارم الاخلاق .

وهذا المسلك من الشاطبى الذى سلكه فى دفع التعارض بين الآيات يؤكد فيه على شمول القرآن لكل شىء ، وبيانه لكل شىء باعتبار أنه هو أصل تلك المقاصد ، وأن السنة جاءت تفريعا على أصول الكتاب العامة ، لأنها جاءت أيضا لمصالح العباد فى العاجل والآجل فيكون من مجموع الكتاب والسنة الشريفة ، وان كان الذى أصل أصولها القرآن الكريم الا أن السنة أسهمت فى توضيح تلك المقاصد ، اذ جاءت تفريعا على المقاصد فى الكتاب الكريم[٦٠٤] .

٣٠ — قال الله تعالى (وفى السماء رزقكم وما توعدون فورب السماء والأرض أنه لحق مثل ما أنكم تنطقون)[٦٠٥] مع قوله (وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف)[٦٠٦] .

وأجيب عن ذلك بأن اسناد الرزق الى الله فى الآية الاولى باعتبار الخلق والايجاد فى الحقيقة ، وفى الثانية باعتبار الكسب والمباشرة وليس فى المباشرة ايجاد للرزق ، قال الله تعالى (ولا تقتلوا أولادكم من املاق نحن نرزقكم واياهم)[٦٠٧] . وقال (ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق نحن نرزقهم واياكم)[٦٠٨] .

ومن لطائف الاشارات فى الآيتين التوجيه بالخطاب اليهم فى الآية الاولى (نرزقكم) فى حالة وجود الفقر بالفعل وقتلهم الاولاد هروبا منه ، ومواجهة له ، أما فى الآية الثانية فلما كان الفقر متوقعا ، لأن الخشية من المكروه عن امارة معلومة ذكر رزقه للأولاد أولا فقال

---

(٦٠٤) الموافقات فى أصول الشريعة للشاطبى ج٤/٢٨ — ٢٩ .

(٦٠٥) الذاريات/٢٢ — ٢٣ .
(٦٠٦) البقرة/٢٣٣ .

(٦٠٧) الاسراء/٣١ .
(٦٠٨) الانعام/١٥١ .

(نرزقهم واياكم) أى اذا كنتم تقتلونهم من فقر موجود فلا تفعلوا فاننا الذين قدرنا عليكم رزقكم ولن يغنيكم قتلهم ، واذا كنتم تمنعون نسلكم أو تجهضون نساءكم خشية الفقر بمجيئهم فنحن الذين نرزقهم لا أنتم فلا تفعلوا ، وقد عبر عن هذا الفهم المستقيم أحد الشعراء بقوله :

وما كان الغنى الا يسيرا   لو أن الرزق يبلغه اجتهادى

لكن كثيرا ممن تؤرقهم زيادة النسل لا يفهمون هذا أو يفهمون ويتجاهلون لخفة ايمانهم[٦٠٩] .

٣١ — قوله تعالى (ادعونى أستجب لكم) وقال فى هذه الآية : (أجيب دعوة الداع اذا دعان)[٦١٠] وكذلك قوله (أمن يجيب المضطر اذا دعاه)[٦١١] ثم ان نرى الداعى يبالغ فى الدعاء والتضرع ولا يجاب.

وأجيب عن ذلك بأن هذه الآية ، وان كانت مطلقة الا أنه وردت آية أخرى مقيدة ، وهى قوله تعالى (بل اياه تدعون فيكشف ما تدعون اليه ان شاء)[٦١٢] ولاشك أن المطلق محمول على المقيد . ثم تقرير المعنى فيه وجوه :

أحدها : أن الداعى لابد وأن يجد من دعائه عوضا اما اسعافا بطلبته التى لأجلها دعا وذلك اذا وافق القضاء ، فاذا لم يساعده القضاء فانه يعطى سكينته فى نفسه ، وانشراحا فى صدره ، وصبرا يسهل معه احتمال البلاء الحاضر ، وعلى كل حال فلا يعدم فائدة ، وهو نوع من الاستجابة .

وثانيها : ما روى عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ « دعوة المسلم لا ترد لاحدى ثلاث : ما لم يدع باثم أو قطيعة رحم ،

---

(٦٠٩) المفردات للراغب ١٤٩ .
(٦١٠) البقرة/١٨٦ .
(٦١١) النمل/٦٢ .
(٦١٢) الانعام/٤١ .

اما أن يعجل له فى الدنيا ، واما أن يدخر له فى الآخرة ، واما أن يصرف عنه من السوء بقدر ما دعا » .

وهذا خبر تمام البيان فى الكشف عن هذا السؤال ، لأنه تعالى قال : (ادعونى أستجب لكم) ولم يقل : أستجب لكم فى الحلال ، فاذا استجاب له ولو فى الآخرة كان الوعد صدقا .

وروى عن أبى هريرة رضى الله عنـــه عن النبى ﷺ أنه قال : « لايزال يستجاب للعبد ما لم يدع باثم أو قطيعة رحم ما لم يستعجل » قيل يارسول الله ، ما الاستعجال ؟ قال : « يقول قد دعوت وقد دعوت فلم أر يستجيب لى فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء »(٦١٣) .

وفى لفظ أن رسول الله ﷺ قال : « يستجاب لأحدكم ما لم يعجل يقول دعوت فلم يستجب لى »(٦١٤) .

قال العلماء : يحتمل قوله « يستجاب لأحدكم الاخبار عن وجوب وقوع الاجابة والاخبار عن جواز وقوعها ، فاذا كان بمعنى الاخبار عن الوجوب والوقوع فان الاجابة تكون بمعنى الثلاثة الاشياء المتقدمة ، فاذا قال : دعوت فلم يستجب لى ، بطل وقوع أحد هذه الثلاثة الاشياء وعرى الدعاء من جميعها .

وان كان بمعنى جواز الاجابة ، فان الاجابة حينئذ تكون بفعل ما دعا به خاصة ، ويمنع من ذلك قول الداعى : قد دعوت فلم يستجب لى ، لأن ذلك باب القنوط ، وضعف اليقين والسخط(٦١٥) .

---

(٦١٣) أخرجه البخارى فى الدعوات ، باب يستجاب للعبد ما لم يعجل جـ١١/١١٩ ومسلم فى الذكر والدعاء ، باب استحباب حمد الله تعالى بعد الاكل والشرب رقم ٢٧٣٥ ، والموطأ فى القرآن باب ما جاء فى الدعاء جـ١/٢١٣ والترمذى فى الدعوات باب رقم ١٤٥ وأبو داود فى الصلاة ، باب الدعاء رقم ١٤٨٤ .

(٦١٤) البخارى ومسلم وأبو داود .

(٦١٥) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ٢/٣١٠ — ٣١١ .

وثالثها : أن قوله (ادعونى أستجب لكم) يقتضى أن يكون الداعى عارفا بربه والا لم يكن داعيا له ، بل لشىء متخيل لا وجود له البتة ، فثبت أن شرط الداعى أن يكون عارفا بربه ومن صفات الرب سبحانه أن لا يفعل الا ما وافق قضاءه وقدره وعلمه وحكمته فاذا علم أن صفة الرب هكذا استحال منه أن يقول بقلبه وبعقله : يارب افعل الفعل الفلانى لا محالة ، بل لابد وأن يقول : افعل هذا الفعل ان كان موافقا لقضائك وقدرك وحكمتك ، وعند هذا يصير الدعاء الذى دلت الآية على ترتيب الاجابة عليه مشروطا بهذه الشرائط ، وعلى هذا التقدير زال السؤال الرابع أن لفظ الدعاء والاجابة يحتمل وجوها كثيرة :

(أ) أن يكون الدعاء عبارة عن التوحيد والثناء على الله كقول العبد : يا الله الذى لا اله الا أنت ، وهذا انما سمى دعاء ، لأنك عرفت الله تعالى ثم وحدته وأثنيت عليه ، فهذا يسمى دعاء بهذا التأويل ولما سمى هذا المعنى دعاء سمى قبوله اجابة لتجانس اللفظ ومثله كثير .

وقال ابن الانبارى : (أجيب) هنا بمعنى أسمع ، لأن بين السماع وبين الاجابة نوع ملازمة ، فلهذا السبب يقام كل واحد منهما مقام الآخر : فقولنا : سمع الله لمن حمده ، أى أجاب الله ، فكذا هاهنا قوله: (أجيب دعوة الداع) أى أسمع تلك الدعوة ، فاذا حملنا قوله تعالى (ادعونى أستجب لكم) على هذا الوجه زال الاشكال .

(ب) أن يكون المراد من الدعاء التوبة عن الذنوب ، وذلك لأن التائب يدعو الله تعالى عند التوبة ، واجابة الدعاء بهذا التفسير عبارة عن قبول التوبة ، وعلى هذا الوجه زال الاشكال .

(جـ) أن يكون المراد من الدعاء العبادة ، قال ﷺ : « الدعاء هو العبادة »[٦١٦] . ومما يدل عليه قوله تعالى : (وقال ربكم ادعونى

---

(٦١٦) أخرجه : الترمذى فى التفسير ، باب ومن سورة البقرة ٢٩٧٣

=

أستجب لكــم ان الذين يستكبرون عن عبــادتى سيدخلون جهنــم داخرين)[٦١٧] • فظهر أن الدعاء هاهنا هو العبادة ، واذا ثبت هذا فاجابة الله تعالى للدعاء بهذا التفسير عبارة عن الوفاء بما ضمن للمطيعين من الثواب ، كما قال (ويستجيب الذين آمنوا وعمــلوا الصالحات ويزيدهم من فضله)[٦١٨] وعلى هذا الوجه زال الاشكال •

(د) أن يفسر الدعاء بطلب العبــد من ربه حوائجه ، فالسؤال المذكور أن كان متوجها على هذا التفسير لم يكن متوجها على التفسيرات الثلاثة المتقدمة ، فثبت أن الاشكال زائل[٦١٩] •

٣٢ ــ قوله تعالى (وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا ان نصر الله قريب)[٦٢٠] •

فى الآية اشكال وهو أنه كيف يليق بالرسول القاطع بصحة وعد الله ووعيده أن يقول على سبيل الاستبعاد (متى نصر الله) ؟ •

والجواب عنه من وجوه :

أحدها : أن كونه رسولا لا يمنع من أن يتأذى من كيد الاعداء ، قال تعالى (ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون)[٦٢١] وقال تعالى (لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين)[٦٢٢] وقال (حتى اذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجى)[٦٢٣] وعلى هذا فاذا ضاق قلبه وقلت حيلته ، وكان قد سمع من الله تعالى أنه ينصره

=

وفى تفسير سورة المؤمنين ٣٢٤٤ وأبو داود فى الصلاة باب الدعاء ١٤٧٩ ابن ماجه فى الدعاء باب فضل الدعاء رقم ٣٨٢٨ .

(٦١٧) غافر/٦٠ . (٦١٨) الشورى/٢٦ .

(٦١٩) التفسير الكبير للرازى جـ ٥/١٠٨ من المجلد الثالث .

(٦٢٠) البقرة/٢١٤ . (٦٢١) الحجر/٩٧ .

(٦٢٢) الشعراء/٣ . (٦٢٣) يوسف/١١٠ .

الا أنه ما عين له الوقت فى ذلك ، قال عند ضيق قلبه (متى نصر الله) حتى انه ان علم قرب الوقت زال همه وغمه وطاب قلبه ، والذى يدل على صحة ذلك أن كان واقعا عن القرب ، ولو كان السؤال وقع عن أنه هل يوجد النصر أم لا ؟ لما كان هذا الجواب مطابقا لذلك السؤال ، وهذا هو الجواب المعتمد .

والثانى : أنه تعالى أخبر عن الرسول والذين آمنوا أنهم قالوا قولا ، ثم ذكر كلامين : أحدهما : (متى نصر الله) والثانى : (ألا ان نصر الله قريب) فوجب اسناد كل واحد من هذين الكلامين الى واحد من ذنيك المذكورين : فالذين آمنوا قالوا (متى نصر الله) ، والرسول ﷺ قال (ألا ان نصر الله قريب) قالوا ولهذا نظير من القرآن والشعر ، أما القرآن فقوله تعالى (ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله)[٦٢٤] والمعنى لتسكنوا فى الليل ولتبتغوا من فضله فى النهار ، وأما من الشعر فقول امرىء القيس :

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا   لدى وكرها العناب والحشف البالى

فالتشبيه بالعناب للرطب وبالحشف البالى اليابس ، قال الرازى : هذا جواب ذكره قوم ، وهو متكلف جدا[٦٢٥] .

٣٣ ـ قوله تعالى (نودى أن بورك من فى النار ومن حولها)[٦٢٦] مع قوله عز وجل (انى أنا الله رب العالمين)[٦٢٧] ومع قوله تبارك وتعالى : (نودى يا موسى انى أنا ربك)[٦٢٨] .

وأجيب عن ذلك بأنه لا منافاة بين هذه الاشياء ، لأن الله تعالى

---

(٦٢٤) القصص/٧٣ .
(٦٢٥) التفسير الكبير ج٦/٢١ ــ ٢٢ من المجلد الثالث .
(٦٢٦) النمل/٨ .   (٦٢٧) القصص/٣٢ .
(٦٢٨) طه/١١ ــ ١٢ .

ذكر الكل ، الا أنه حكى فى كل سورة بعض مما اشتمل عليه النداء[٦٢٩] .

٣٤ ــ قوله تعالى (فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة)[٦٣٠] مع قوله (ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم)[٦٣١] .

فالاولى تفهم امكان العدل والثانية تنفيه .

والجواب أن الاولى فى توفية الحقوق ، والثانية فى الميل القلبى وليس فى قدرة الانسان .

٣٥ ــ (ان الله لا يأمر بالفحشاء)[٦٣٢] مع قوله (أمرنا مترفيها ففسقوا فيها)[٦٣٣] فالاول فى الامر الشرعى والثانية فى الامر الكونى بمعنى القضاء والتقدير وقد سأل نافع ابن الازرق ابن عباس عن قوله (آمرنا مترفيها) فعلل : سلطنا واستشهد بقول لبيد :

ان يغبطوا يهبطوا وان أمروا يوما يصيروا للهلك والنكد

وبحق فان تفسيرها (بالتسليط واضح القرب من معنى الآمر لما فى الترق من ذريعة وفساد)[٦٣٤] .

٣٦ ــ قوله تعالى (الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله)[٦٣٥] مع قوله عز وجل : (الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم)[٦٣٦] فقد يظن أن الوجل خلاف الطمأنينة .

وجوابه من وجوه :

---

(٦٢٩) التفسير الكبير للرازى ج٢٤/٢٤٥ من المجلد الثانى عشر .

(٦٣٠) النساء/٣ .
(٦٣١) النساء/١٢٩ .

(٦٣٢) الاعراف/٢٨ .
(٦٣٣) الاسراء/١٦ .

(٦٣٤) الاعجاز البيانى ومسائل ابن الازرق ص٤١٢ .

(٦٣٥) الرعد/٢٨ .
(٦٣٦) الانفال/٢ .

الاول : أنهم اذا ذكروا العقوبات ولم يأمنوا من أن يقدموا على المعاصى فوصفهم بالوجل (الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم) . واذا ذكروا وعده بالثواب والرحمة سكنت قلوبهم الى ذلك ، وأحد الامرين لا ينافى الآخر ، لأن الوجل هو بذكر العقاب والطمأنينة بذكر الثواب ويوجد الوجل فى حال فكرهم من المعاصى ، وتوجد الطمأنينة عند اشتغالهم بالطاعات .

الثانى : أن المراد علمهم بكون القرآن معجزا يوجب حصول الطمأنينة لهم فى كون محمد ﷺ نبيا حقا من عند الله ، أما شكهم فى أنهم أتوا بالطاعات على سبيل التمام والكمال فيوجب حصول الوجل فى قلوبهم .

الثالث: انه حصلت فى قلوبهم الطمأنينة فى أن الله تعالى صادق فى وعده ووعيده ، وأن محمدا ﷺ صادق فى كل ما أخبر عنه ، الا أنه حصل الوجل والخوف فى قلوبهم أنهم هل أتوا بالطاعة الموجبة للثواب أم لا ، وهل احترزوا عن المعصية الموجبة للعقاب أم لا[٦٣٧] ؟ .

والذى نخلص اليه أن الطمأنينة تكون بانشراح الصدر بمعرفة التوحيد ، والوجل يكون عند خوف الزيغ والذهاب عن الهدى ، فتوجل القلوب لذلك ، فقد جمع بينهما فى قوله عز شأنه (تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله)[٦٣٨] .

٣٧ ــ قوله تعالى (وأوتيت من كل شىء)[٦٣٩] مع قول سليمان عليه السلام : (وأوتينا من كل شىء)[٦٤٠] فكأن الهدهد سوى بينهما .

وأجيب عن ذلك بأن قول سليمان عليه السلام يرجع الى ما أوتى

---

(٦٣٧) التفسير الكبير للرازى جـ١٩/٥٠ من المجلد العاشر .

(٦٣٨) الزمر/٢٣ والاتقان جـ٣/٩٤ ــ ٩٥ والبرهان جـ٢/٥٤ ــ ٦٠ .

(٦٣٩) النمل/٢٣ . (٦٤٠) النمل/١٦ .

من النبوة والحكمة ، ثم الى الملك وأسباب الدنيا ، وأما قول الهدهد فلم يكن الا ما يتعلق بالدنيا(٦٤١) .

٣٨ — قوله جل ثناؤه (ولها عرش عظيم)(٦٤٢) مع قوله عز وجل (الله لا اله الا هو رب العـرش العظيم)(٦٤٣) وقوله (قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم)(٦٤٤) .

وآجيب بأنه لا تناقض بين وصف عرش بلقيس ، وعرش الله تعالى بالعظيم ، لأن وصف عرشها بالعظيم تعظيم له بالاضافة الى عروش أبناء جنسها من الملوك ، ووصف عرش الله بالعظيم تعظيـم له بالنسبة الى سائر ما خلق من السموات والارض(٦٤٥) .

٣٩ — وأما قوله تعالى (وما منعنا أن نرسل بالآيات)(٦٤٦) مع قوله : (سنريهم آياتنا فى الآفاق)(٦٤٧) واخباره عن آيات الرسل .

فالمراد أن يرسل بالآيات المهلكات (الا أن كذب بها الأولون) وليس حكمها أن يرسل بها على أمة محمد ﷺ ، ويكون أراد وما منعنا أن نرسل بالآيات التى اقترحها اليهود ، وغيرهم الا أننا حكمنا أنا أرسلنا بهـا وكذبت فعجلنا العقوبة .

ويحتمل أن يكون اسقاط الا وجعلها زائدة ، فكأنه قال : انا نرسل بالآيات وان كذب فيما سلف ، ومنه قول الشاعر :

وكل أخ مفـــارقه أخـوه ... لعمـر أبيك الا الفـرقدان

أى والفرقدان ، فأدخلت الا زائدة(٦٤٨) .

---

(٦٤١) التفسير الكبير ٢٤/١٩٠ .

(٦٤٢) النمل/٢٣ . (٦٤٣) النمل/٢٦ .

(٦٤٤) المؤمنون/٨٦ .

(٦٤٥) التفسير الكبير للرازى ج٢٤/١٩٠ .

(٦٤٦) الاسراء/٥٩ . (٦٤٧) فصلت/٥٣ .

(٦٤٨) نكت الانتصار لنقل القرآن ص١٥٧ — ١٥٨ .

٤٠ — قوله تعالى ذكره (يوم نحشر المتقين الى الرحمن وفدا)[٦٤٩] .

طعن الملحد فيه فقال : انما يستقيم هذا أن لو كان الحاشر غير الرحمن أما اذا كان الحاشر هو الرحمن ، فهذا الكلام لا ينتظم .

وأجيب عن ذلك بأن التقدير : يوم نحشر المتقين الى كرامة الرحمن[٦٥٠] .

٤١ — وأما قوله جل ثناؤه (ان الله لا يغفر أن يشرك به)[٦٥١] مع قوله سبحانه (ان الله يغفر الذنوب جميعا)[٦٥٢] فان كل ذنب كائنا ما كان ماعدا الشرك بالله مغفور لمن شاء الله أن يغفر له .

على أنه يمكن أن يقول : ان اخباره لنا بأنه يغفر الذنوب جميعا يدل على أنه يشاء غفرانها جميعا ، وذلك يستلزم أنه يشاء المغفرة لكل المذنبين من المسلمين فلم يبق بين الآيتين تعارض من هذه الحيثية .

وأما ما يزعمه جماعة من المفسرين من تقييد هذه الآية بالتوبة وأنها لا تغفر الا ذنوب التائبين وزعموا أنهم قالوا ذلك للجمع بين الآيات فهو جمع بين الضب والنون ، وبين الملاح والحادى ، وعلى نفسها براقش تجنى ، ولو كانت هذه البشارة مقيدة بالتوبة لم يكن لها كثير موقع ، فان التوبة من المشرك يغفر الله له بها ما فعله من الشرك باجماع المسلمين وقد قال الله تعالى (ان الله لا يغفر أن يشرك به

---

(٦٤٩) مريم/٨٥ .
(٦٥٠) التفسير الكبير للرازى جـ٢١/٢٥٣ من المجلد الحادى عشر .
(٦٥١) النساء/٤٨ .
(٦٥٢) الزمر/٥٣ .

ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء)(٦٥٣) فلو كانت التوبة قيدا فى المغفرة لم يكن للتنصيص على الشرك فائدة ، وقد قال الله سبحانه (وان ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم)(٦٥٤) .

قال الواحدى : المفسرون كلهم قالوا : ان هذه الآية فى قوم خافوا ان أسلموا أن لا يغفر لهم ما جنوا من الذنوب العظام كالشرك وقتل النفس ومعاداة النبى ﷺ .

عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كان قوم من المشركين قتلوا فأكثروا ، وزنوا فأكثروا ، فقالوا للنبى ﷺ أو بعثوا اليه : ان ما تدعو اليه لحسن أو تخبرنا أن لنا توبة ؟ فأنزل الله عز وجل هذه الآية : (قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا انه هو الغفور الرحيم)(٦٥٥) .

وعن ابن عباس أيضا نزلت فى أهل مكة قالوا : يزعم محمد أن من عبد الاوثان وقتل النفس التى حرم الله لم يغفر له ، وكيف نهاجر ونسلم وقد عبدنا مع الله الها آخر وقتلنا النفس التى حرم الله . فأنزل الله هذه الآية(٦٥٦) .

وقال ابن عباس أيضا وعطاء أنزلت فى وحشى قاتل حمزة ، لأنه ظن أن الله لا يقبل اسلامه ، وروى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال : أتى وحشى الى النبى ﷺ ، فقال : يامحمد أتيتك مستجيرا فأجرنى

---

(٦٥٣) النساء/٤٨ .
(٦٥٤) الرعد/٦ .

(٦٥٥) أخرجه النسائى فى تحريم الدم ، باب تعظيم الدم ج٧/٨٦ ، وهو بمعناه فى البخارى ج٨/٤٢٢ فى تفسير سورة الزمر باب قوله (ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله) الزمر/٥٣ ، ومسلم فى الايمان باب كون الاسلام يهدم ما قبله رقم ١٢٢ والحاكم ج٢/٤٠٣ ووافقه الذهبى وصححه .

(٦٥٦) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ج ١٥/٢٦٨ .

حتى أسمع كلام الله • فقال رسول الله ﷺ : « قد كنت أحب أن أراك على غير جوار ، فأما اذا أتيتني مستجيرا فأنت فى جوارى حتى تسمع كلام الله » • قال : فانى أشركت بالله وقتلت النفس التى حرم الله وزنيت هل يقبل الله منى توبة ؟ فصمت رسول الله ﷺ حتى نزلت : (والذين لا يدعون مع الله الها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله الا بالحق ولا يزنون •• الى آخر الآية)[657] • فتلاها عليه ، فقال أرى شرطا فلعلى لا أعمل صالحا ، أنا فى جوارك حتى أسمع كلام الله ، فنزلت : (ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء)[658] فدعا به فتلا عليه ، قال : فلعلى ممن لا يشاء أنا فى جوارك حتى أسمع كلام الله ، فنزلت (ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله) فقال : نعم الآن لا أرى شرطا • فأسلم •

قال الشوكانى : هب أنها فى هؤلاء القوم ، فكان ماذا ؟ فان الاعتبار بما اشتملت عليه من العموم لا بخصوص السبب ، كما هو متفق عليه بين أهل العلم ولو كانت الآيات القرآنية والاحاديث النبوية مقيدة بأسبابها غير متجاوزة لها لارتفعت أكثر التكاليف عن الامة ان لم ترتفع كلها ، واللازم باطل بالاجماع فالملزوم مثله[659] •

٤٢ ــ وأما قوله تعالى ذكره (ان الذين كفروا بعد ايمانهم ثم ازدادوا كفرا لن تقبل توبتهم)[660] مع قوله جل ثناؤه (وهو الذى يقبل التوبة عن عباده)[661] فانه يحتمل أن يكون أراد به التوبة الاولى من الكفر الاول أى أنها لا تنفعهم مع عودهم الى ما تابوا منه أو يكون أراد لا تقبل توبتهم الظاهرة التى وقعت على وجه النفاق •

---

(٦٥٧) الفرقان/٦٨ •

(٦٥٨) النساء/٤٨ •

(٦٥٩) فتح القدير للشوكانى ج٤/ ٤٧٠ •

(٦٦٠) آل عمران/ ٩٠ •

(٦٦١) الشورى/٢٥ •

وقيل : ان الآية نزلت فى الذين قالوا : نتربص بالنبى ﷺ ريب المنون من أهل مكة ، لأنه قالوا ان غلب ذهبنا اليه وتبنا ، فأخبر الله تعالى أنه لا يقبل توبتهم هذه التى لم تخلص(٦٦٢) .

٤٣ — وأما قوله تعالى (رب اجعل هذا بلدا آمنا)(٦٦٣) مع قوله جل ثناؤه (رب اجعل هذا البلد آمنا)(٦٦٤) ، فانه فى الدعوة الاولى كان مكانا قفرا ، فطلب منه أن يجعله بلدا آمنا ، وفى الدعوة الثانية كان بلدا غير آمن فعرفه وطلب له الامن ، أو كان بلدا آمنا فطلب له اثبات الامن ودوامه ، وكون هذه السورة مدنية ، وسورة ابراهيم مكية لا ينافى هذا ، لأن الواقع من ابراهيم — عليه السلام — بلغته على الترتيب الذى قلنا ، والاخبار عنه فى القرآن على غير ذلك الترتيب . أو أن المكى منه ما نزل قبل الهجرة ، فيكون المدنى متأخرا عنه ، ومنه ما نزل بعد فتح مكة فيكون متأخرا عن المدنى ، فلم قلتم : ان سورة ابراهيم عليه السلام من المكى الذى نزل قبل الهجرة(٦٦٥) .

يقول الكرمانى : ان (هذا) فى سورة البقرة اشارة الى المذكور فى قوله (بواد غير ذى زرع) قبل بناء الكعبة ، وفى ابراهيم اشارة الى البلد ، بعد الكعبة فيكون (بلدا) فى سورة البقرة المفعول الثانى ، وأمنا صفته ، (وهذا البلد) فى ابراهيم المفعول الاول ، و (أمنا) المفعول الثانى)(٦٦٦) .

٤٤ — وأما قوله تعالى (فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم)(٦٦٧) مع قوله جل ثناؤه (لا يذوقون فيها الموت الا الموتة الاولى)(٦٦٨) فان المراد بالآية الاولى : اماتة العقوبة مع بقاء الاجل .

---

(٦٦٢) نكت الانتصار لنقل القرآن ص١٥١ .
(٦٦٣) البقرة/١٢٦ . (٦٦٤) ابراهيم/٣٥ .
(٦٦٥) الانموذج الجليل فى أسئلة وأجوبة من غرائب التنزيل ص١٧ .
(٦٦٦) البرهان فى توجيه متشابه القرآن للكرمانى ص٣٤ .
(٦٦٧) البقرة/٢٤٣ . (٦٦٨) الدخان/٥٦ .

وبالآية الثانية : الاماتة بانتهاء الاجل ، نظيره قوله تعالى فى قصة موسى عليه السلام (ثم بعثناكم من بعد موتكم)[٦٦٩] لأنها كانت اماتة عقوبة أو كان احياؤهم آية لنبيهم على نحو ما ورد فى قصتهم ، فصار كاحياء العزيز حين مر على قرية ، وآيات الانبياء نوادر مستثناة ، فكأن المراد بالآية الثانية : الموتة التى ليست بسبب آية نبى من الانبياء أو احياء قوم موسى آية له أيضا ، فكان هذا جوابا عاما ، مع أن فى أصل السؤال نظرا ، لأن الضمير فى قوله (لا يذوقون) للمتقين ، وقوله (فذيها) للجنات[٦٧٠] .

٤٥ — والجواب عن ذلك أن (من) بمعنى (أعطى) ، ومنه المنان فى صفات الله تعالى ، وقوله (فامنن أو أمسك)[٦٧١] وقوله (لقد من الله على المؤمنين)[٦٧٢] أى أنعم عليهم ، وقوله عز وجل (فاما منا بعد)[٦٧٣] أى انعاما بالاطلاق من غير عوض .

و (من) بمعنى اعتد بالنعمة وذكرها واستعظمها وهو المذموم .

ونوقش ذلك بأن قوله تعالى (بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان)[٦٧٤] من القسم الثانى .

وأجيب عن ذلك بأن هذا اعتداد بنعمة الايمان ، فلا يكون قبيحا ، بخلاف نعمة المال . ولأنه يجوز أن يكون فى صفات الله تعالى ما هو منع فى حقه ذم فى حق العبد كالجبار والمتكبر والمنتقم ونحو ذلك[٦٧٥].

٤٦ — وأما قوله تعالى (لا يسألون الناس الحافا)[٦٧٦] فانه يدل بمفهومه على أنهم كانوا يسألون الناس برفق ، وقال قبله (يحسبهم

---

(٦٦٩) البقرة/٥٦ .

(٦٧٠) الانموذج الجليل ص٢٩

(٦٧١) ص/٣٩ .

(٦٧٢) آل عمران/١٦٤ .

(٦٧٣) محمد/٤ .

(٦٧٤) الحجرات/١٧ .

(٦٧٥) الانموذج الجليل ص٣٤

(٦٧٦) البقرة/٢٧٣ .

الجاهل أغنياء من التعفف) ، لأن المراد به نفى السؤال والالحاف جميعا، كقوله تعالى (لا ذلول تثير الأرض)[٦٧٧] وكقول الاعشى :

لا يفخـــر الساق من أين ولا وصب

معناه ليس بساقه أين ولا وصب فنمزها[٦٧٨] .

٤٧ ـ قوله تعالى (نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والانجيل)[٦٧٩] .

قال الطاعن كيف قال (نزل عليك الكتاب بالحق) ثم قال (وأنزل التوراة والانجيل) .

والجواب عن ذلك أن الله عز وجل قال (نزل عليك الكتاب) وقال (وأنزل التوراة والانجيل ، لأن القرآن نزل منجما ، ونزل الكتابان جملة واحدة[٦٨٠] .

قال ابن المنير : ان (فعل) صيغة مبالغة وتكثير ، فلما كان نزول القرآن منجما كان أكثر تنزيلا من غيره لتفرقه فى مرار عديدة ، فعبر عنه بصيغة مطابقة لكثرة تنزيلاته ، وعبر عن الكتابين بصيغة خلية عن المبالغة والتكثير[٦٨١].

ويرد عليه قوله تعـــالى بعد ذلك (وأنزل الفـــرقان)[٦٨٢] فان الزمخشرى قال : أراد به جنس الكتب السماوية لا الثـــلاثة المذكورة خصوصا ، أو أراد به الزبور ، أو أراد به القرآن وكرر ذكره تعظيما .

ويرد عليه أيضا قوله تعالى بعد ذلك (هو الذى نزل عليك الكتاب منه آيات محكمات)[٦٨٣] .

---

(٦٧٧) البقرة/٧١ .
(٦٧٨) الانموذج الجليل ص ٣٥
(٦٧٩) آل عمران/٣ .
(٦٨٠) الكشاف جا/٤١١ .
(٦٨١) الانصاف جا/٤١١ .
(٦٨٢) آل عمران/٤ .
(٦٨٣) آل عمران/٧ .

وقوله تعالى (والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك)[٦٨٤] وقوله تعالى : (وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة)[٦٨٥] .

وقال الالوسى : التعبير بـ (أنزل) فيهما ـ التوراة والانجيل ـ للاشارة الى أنه لم يكن لهما الا نزول واحد ، وهذا بخلاف القرآن فان له نزولين : نزول من اللوح المحفوظ الى بيت العزة من سماء الدنيا وجملة واحدة ، ونزول من ذلك اليه ﷺ منجما فى ثلاث وعشرين سنة على المشهور ، ولهذا يقال فيه : نزل وأنزل ، وهذا أولى مما قيل ان ـ نزل ـ يقتضى التدريج ، وأنزل يقتضى الانزال الدفعى ، اذ يشكل عليه قوله تعالى (لولا نزل عليه القرآن جملة)[٦٨٦] حيث قرن (نزل) بكونه جملة ، وقوله عز وجل (وقد نزل عليكم فى الكتاب)[٦٨٧] .

وذكر بعض المحققين لهذا المقام أن التدريج ليس هو التكثير بل الفعل شيئا فشيئا كما فى تسلسل ، والالفاظ لابد فيها من ذلك ، فصيغة (نزل) تدل عليه ، والانزال مطلق لكنه اذا قامت القرينة يراد بالتدريج التنجيم ، وبالانزال الذى قد قوبل به خلافه ، أو المطلق بحسب ما يقتضيه المقام[٦٨٨] .

والذى يبدو لى أن التضعيف فى (نزل) والهمزة فى (أنزل) كلاهما للتعدية لأن نزل فعل لازم فى نفسه ، واذا كانا للتعدية لا يكونا لمعنى آخر ، وهو التكثير أو نحوه ، لأنه لا نظير له ، وانما جمع بينهما والمعنى واحد وهو التعدية جريا على عادة العرب فى اقتضابهم فى الكلام وتصرفهم فيه على وجوه شتى ، ويؤيد هذا قوله تعالى (لولا نزل عليه

---

(٦٨٤) البقرة/٤ . (٦٨٥) الفرقان/٣٢ .

(٦٨٦) الفرقان/٣٢ . (٦٨٧) النساء/١٤٠ .

(٦٨٨) روح المعانى للالوسى جـ٣/٧٦ من المجلد الاول .

فانه يفيد أن المواعدة كانت من أول الامر على الاربعين ، وقوله عز وجل (وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر)[721] يفيد أن المواعدة كانت فى أول الامر على الثلاثين ، فكيف التوفيق بينهما ؟ .

وأجاب الحسن البصرى فقال : ليس المراد أن وعده كان ثلاثين ليلة ، ثم بعد ذلك وعده بعشر ، لكنه وعده أربعين ليلة جميعا . وهو كقوله جل ثناؤه : (ثلاثة أيام فى الحج وسبعة اذا رجعتم تلك عشرة كاملة)[722] ، [723] .

وقيل : تجرى آية الاعراف على ظاهره من أن الوعد كان ثلاثين ، ثم أتم بالعشر ، فاستقرت الاربعون ، ثم أخبر فى آية البقـــرة بما استقر[724] .

٥٢ ــ وأما قوله تعالى (لا أقسم بهذا البلد)[725] فانه أخبر أنه لا يقسم بهذا ، ثم أقسم به فى قوله جل ثناؤه (وهذا البلد الأمين)[726] .

وقد أجيب عنه بما يأتى :

ــ أن (لا) صلة ، وجاز وقوعها فى أول السورة ، لأن القـــرآن متصل بعضه ببعض ، فهو فى حكم كلام واحد ، ولهذا قد يذكر الشيء

---

* والاربعون فى قول أكثر المفسرين : ذو القعدة وعشرين من ذى الحجة، وعلى هذا فليس المراد انقضاء أى أربعين كان ، بل أربعين معينا ، وهو الثلاثون من ذى القعدة ، والعشر الاول من ذى الحجة ، لأن موسى عليه السلام كان عالما بأن المراد هو هذه الاربعون . (ينظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ١/٣٩٦ والتفسير الكبير للرازى جـ٣/٧٩) .

(٧٢١) الاعراف/١٤٢ .
(٧٢٢) البقرة/١٩٦ .
(٧٢٣) التفسير الكبير للرازى جـ٣/٧٩ .
(٧٢٤) البرهان فى علوم القرآن للزركشى جـ٢/٤٥ .
(٧٢٥) البلد/١ .
(٧٢٦) التين/٣ .

فى سورة ، ويجىء جوابه فى سورة أخرى ، كقوله تعـالى (وقالوا يأيها الذى نزل عليه الذكر انك لمجنون)[٧٢٧] وجوابه فى سورة أخرى (ما أنت بنعمة ربك بمجنون)[٧٢٨] . ومن الكلام أقسم بيوم القيامة قاله ابن عباس وابن جبير وأبو عبيدة ومثله قول الشاعر :

تذكرت ليـلى فاعترتنى صبابة   فكاثر صميم القـلب لا ينقطع

ــ ويجوز أن تكون (لا) زائدة ، أى أقسم ، لأنه قال : (بهذا البلد) وقد أقسم به فى قوله (وهذا البلد الأمين)[٧٢٩] ، فكيف يجحد القسم به وقد أقسم به[٧٣٠] .

قال بعض العلماء : (لا) زيادة فى الكلام للزينة ، ويجرى فى كلام العرب زيادة (لا) كما قال فى آية أخرى (قال ما منعك أن لا تسجد)[٧٣١] يعنى أن تسجد[٧٣٢] بدليـل قوله فى سـورة أخرى (ما منعك أن تسجد)[٧٣٣] .

ــ وقيل : ليست بنفى القسم ، وانما هو كقول العرب : لا والله لا فعلت كذا ولا والله ما كان كذا ، ولا والله لأفعلن كذا .

ــ وقيل هى نفى صحيح ، والمعنى : لا أقسم بهذا البلد اذا لم نكن فيه بعد خروجك منه ، رواه ابن أبى نجيح عن مجاهد قال : (لا) رد عليهم وهذا اختيار ابن العربى ، لأنه قال (وأما من قال انها رد ، فهو قول ليس له رد ، لأنه يصح به المعنى ، ويتمكن اللفظ والمراد . فهو رد لكلام من أنكر البعث ، ثم ابتدأ القسم) .

---

(٧٢٧) الحجر/٦ .   (٧٢٨) القلم/٢ .

(٧٢٩) التين/٣ .

(٧٣٠) الجامع لأحكام القرآن ج ٢٠/٥٩ .

(٧٣١) الاعراف/١٢ .

(٧٣٢) الجامع لأحكام القرآن ج١٩/٩١ .

(٧٣٣) ص/٧٥ .

وقال القشيري : قوله (لا) رد لما توهم الانسان المذكور في هذه السورة ، المغرور بالدنيا ، أي ليس الامر كما يحسبه ، من أنه لن يقدر عليه أحد ، ثم ابتدأ القسم[٧٣٤] .

٥٣ ـ وأما قوله تعالى ذكره (عذاب النار الذى كنتم به تكذبون)[٧٣٥] بلفظ (الذى) على وصف العذاب ، وفي سبأ (عذاب النار التى)[٧٣٦] بلفظ التى على وصف النار ، فان فيه عدة أوجه :

أحدها : أنه وصف العذاب في السجدة لوقوع (النار) موقع الضمير الذى لا يوصف ، وانما وقعت موقع الضمير لتقدم اضمارها ، مع قوله (وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها)[٧٣٧] فحق الكلام : (وقيل لهم ذوقوا عذابها) فلما وضعها موضع المضمر الذى لا يقبل الوصف عدل الى وصف العذاب .

وأما في سورة (سبأ) فوصفها لعدم المانع من وصفها .

والثانى : أن (الذى) في السجدة وصف النار أيضا ، وذكر حملا على معنى الجحيم والحريق .

والثالث : أن (الذى) في السجدة في حق من يقر بالنار ويجحد العذاب ، وفي سورة (سبأ) في حق من يجحد أصل النار .

والرابع : أنه انما وصف العذاب في سورة السجدة ، لأنه لما تقدم ذكر النار مضمرا ومظهرا عدل الى وصف العذاب ، ليكون تلوينا للخطاب، فيكون أنشط للسامع بمنزلة العدول من الغيبة الى الخطاب[٧٣٨] .

---

(٧٣٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي جـ ٢٠/٦٠ .

(٧٣٥) السجدة/٢٠ . (٧٣٦) سبأ/٤٢ .

(٧٣٧) السجدة/٢٠ .

(٧٣٨) البرهان في علوم القرآن جـ٢/٦٤ .

٥٤ — وأما قوله تعالى (توفته رسلنا)[٧٣٩] وقوله عز شأنه (تتوفاهم الملائكة)[٧٤٠] مع قوله عز وجل (قل يتوفاكم ملك الموت)[٧٤١]، وقوله جل ثناؤه : (الله يتوفى الأنفس)[٧٤٢] وقوله تعالى ذكره (وهو الذى يتوفاكم بالليل)[٧٤٣] فقوله تعالى (توفته رسلنا) على تأنيث الجماعة ، كما قال (ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات)[٧٤٤] وقوله عز وجل (كذبت رسل)[٧٤٥] •

وقرأ حمزة (توفاه رسلنا) على تذكير الجمع •

وقرأ الاعمش (تتوفاه رسلنا) بزيادة تاء والتذكير ، والمراد أعوان ملك الموت ، قاله ابن عباس وغيره •

ويروى أنهم يسلون الروح من الجسد حتى اذا كان عند قبضها قبضها ملك الموت •

وقال الكلبى : يقبض ملك الموت الروح من الجسد ثم يسلمها الى ملائكة الرحمة ان كان مؤمنا أو الى ملائكة العذاب ان كان كافرا • ويقال : معه سبعة من ملائكة الرحمة وسبعة من ملائكة العذاب ، فاذا قبض نفسا مؤمنة دفعها الى ملائكة الرحمة فيبشرونها بالثواب ويصعدون بها الى السماء ، واذا قبض نفسا كافرة دفعها الى ملائكة العذاب فيبشرونها بالعذاب ، ويفزعونها ، ثم يصعدون بها الى السماء ، ثم ترد الى سجين ، وروح المؤمن الى عليين[٧٤٦] •

والتوفى تارة يضاف الى ملك الموت ، كما قال عز شأنه (قل يتوفاكم

---

(٧٣٩) الانعام/٦١ •
(٧٤٠) النحل/٢٨ •
(٧٤١) السجدة/١١ •
(٧٤٢) الزمر/٤٢ •
(٧٤٣) الانعام/٦١ •
(٧٤٤) المائدة/٣٢ •
(٧٤٥) الانعام/٣٤ •
(٧٤٦) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ٧/٧ •

ملك الموت)[٧٤٧] وتارة الى الملائكة ، لأنهم يقولون ذلك ، كما فى قوله تعالى (حتى اذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا)[٧٤٨] . وتارة الى الله وهو المتوفى على الحقيقة ، كما قال الله جل ثناؤه : (الله يتوفى الأنفس حين موتها)[٧٤٩] وقوله تبارك وتعالى : (قل الله يحييكم ثم يميتكم)[٧٥٠] وقوله تعالى (الذى خلق الموت والحياة)[٧٥١] فكل مأمور من الملائكة ، فانما يفعل ما أمر به[٧٥٢] .

وعلى ضوء ما سبق يمكن أن نقول : ان المقصود بتوفى الملائكة : القبض والنزع ، ويتوفى ملك الموت : الدعاء والامر ، يدعو الارواح فتجيبه ، ثم يأمر أعوانه بقبضها ، كما أن المقصود بتوفى الله سبحانه وتعالى : خلق الموت فيه .

٥٥ — وأما قوله تعالى (وما منع الناس أن يؤمنوا اذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم الا أن يأتيهم العذاب قبلا)[٧٥٣] فانه يدل على حصر المانع من الايمان فى أحد هذين الشيئين ، وقال فى آية أخرى (وما منع الناس أن يؤمنوا اذ جاءهم الهدى الا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا)[٧٥٤] فهذا حصر فى ثالث غيرهما .

وأجاب ابن عبد السلام : بأن معنى الآية الاولى : (وما منع الناس أن يؤمنوا الا بارادة أن تأتيهم سنة الاولين من الخسف غيره ، أو يأتيهم العذاب قبلا فى الآخرة ، فأخبر أنه أراد أن يصيبهم أحد الامرين ، ولا شك أن ارادة الله مانعة من وقوع ما ينافى المراد ، فهذا حصر فى السبب الحقيقى ، لأن الله هو المانع فى الحقيقة .

---

(٧٤٧) السجدة/١١ .
(٧٤٨) الانعام/٦١ .
(٧٤٩) الزمر/٤٢ .
(٧٥٠) الجاثية/٢٦ .
(٧٥١) الملك/٢ .
(٧٥٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ٧/٧١ .
(٧٥٣) الكهف/٥٥ .
(٧٥٤) الاسراء/٩٤ .

ومعنى الآية الثانية (وما منع الناس أن يؤمنوا الا استغراب بعثه بشرا رسولا) لأن قولهم ليس مانعا من الايمان ، لأنه لا يصلح لذلك ، وهو يدل على الاستغراب بالالتزام ، وهو المناسب للمانعية واستغرابهم ليس مانعا حقيقيا ، بل عاديا لجواز وجود الايمان معه ، بخلاف ارادة الله تعالى ، فهذا حصر فى المانع العادى ، والاول حصر فى المانع الحقيقى ، فى تنافى أيضا[755] .

٥٦ ــ وأما قوله تعالى (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا)[756] وقوله عز وجل : (فمن أظلم ممن كذب على الله)[757] مع قوله (ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسى ما قدمت يداه)[758] وقوله (ومن أظلم ممن منع مساجد الله)[759] الى غير ذلك من الآيات ، ووجه أن المراد بالاستفهام هنا النفى ، والمعنى : (لا أحد أظلم)[760] فيكون خبرا ، واذا كان خبرا وأخذت الآيات على ظواهرها أدى الى التناقض .

وأجيب عنه بعدة أوجه :

ــ منها تخصيص كل موضع بمعنى صلته ، أى لا أحد من المعاندين أظلم ممن منع مساجد الله ، ولا أحد من المفترين أظلم ممن افترى على الله كذبا واذا تخصص بالصلات زال التناقض .

ــ ومنها ، أن التخصيص بالنسبة الى السبق ، لما لم يسبق أحد الى مثله ، حكم عليهم بأنهم أظلم ممن جاء بعدهم سالكا طريقهم ، وهذا يئول معناه الى ما قبله ، لأن المراد السبق الى المانعية والافترائية .

ــ ومنها ــ وادعى أبو حيان أنه الصواب ــ أن نفى الاظلمية

---

(٧٥٥) الاتقان فى علوم القرآن للسيوطى جـ٢/٨٧ طبعة دار التراث .

(٧٥٦) الانعام/٢١ . (٧٥٧) الزمر/٣٢ .

(٧٥٨) الكهف/٥٧ . (٧٥٩) البقرة/١١٤ .

(٧٦٠) البحر المحيط جـ٤/٩٣ .

لا يستدعى نفى الظالمية ، لأن نفى المقيد لا يدل على نفى المطلق ، واذا لم يدل على نفى الظالمية لم يلزم التناقض ، لأن فيها اثبات التسوية فى الاظلمية ، واذا ثبتت التسوية فيها لم يكن أحد ممن وصف بذلك يزيد على الآخر ، لأنهم يتساوون فى الاظلمية ، وصار المعنى : لا أحد أظلم ممن افترى وممن منع ونحوها ولا اشكال فى تساوى هؤلاء فى الاظلمية ، ولا يدل على أن هؤلاء أظلم من الآخر ، كما اذا قلت : لا أحد أفقه منهم .

وحاصل الجواب أن نفى التفضيل لا يلزم منه نفى المساواة .

وقال بعض المتأخرين : هذا استفهام مقصود به التهويل والتقطيع من غير قصد اثبات الاظلمية للمذكور حقيقة ، ولا نفيها عن غيره .

٥٧ ــ وأما قوله تعالى (من تراب)[٧٦٢] ومرة (من حمأ مسنون)[٧٦٣] ومرة (من طين لازب)[٧٦٤] ومرة (من صلصال كالفخار)[٧٦٥] فهذه ألفاظ مختلفة ومعانيها فى أحوال مختلفة ، لأن الصلصال غير الحمأ ، والحمأ غير التراب ، الا أن مرجعها كلها الى جوهر واحد وهو التراب ، ومن التراب تدرجت هذه الاحول[٧٦٦] .

٥٨ ــ وأما قوله تعالى (وترى الناس سكارى وما هم بسكارى)[٧٦٧] مع قوله (ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت)[٧٦٨]

---

(٧٦١) الاتقان فى علوم القرآن جـ٣/٨٧ ــ ٨٨ طبعة دار التراث .
(٧٦٢) آل عمران/٥٩ .
(٧٦٣) الحجر/٢٦ ، ٢٨ ، ٣٣ .
(٧٦٤) الصافات/١١ . (٧٦٥) الرحمن/١٤ .
(٧٦٦) الاتقان فى علوم القرآن جـ٣/٨٣ .
(٧٦٧) الحج/٢ . (٧٦٨) ابراهيم/١٧ .

فهو يرجع لقول المناطقة الاختلاف بالاضافة ، أى وترى الناس سكارى بالاضافة الى أهوال القيامة مجازا ، وما هم بسكارى بالاضافة الى الخمر حقيقة[٧٦٩] .

٥٩ — وأما قوله تعالى (آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين)[٧٧٠] وقوله (ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون)[٧٧١] وقوله عز شأنه (وتراهم ينظرون اليك وهم لا يبصرون)[٧٧٢] فانه لا يلزم من نفى النظر نفى الابصار لجواز قولهم (نظرت اليه فلم أبصره)[٧٧٣] .

---

(٧٦٩) البرهان فى علوم القرآن جـ٢/٦٠ .

(٧٧٠) البقرة/٨ .

(٧٧١) الانفال/٢١ .

(٧٧٢) الاعراف/١٩٨ .

(٧٧٣) الاتقان فى علوم القرآن جـ٢/٦٠ — ٦١

آية من ربه [٦٨٩] وقال عز شأنه (لولا أنزل عليه آية من ربه)[٦٩٠] .

٤٨ — وأما قوله جل ثناؤه (رب المشرق والمغرب)[٦٩١] وقوله تعالى ذكره (رب المشرقين ورب المغربين)[٦٩٢] وقوله عز وجل (رب المشارق والمغارب)[٦٩٣] فيمكن أن يكون أراد بالمشرق والمغرب اسم الجنس ، فيكون كقوله تعالى : (ان الانسان لفى خسر)[٦٩٤] على هذا التأويل المشرق والمغرب اليوم الذى يستوى فيه الليل والنهار فتشرق الشمس فى ذلك اليوم فى مشرق واحد وتغرب كذلك فلا تعود الى ذلك المشرق والمغرب الا بعد حول[٦٩٥] .

والمراد بالمشارق مشارق الشمس ، لأنها المعروفة الشائعة فيما بينهم وهى بعد أيام السنة ، فانها فى كل يوم تشرق من مشرق وتغرب فى مغرب فالمغارب متعددة تعدد المشارق ، وكأن الاكتفاء بها لاستلزامها ذلك مع أن الشروق أدل على القدرة وأبلغ فى النعمة ، ولهذا استدل به ابراهيم عليه السلام عند محاجة النمرود .

وعن ابن عطية أن مشارق مائة وثمانون ، ووفق بعضهم بين هذا وما يقتضيه ما تقدم من مضاعفة العدد بأن مشارقها من رأس السرطان وهو أول بروج الصيف الى رأس الجدى وهو أول بروج الشتاء متحدة معها من رأس الجدى الى رأس السرطان ، فان اعتبر ما كانت عليه وما عادت اليه واحدا كانت مائة وثمانين ، وان نظر الى تغايرهما كانت

---

(٦٨٩) الانعام/٣٧ .
(٦٩٠) يونس/٢٠ .
(٦٩١) الشعراء/٢٨ .
(٦٩٢) الرحمن/١٧ .
(٦٩٣) المعارج/٤٠ .
(٦٩٤) العصر/٥ .
(٦٩٥) نكت الانتصار لنقل القرآن ص ١٨٥ والتفسير الكبير للرازى ج٢٩/١٠٠ .

ثلاثمائة وستين ، وفى هذا اسقاط الكسر فان السنة الشمسية تزيد على ذلك العدد بنحو ستة أيام .

وفسرت المشارق أيضا بمشارق الكواكب ، ورجح بأنه المناسب لقوله تعالى (انا زينا السماء بزينة الكواكب)[696] وهى للسيارات منها متفاوتة فى العدد ، وأكثرها مشارق زحل ومشارقه الى أن يتم دورته أكثر من مشارق الشمس الى أن تتم دورتها بألوف ، ومشارق الثوابت الى أن تتم الدورة أكثر وأكثر .

وتثنية المشرق والمغرب فى قوله تعالى (رب المشرقين ورب المغربين)[697] على ارادة مشرق الصيف ومشرق الشتاء ومغربيها[698] .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما : الشمس كل يوم مشرق ومغرب، وذلك أن الله تعالى خلق الشمس ثلثمائة وخمسة وستين كوة فى مطلعها، ومثلها فى مغربها على عدد أيام السنة الشمسية ، تطلع فى كل يوم فى كوة منها وتغيب فى كوة ، لا تطلع فى تلك الكوة الا فى ذلك اليوم من العام المقبل ، ولا تطلع الا وهى كارهة فتقول : رب لا تطلعنى على عبادك فانى أرهم يعصونك .

وعن عكرمة قال : قلت لابن عباس أرأيت ما جاء عن النبى ﷺ فى أمية بن أبى الصلت : (آمن شعره وكفر قلبه) قال : هو حق فما أنكرتم من ذلك ؟ قلت : أنكرنا قوله :

والشمس تطلع كل آخر ليلة ... حمراء يصبح لونها يتورد
ليست بطالعة لهم فى رسلها ... ألا معذبة والا تجلد

---

(٦٩٦) الصافات/٦ . (٦٩٧) الرحمن/١٧ .

(٦٩٨) روح المعانى للالوسى ج٢٣/٦٨ من المجلد الثامن ، والبحر المحيط ج٧/٣٥٣ .

ما بال الشمس تجلد ؟ فقال : والذى نفسى بيده ما طلعت شمس قط حتى ينخسها سبعون ألف ملك ، فيقولون لها اطلعى اطلعى ، فتقول: لا أطلع على قوم يعبدوننى من دون الله ، فيأتيها ملك فيستقل لضياء بنى آدم ، فيأتيها شيطان يريد أن يصدها عن الطلوع فتطلع بين قرنيه فيحرقه الله تعالى تحتها ، فذلك قول رسول الله ﷺ : « ما طلعت الا بين قرنى شيطان ولا غربت الا بين قرنى شيطان وما غربت قط الا خرت لله ساجدة فيأتيها شيطان يريد أن يصدها عن السجود فتغرب بين قرنيه فيحرقه الله تعالى تحتها »[٦٩٩] .

٤٩ — وأما قوله تعالى (انه لقول رسول كريم)[٧٠٠] فلا تناف بينه وبين قوله (واستغفر لهم أو لا تستغفر لهم ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم)[٧٠١] ، لأن المطاع هو جبريل عليه السلام وهو المراد بالآية الاولى .

ويحتمل أن يكون قوله (مطاع ثم أمين)[٧٠٢] يعنى محمد ﷺ أنه مطاع من المؤمنين ، ولم يعن أن الله تعالى يطيعه[٧٠٣] .

وقال الرازى : عند تفسيره لقوله تعالى (انه لقول رسول كريم): اعلم أن الله تعالى ذكر فى سورة (اذا الشمس كورت) مثل هذا الكلام ، والاكثرون هناك على أن المراد منه جبريل عليه السلام ، والاكثرون هاهنا على أن المراد منه محمد ﷺ ، واحتجوا على الفرق بأنه هاهنا لما قال : (انه لقول رسول كريم) ذكره بعده أنه ليس بقول شاعر ، ولا كاهن قال تعالى (وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون .

---

(٦٩٩) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ ٦٣/١٥ .
(٧٠٠) الحاقة/٤٠ والتكوير/١٩ .
(٧٠١) التوبة/٨٠ .
(٧٠٢) التكوير/٢٠ .
(٧٠٣) نكت الانتصار ص١٦٨ .

ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون)(٧٠٤) والقوم ما كانوا يصفون جبريل عليه السلام بالشعر والكهانة بل كانوا يصفون محمدا — ﷺ — بهذين الوصفين •

وأما فى سورة (اذا الشمس كورت) لما قال (انه لقول رسول كريم) ثم قال بعده (وما هو بقول شيطان رجيم) كان المعنى : انه قول ملك كريم ، لا قول شيطان رجيم ، فصح أن المراد من الرسول الكريم هاهنا هو محمدﷺ ، وفى تلك السورة هو جبريل عليه السلام•

وعند هذا يتوجه هذا السؤال : أن الامة مجمعة على أن القرآن كلام الله تعالى وحينئذ يلزم أن يكون الكلام الواحد كلاما لله تعالى ، ولجبريل ولمحمد ، وهذا تميز معقول ؟ •

والجواب : أنه يكفى فى صدق الاضافة أدنى سبب ، فهو كلام الله تعالى ، بمعنى أنه تعالى هو الذى أظهره فى اللوح المحفوظ ، وهو الذى رتبه ونظمه ، وهو كلام جبريل عليه السلام ، بمعنى أنه هو الذى أنزله من السموات الى الارض ، وهو كلام محمد ، بمعنى أنه هو الذى أظهره للخلق ودعا الناس الى الايمان به وجعله حجة لنبوته(٧٠٥) •

ويقول الالوسى : ان قوله تعالى (وما هو بقول شاعر) •• الخ دليل لما قاله الاكثرون ، لأن المعنى على اثبات أنه ﷺ رسول لا شاعر ولا كاهن ، كما يشعر بذلك سبب النزول ، وتوضيح ذلك أنهم ما كانوا يقولون فى جبريل عليه السلام أنه كذا وكذا ، وانما كانوا يقولونه فى النبىﷺ ، فلو أريد بـ (رسول كريم) جبريل عليه السلام لفات التقابل ، ولم يحسن العطف ، كما تقول : (انه لقول عالم وما هو بقول جاهل) ، ولو قلت (وما هو بقول شجاع) نسبت الى ما تكره •

---

(٧٠٤) الحاقة/٤١ — ٤٢ •

(٧٠٥) التفسير الكبير جـ ١١٧/٣٠ •

وتعقبه بعض الائمة بأن هذا صحيح ان سلم أن المعنى على اثبات رسول لا شاعر ، ويكون قوله تعالى (انه لقول رسول) لا قول شاعر اثباتا للرسالة على طريق الكناية .

أما اذا جعل المقصود من السياق اثبات حقية المنزل ، وأنه من الله عز وجل ، فانه تذكرة لهؤلاء وحسرة لمقابليهم ، وهو فى نفسه صدق وتعين لا يحوم حوله شك ، كما يدل عليه ما بعد . فالقول الثانى أيضا موقع حسن وكأنه قيل : ان هذا القرآن لقول جبريل الرسول الكريم، وما هو من تلقاء محمد ﷺ كما تزعمون ، وتدعون أنه شاعر وكاهن ، ويكون قد نفى عنه ﷺ الشعر والكهانة على سبيل الادماج[٧٠٦] .

والذى نخلص اليه أن القرآن الكريم (لقول رسول كريم) يريد جبــريل ، ودليله قوله (انه لقول رســـوم كريم ذى قوة عند ذى العرش)[٧٠٧] .

وقيل أن الرسول هاهنا محمد ﷺ ، لقوله تعالى (وما هو بقول شاعر) وليس القرآن قول الرسول ﷺ ، انما هو من قول الله عز وجل ونسب القول الى الرسول ، لأنه تاليه ومبلغه القائل به .

٥٠ ــ وأما قوله تعالى (من رحيق مختوم ختامه مسك)[٧٠٨] فان الملاحدة قد قالوا : لم ختم ؟ الخوف اللصوص أم الفساد[٧٠٩] ؟ .

وهذا منهم تلاعب وغباوة ، فان معنى (الرحيق) الخمر ، قال الليث[٧١٠] وقال مقاتل وغيره : هى الخمر العتيقة البيضاء الصافية من الغش النيرة .

---

(٧٠٦) روح المعانى للالوسى ج٢٩/٦٥ من المجلد العاشر .
(٧٠٧) التكوير/١٩ ــ ٢٠ . (٧٠٨) المطففين/٢٥ ــ ٢٦ .
(٧٠٩) نكت الانتصار ص١٦٩ .
(٧١٠) التفسير الكبير للرازى ج٣١/١٠٠ .

قال حسان :

يسقون من ورد البريص عليهم بردى يصفق بالرحيق السلسل

وقال آخر :

أم لا سبيل الى الشباب وذكره أشهىالى من الرحيقالسلسل[711]

وقال أبو عبيدة والزجاج : الرحيق من الخمر ما لا غش فيه ، ولا شيء يفسده ، ولعله هو الخمر الذى وصفه الله تعـالى بقوله : (لا فيها غول)[712] ، [713] وفى الصحاح : الرحيق صفوة الخمر ، والمعنى واحد .

وقد ذكر المولى عز وجل لهذا (الرحيق) عدة صفات :

الصفة الاولى : قوله (مختوم) وفيه وجوه :

الاول : يحتمل أن هؤلاء يسقون من شراب مختوم قد ختم عليـه تكريما له بالصيانة على ما جرت به العادة من ختم ما يكرم ويصان ، وهناك خمر آخر تجرى منها أنهار كما قال عز شأنه (وأنهار من خمر لذة للشاربين [714] الا أن هذا المختوم أشرف فى الجارى .

الثانى : قاله أبو عبيدة والمبرد والزجاج : المختوم الذى له خاتم ، أى عاقبة .

الثالث : وروى عن عبد الله فى (مختوم) أنه ممزوج ، قال الواحدى:

---

(٧١١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ج١٩/٢٦٥ .

(٧١٢) الصافات/٤٧ .

(٧١٣) التفسير الكبير ج ٣١/١٠٠ .

(٧١٤) محمد/١٥ .

وليس بتفسير ، لأن الختم لا يكون تفسيره المزج ، ولكن لما كانت له عاقبة هى ريح المسك فسره بالممزوج ، لأنه لو لم يمتزج بالمسك لما حصل فيه ريح المسك .

الرابع : قال مجاهد : (مختوم) مطين[٧١٥] وفى الصحاح : والختام: الطين الذى يختم به ، وكذا قال مجاهد وابن زيد ، ختم اناؤه بالمسك بدلا من الطين .

وقال الفرزدق :

وبت أفض أغلاق الختام[٧١٦]

وقال الاعشى :

وأبرزها وعليهـا ختـم[٧١٧]

أى عليها طينة مختومة ، مثل نقض بمعنى منقوض ، وقبض بمعنى مقبوض ، وذكر ابن المبارك وابن وهب ، واللفظ لابن وهب عن عبد الله ابن مسعود فى قوله تعالى (ختامه مسك) : خلطه ، ليس بخاتم بختم ، ألا ترى الى قول المرأة من نسائكم : ان خلطه من الطيب كذا وكذا ، انما خلطه مسك ، قال : شراب أبيض مثل الفضـة يختمون به آخر أشربتهم ، لو أن رجلا من أهل الدنيا أدخل فيه يده ثم أخرجها لم يبق ذو روح الا وجد ريح طيبها .

وروى أبى بن كعب قال : قيل يارسول الله ما الرحيق المختوم ؟ قال : (غدران الخمر) . وقيل مختوم الآنية ، وهو غير الذى يجرى فى الانهار[٧١٨] .

---

(٧١٥) التفسير الكبير ج ٣١/١٠٠ .

(٧١٦) صدر الليث : فتن جنابتى مصرعات .

(٧١٧) صدره : وصهباء طاف يهوديها .

(٧١٨) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ج١٩/٢٦٥ — ٢٦٦ .

الصفة الثانية : لهذا الرحيق قوله (ختامه مسك) وفيه وجوه :

الاولى : قال القفال : معناه أن الذى يختم به رأس قارورة ذلك الرحيق هو المسك ، كالطين الذى يختم به رؤوس القوارير ، فكان ذلك المسك رطب ينطبع فيه الخاتم .

الثانى : المراد من قوله (ختامه مسك) أى عاقبته المسك ، أى يختم له آخره بريح المسك . كأنه تعالى قد قال : من رحيق له عاقبه ، ثم فسر تلك العاقبة فقال : تلك العاقبة مسك ، أى بين شربه كان حكم شربه على ريح المسك . واذا وقع الشارب فاه من آخر ليشربه وجد ريحه كريح المسك ، والمعنى لذاذة المقطع وذكاء الرائحة وأرجها مع طيب الطعم ، والختام آخر كل شيء ومنه يقال : ختمت القرآن والاعمال بخواتيمها ، ويؤكده قراءة علي عليه السلام واختيار الكسائى فانه يقرأ (خاتمة مسك) أى آخره ، كما يقال : خاتم النبيين .

الثالث : معناه خلطه مسك ، وذكروا أن فيه تطيبا لطعمه ، وقيل: بل لريحه[٧١٩] .

ولعل المراد أن الخمر الممزوج بهذه الافاويه الحارة مما يعين على الهضم وتقوية الشهوة ، فلعل المراد منه الاشارة الى قوة شهوتهم وصحة أبدانهم .

٥١ — وأما قوله تعالى ذكره (واذ واعدنا موسى أربعين ليلة)[٧٢٠]

---

(٧١٩) التفسير الكبير للرازى جـ ١٠١/٣١ .

(٧٢٠) وقد خص المولى عز وجل (الليالى) بالذكر دون الايام ، لأن الليلة أسبق من اليوم فهى قبله فى الرتبـــة ، ولذلك وقع بها التـــاريخ ، فالليالى أول الشهور والايام تبع لها .

وقوله (أربعين) نصب على المفعول الثانى وفى الكلام حذف ، قاله الاخفش والتقدير : واذ واعدنا موسى تمام أربعين ليلة ، كما قال عز شأنه : (واسئل القرية) والاربعين كلها داخلة فى الميعاد .

الخاتمـــــــــــة

القرآن هو اللفظ العربى ، المنزل ، منجما ، على رسول الله ﷺ ، المتعبد بتلاوته ، المتحدى بأقصر سورة منه ، المنقول الينا بالتواتر ولن يتقرب متقرب الى المولى عز وجل بأحب اليه من تلاوة القرآن الكريم ، وتدبره ، ومدارسته ، ثم تعليم ذلك لغيره .

وتعلم القرآن الكريم يدخل فيه حفظه ، وتجويده ، واقامة حروفه، واعرابها ويدخل فيه كذلك مدارسته وتفهم معانيه وتدبر آياته ، ومعرفة المقاصد الاساسية التى نزل من أجلها ، ومعـــرفة أحكامه وحــــلاله وحرامه ... الخ .

والقرآن الكريم أنزله المولى عز وجل بلسان عربى مبين ، ويعتبر الاساس الاول الذى تعتمد عليه اللغة ، والذى ضمن لها البقاء والخلود رغم تتابع الاحداث التى كانت لولاه ــ سببا فى القضاء عليها ــ وهو الكتاب السماوى الوحيد الذى تكفل الله بحفظه فقال الله جل ثناؤه : (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون)[٧٧٤] وبيسره سبحانه لمن أراد أن يقرأه ويتدبره فقال عز شأنه : (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر)[٧٧٥] .

ولقد قمت بتقسيم هذا البحث الى بابين :

كان الاول منهما للحديث عن ادعاء اللحن فى القرآن والرد عليه . ورأيت تضعيف جميع ما ورد مما فيه طعن ، ولم يقبل تأويلا ينشرح له

---

(٧٧٤) الحجر/٩ .

(٧٧٥) القمر/١٧ .

الصدر ، ويقبله الذوق ، والطعن فى الرواة أهون بكثير من الطعن فى الائمة الذين تلقوا القرآن ، أو السنة المتواترة ، أو الاجماع القطعى ، أو صريح العقل حيث لا يقبل شىء من ذلك التأويل ، أو لم يحتمـل سقوط شىء منه يزول به المحذور ، فلو قال قائل بوضع تلك الاخبار لم يبعد .

وأما ما روى عن عائشة رضى الله عنها فى تلك الحروف انها من غلط الكاتب فهو أيضا فى غاية الضعف والاضطراب ، ولو صح لكان خبرا واحدا لا يوجب العلم ، ولو صحت الرواية بذلك ، فيكون عثمان رضى الله عنه انما أراد أن فى القرآن لحنا على لغة بعض العرب لايتكلمون بتلك الكلمات ، ويعتقد أنها لحن وأنها لم تزل كذلك ، ولا يجوز لذى دين أن يعتقد أن عائشة رضى الله عنها كانت تلحن الصحابة ، وتخطىء كتبة المصاحف ، والاشبه فيما روى عنها وغيرها ان صح وسلم سنده أن يكونوا قد قالوا : ان الوجه الظاهر المعروف فى هذه الحروف غير ما جاء به المصحف ، وأن استعماله على ذلك الوجه غامض ، أو غلط عند كثير من الناس ولحن عند من لا يعرف الوجه فيه ، فلم تضبط هذه الرواية عنهم ولم يسمعوا تمامه ولم يوردوه على وجهه لسواهم ، وأما أن يقطع عثمان وعائشة رضى الله عنهما أن فى القرآن لحنا وغلطا فذلك باطل .

وما روى عن سعيد بن جبير لحن من الكاتب ، فيعنى باللحن القراءة واللغة يعنى أنها لغة الذى كتبها وقراءته ، وفيها قراءة أخرى — والقراءة سنة لا تخالف ، وبخاصة المتواترة فهى المنقولة بالتلقى بالسند المتصل ، وليس للقارىء فيها الا الحفظ ، وتعليمها للآخرين وأنها أهم مصدر فى تقعيد اللغة وتأصيلها .

وعلى هذا فانه لا يوجد فى القــرآن حرف واحد الا وله وجه

صحيح فى العربية الفصحى وأن هذا الكتاب (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد)[٧٧٦] .

وتناول الباب الثانى : ادعاء التناقض فى القرآن الكريم والرد على ذلك ، وسقت الامثلة التى أوردها الطاعنون فى كتاب الله ، ورأيت أن ورود مشكلة حتى يوهم التعارض بين الآيات يعتبر وجها من وجوه الاعجاز فى القرآن الكريم لأن كلام الله عز وجل منزه عن التناقض والاختلاف ، بل فيه الاعجاز للكلام ، وبيان ذلك الجمع بين الآيات التى زعم المغرضون أن بينها تناقضا ، ولهذا الاختلاف أسباب منها :

١ ــ وقوع المخبر به على أحوال مختلفة وتطويرات شتى ويبدو ذلك فى المثال التاسع ، والمثال السادس والخمسين .

٢ ــ اختلاف الموضوع ، ويبدو ذلك فى المثال الاول ، والمثال الثالث عشر والمثال الخامس والثلاثين .

٣ ــ بوجهين واعتبارين وهو الجامع للمفترقات ، ويبدو ذلك فى المثال الخامس ، والمثال السادس والثلاثين ، والمثال الثالث والاربعين ، والمثال الثالث والخمسين ، والخامس والخمسين .

٤ ــ لاختلافهما فى الحقيقة والمجاز ، ويبدو ذلك فى المثال الثامن والخمسين والمثال التاسع والخمسين .

---

(٧٧٦) فصلت/٤٢ .

الفهــــارس

فهـرس الآيات القرآنيـة الكريمـة

٣ — ســـورة آل عمـــران

٤ ـ ســـورة النســـاء

٥ ــ سورة المائـــدة

٢٦ ـ الشعراء

٢٧ ـ النمل

٢٨ ـ القصص

فهــرس الأحاديث النبــوية الشريفــة

فهرس الآبيات والشطرات الشعرية

١ ــ ليت شــعرى من للمحب شــفاء

مــن جــوى حبهــن ان اللقـــــاء

الخفيف ص ٣٣

٢ ــ فمن يك أمسى بالمدينـــــة رحــله

فانى وقيـــــاد بهـــا لغـــــريب

٣ ــ فقلت لهـــا عنـــى اليــك فاننـــى

حـــرام وانـــى بعـــد ذاك لبيب

الطويل ص ١٦٢

٤ ــ ولا عيب فيهــم غير أن سيوفهــم

بهـــن فلــول من قــراع الكتـــائب

الطويل ص ١٠٧

٥ ــ مــا ان رأيت ولا ســمعت بــه

كالبـــوم طالبنـــى أنيـق أجـرب

الكامل ص ٣٥

٦ ــ ولكــن ديــافى أبــوه وأمــه

بجـــوران يعصــرن الســليط أقاربه

الطويل ص ٥٩

٧ ــ أم الحليس لعجـــوز شــهربة

ترضى من اللحــم بعظـــم الرقبـــة

الرجز ص ٣٣

٨ ــ معاوى اننــا بشــر فاســجح

فلســنا بالجبــال ولا الحــديدا

الوافر ص ٥٤

٩ ــ ومازلت من ليلى لدن أن عرفتها

لكالهــائم المقصــى بكــل بــلاد

الطويل ص ٣٤

١٠ ــ ألا حبــذا هند وأرض بهــا هنــد

وهنــد أنى من دونهــا النــأى والبعــد

الطويل ص ١٨٧

١١ ــ مروا عجالى فقالوا كيف صاحبكم

فقــال من سـئلوا أمســى لمجهــود

البسيط ص ٣٤

١٢ ــ وحبســن فى هزم الضريع فكلهــا

جــدباء داميــة اليــدين جــرود

الكامل ص ١٤٦

١٣ ــ والشمس تطلــع كل آخــر ليــلة

حمراء يصــبح لونهــا يتــورد

ليست بطالعة لهــم فى رســلها

الا معــــوذية والا تجــلد

الكامل ص ٢٥٨

١٤ ــ فان تدفنــوا الــداء لا نخـفــه

وان تمنعــوا الحــرب لا نقعــد

المتقارب ص ٩٩

١٥ ــ وبث الخــلق فيهــا اذ دحاها

فهــم قطــانها حتــى التنــادى

الوافر ص ١٦١

١٦ ـ ان يغبطوا يهبطوا وان أمروا
يوما يصيروا للهلك والنكد
المنسرح ص ٢٤٧

١٧ ـ لقد رسخت فى الصدر منى مودة
لليلى أبت آياتها أن تغيرا
الطويل ص ٢٠٢

١٨ ـ قلت أطعمينى يا عمير غرا
وكان تمرا كهرة وذبرا
الرجز ص ١٥٩

١٩ ـ رأين الغوانى الشيب لاح بعارضى
فأعرضن عنى بالخدود النواضر
الطويل ص ٥٩

٢٠ ـ ويوم كظل الرمح قصر طوله
دم الزق عنا واصطفاق المزاهر
الطويل ص ١٧٨

٢١ ـ كسا اللوم تيما خضرة فى جلودها
فويل لتيم من سرابيلها الخضر
الطويل ص ١٩١

٢٢ ـ لا يبعدن قومى الذين هم
سم العداة وآفة الجزر
النازلين بكل معترك
والطيبون معاقد الأزر
الكامل ص ٤٤

٢٣ ـ قالوا غدرت فقلت ان وربما
نال العلا وشفى الغليل الغادر
الكامل ص ٣٢

٢٤ ـ سريع الى الهيجاء شاك سلاحه
فما ان يكاد قرنه يتنفس
الطويل ص ٩٨

٢٥ ـ كادت ولدت وتلك خير ارادة
لو عاد من لهو الصبابة ما مضى
الكامل ص ١٠٢

٢٦ ـ حمدت الهى بعد عروة اذ نجا
خراس وبعض الشر أهون من بعض
الطويل ص ١٦٢

٢٧ ـ رعى الشبرق الريان حتى اذا ذوى
وعاد ضريعا بان عنه النحائص
الطويل ص ١٤٦

٢٨ ـ بك النضال دون المساعى
فاهتدين النبال للأغراض
الخفيف ص ٥٩

٢٩ ـ تذكرت ليلى فاعترتنى صبابة
فكاثر صميم القلب لا يتقطع
الطويل ص ٢٩١

٣٠ ـ بمنجرد تحلف حين أحلف
كمثل شيطان الحماط أعرف
الرجز ص ١٥١

٣١ ـ نحن بما عندنا وأنت بما
عندك راض والرأى مختلف
المنسرح ص ٤٣

٣٢ ـ والا فاعلموا أنا وأنتم
بغاة ما بقينا فى شقاق
الوافر ص ٤٠

٣٣ ـ أرسلت فيها قطما لكالكا
يقصر يمشى ويطول باركا
الرجز ص ٢١٧

٣٤ ـ خالى لأنت ومن جرير خاله
ينل العلا ويكرم الأخوالا
الكامل ص ٣٣

٣٥ ـ وأسلمت وجهى لمن أسلمت
له الأرض تحمل صخرا ثقالا
دحاها فلما رآها استوت
على الماء أرسى عليها الجبالا
المتقارب ص ١٦١

٣٦ ـ شدب المفارق ان من لون البلى
شيب العذال مع العذار الوبيل
الكامل ص ٣٣

٣٧ ـ وتضحى فتيت المسك فوق فراشها
نؤوم الضحى لم تنطق عن تفضل
الطويل ص ٢٢٣

٣٨ ـ كأن قلوب الطير رطبا ويابسا
لدى وكرها العناب والحشف البالى
الطويل ص ٢٤٦

٣٩ ـ أيقتلنى والمشرف مضاجعى

ومسنونة زرق كأنياب أغوال

الطويل ص ١٥١

٤٠ ـ يسقون من ورد البريص عليهم

بردى يصفق بالرحيق السلسل

الطويل ص ٢٦٢

٤١ ـ أم لا سبيل الى الشباب وذكره

أشهى الى من الرحيق السلسل

الطويل ص ٢٦٢

٤٢ ـ نحن بنوضبة أصحاب الجمل

الرجز ص ٥١

٤٣ ـ فأطرق اطراق الشجاع ولو يرى

مساغا لناباه الشجاع لصمما

الطويل ص ٢٨

٤٤ ـ تزود منا بين أذناه ضربة

دعته الى هابى التراب عقيم

الطويل ص ٢٩

٤٥ ـ يلوموننى فى اشتراء التحد

سل أهلى فكلهم يعدل

المتقارب ص ٥٨

٤٦ ـ تراك أمكنة اذا لم أرضها

أو يرتبط بعض النفوس حمامها

الكامل ص ١٠٥

٤٧ ـ حييت من طلل تقادم عهده
أموى وأقفر بعد أم الهيثم
الكامل ص ١٧٨

٤٨ ـ الى الملك القرم وابن الهما
م وليت الكتيبة فى المزدحم
وذا الرأى حين تغم الامور
بذات الصليل وذات اللجم
المتقارب ص٥١ ـ ١٧٨

٤٩ ـ الريح تبكى شجوها
والبرق يلمع فى الغمامة
مجزود الكامل ص ٢٠١

٥٠ ـ وقدمت الاديم لراهشيه
وألفى قولها كذبا ومينا
الوافر ص ١٧٧

٥١ ـ أعرف منها الجيد والعينانا
ومنخرين أشبها ظبيانا
الرجز ص ٢٩

٥٢ ـ فليت التى عند النجوم تواضعت
على كل غث منهم وسمين
غيوث المها فى كل محل ولزبة
أسود الشرى يحمين كل عرين
الطويل ص ٥١

٥٣ ــ ان الثمـــانين وبلغتهـــا
قد احوجت سـمعى الى ترجمــان
السريع ص ٧٥

٥٤ ــ وكـل آخ مفــارقه أخـوه
لعمـــر أبيــك الا الفــرقدان
الوافر ص ٢٤٩

٥٦ ــ طاروا عــلاهن فطـــر علاها
واشـــدد بمثنـى حقب حقـــواها
الرجز ص ٢٩

٥٧ ــ أن أباهـــا وأبــا أباهـــا
قد بلغـــا فى المجـــد غايتـــاها
الرجز ص ٢٩

٥٨ ــ أى قلـــوص راكب تراهـــا
طــاروا عــلاهن فطـــر عـــلاها
الرجز ص ٢٩

٥٩ ــ تجمعن من شتى ثلاث وأربع
وواحـــدة حتـــى كملـــن ثمانيـــا
الطويل ص

٦٠ ــ كأن يمينـــا ســحبل ومصيفه
مراق دم لـــن يبـــرح الدهـــر ثاويا
الطويل ص ٣٠

٦١ ــ فأبلـــونى بليتكـــم لعـــلى
أصالحكـــــم واســـتدرج نويـــا
الوافر ص ٥٣

٦٢ ـ هنـــاك أن تبكى بشعشان   رحب الفؤاد طائل اليـــدان

ص ٣٠

٦٣ ـ طاروا علاهن فطر علاها   وأشدد بمثنى حقب حقواها

ص ٢٩

٦٤ ـ كأن صريف ناباه اذا منـا   أمرهما صـــرير والاخطبـــان

ص ٢٩

٦٥ ـ بكر العـــواذل فى الصـــبا   ح يلمننــــــى وألومهنـــــــه

ويقلـــن شـــيب قد عـــلا ك وقـــد كبـــرت فقلت انه

ص ٣٢

٦٦ ـ بدا لى أنى لست مدرك ماضى

ولا ســـابق شيئا اذا كان جائيـــا

ص ٥٤

٦٧ ـ رأينا ما رأى البصراء منا   فآلينـــا عليهـــا أن تبـــاعا

٦٨ ـ بها جيف الجيدى فأما عظامها   فبيض وأما جلـــدها فصليب

٦٩ ـ هما يلبسان المجد أحسن لبسة   شجيعان ما اسطاعا عليه كلاهما

ص ٧٠

٧٠ ـ هممت ولم أفعل وكدت وليتنى   تركت على عثمان تبكى حلائله

ص٩٩

٧١ ـ وما كان الفتى الا يسيرا   لو أن الرزق يبلغـــه اجتهـــادى

ص ٢٤٢

شـــطرات الأبيـــات

– ولكننـــى من حبهـــا لعمـــير

عجز بيت من الطويل ص ٣٤

– ألـــم أك جاركـــم فتركتمـــونى

صدر بيت من الوافر ص ١٨٧

– وبت أفض أغـــلاق الختـــام

عجز بيت من الوافر ص ٢٦٣

– وأبـــرزها وعليهـــا ختـــم

عجز بيت من الوافر ص ٢٦٣

– أم الحليس لعجـــوز شـــهربة

ص٣٦

– ألستـــم خـــير من ركب المطـــايا

ص١٧٥

– لا يفخر الساق من أين ولا وصب

ص ٢٥٥

فهـــرس الموضـــــوعات

البـــاب الاول

الموضـــــوع	الصفحة
ـــ قوله تعالى (للذين يؤولون من نسائهم تربص اربعة أشهر فان فاءوا فان الله غفور رحيم)	٦٨
ـــ قوله تعالى (والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ...)	٦٩
ـــ قوله تعالى (انما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون)	٧٤
ـــ قوله تعالى (ان المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضا حسنا يضاعف لهم ولهم آجر كريم)	٧٥
ـــ قوله تعالى (يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصى والاقــدام)	٧٨
ـــ قوله تعالى (وقطعناهم اثنتى عشرة أسباطا أمما)	٨١
ـــ قوله تعالى (فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه ففديـــة ...)	٨٤
ـــ قوله تعالى (ولا تنكحوا المشركات حتى يــؤمن ولأمــة مؤمنة خير ...)	٨٩
ـــ قوله تعالى (يسألونك ماذا ينفقون ...)	٨٩
ـــ قوله تعالى (ولقد صدقكم الله وعده اذ تحسونهم باذنه...)	٩٠
ـــ قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا)	٩٤
ـــ قوله تعالى (أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى) ..	٩٧
ـــ قوله تعالى (اذا أخرج يده لم يكن يراها)	١٠٠
ـــ قوله تعالى (غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب...)	١٠٢
ـــ قوله تعالى (وان يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم)	١٠٥
ـــ قوله تعالى (الله الذى جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون)	١٠٦
ـــ قوله تعالى (لا يسمعون فيها لغوا الا سلاما ...) ..	١٠٧

البـــاب الثـــانى

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة